قرن الشيطان

Satan's Horn

تاريخ الحركة الوهابية ، والسيرة الذاتية

لمحمد بن عبد الوهاب النجدي

محمد نجيب نبهان

جميع الحقوق محفوظة © لمجلة روح الإسلام

لا يجوز إعادة نشر هذا المحتوى أو اقتباسه أو توزيعه أو ترجمته كليًا أو جزئيًا بأي وسيلة كانت – سواء كانت مطبوعة أو إلكترونية أو مسموعة – دون إذن خطّي مُسبق من إدارة مجلة روح الإسلام.

تحتفظ المجلة بكافة الحقوق الأدبية والفكرية للنصوص المنشورة، ويُعدّ أي استخدام غير مرخّص انتهاكًا لقوانين حماية الملكية الفكرية، ويعرّض صاحبه للمساءلة القانونية.

مجلة روح الإسلام

فكرٌ نقيّ، قلمٌ حر، ورايةٌ لا تنكسر

مقدمـة الروايـــة: "قــرن الشيطــان"

"وما كانت الحكايات تُروى عبثًا، بل لتَفضحَ ما خبّأه التاريخ خلف عباءته، وتُنصِف أولئك الذين ابتلعتهم الرمال دون أن يُدوِّن أسماءَهم أحد."

حين يكتب التاريخُ نفسَه، يتزيّا بما تيسّر من ثياب المنتصرين؛ يُخفي عِظامَ المذبوحين تحت بساط الرواية الرسمية، ويخيطُ الوقائع بخيوطٍ من نار وماء، يجمّل بعضَها، ويطمس بعضَها، ويترك الباقي نهبًا للشك والخيال.

ولكن حين نكتب نحن التاريخ، لا نُسلم رقابَنا للسكين، بل نُمسكُ بالنصل ذاته، ونشقُّ ذاكرة الرمل لنعثر على بذور الحقيقة تحت أنقاض التقديس.

هذه الرواية ليست اختلاقًا، ولا خيالًا محضًا، ولا تحاملًا يُمليه الغضب. إنها محاولة جادة لالتقاط رائحة الحقيقة، تلك التي هربت من كتب الفقه، وارتجفت في بطون السير، وتلعثمت بين رُكام الأدلّة.

أكتبُها لا لأجل النقاش، بل لأجل الضمير الذي لم تعد تُقنعه الروايات المنقوصة، ولا المرويات المحنَّطة في قوالب التبجيل.

في قلب الجزيرة، حيث الصحراء تُنصت، والقبائل تتناسل من لهب الغزو، ولدَ رجلٌ سيُعرف لاحقًا بأنه مؤسس "حركة"، ولكن الحقيقة أنه كان رافع قرنٍ، ليس ككل القرون، بل كما وصفه النبي العربي في نبوءةٍ أرهقها التأويل: "**من نجد يطلع قرن الشيطان.**"

فمن هو محمد بن عبدالوهاب؟

أهو مصلح سلفي أحيا السنّة كما يزعم أتباعه؟

أم هو نبيُّ نارٍ، شقّ التوحيد سيفًا، واختزل الدين في السمع والطاعة، وأشعل العنف في قداسة التكفير؟

وهل كانت الوهابية حركة دينية محضة؟ أم أداةً سياسية في يد آل سعود، للتمكين والتوسّع تحت راية التوحيد وسيوف الإبادة؟

ما الذي جرى في قلب نجد؟

كيف بُنيت إمبراطورية الدم تحت أقدام الحنابلة؟

كيف استحالت الدعوة إلى دولة؟

وكيف تواطأ الخارج مع الداخل في صياغة شرق أوسطٍ جديدٍ، كان "قرن الشيطان" فيه أحد أسنّة الطعن الكبرى في خاصرة الأمة؟

هذه الرواية ليست وثيقة اتهام، لكنها أيضًا لا ترتدي قفازات الاعتذار.

إنها سيرة وُلدت من رحم الشك، ورضعت من صدر التاريخ، وتعلمت أن تنبش، لا أن تسلِّم.

سأروي لكم القصة كما جرت، لا كما تمنّت السلطة أن تُروى.

سأحكي لكم عن "الرجل"، و"العقيدة"، و"التحالف"، و"السيف"، و"الرمال التي شربت دماء الألوف تحت راية التوحيد".

قرن الشيطان ليست مجرد رواية... إنها نداء يقظة، ومواجهة مع ذاكرةٍ أُريد لها أن تصمت.

وإن كانت الحقيقة تقتل، فأكرم بها من رصاصة.

محمد نجيب نبهان

كاتب – ناقد تاريخي وفني

ابن الصحراء وخصيم الغبار المقدّس

مقدمة نقدية لرواية "قرن الشيطان"

حين فرغتُ من قراءة رواية "قرن الشيطان"، لم أضع الكتاب جانبًا كما أفعل عادة بعد قراءة ممتعة، بل ظللت أقبض عليه كما يُقبض على جمر الحقيقة، كأن شيئًا في هذا العمل أبى أن يُغادرني، وظلّ يطرق أبواب ذاكرتي بجملة هنا، وبمشهد هناك، وبصرخة مكتومة في صدر بطلٍ لم تُكتب نهايته بعد.

في هذا العمل، لا نقرأ رواية تقليدية تتكئ على الحكاية وحدها، بل نُجبر على العبور إلى طبقات أعمق من النص، حيث التاريخ يمشي في هيئة بشر، والسياسة تتنكر في أقنعة الدين، والدم يكتب حروفه فوق جدران الخراب.

لقد امتلك الأديب محمد نجيب نبهان قدرة نادرة على أن يصهر المتخيل والواقعي في بوتقة واحدة، دون أن يُخلّ بتوازن اللغة أو يُفرّط في شعريّة السرد. فكل فقرة هنا تنبض بوعي مؤلم، وكل صفحة تُشبه مرآة صدئة يُجبرك الكاتب أن ترى فيها وجه الأمة وهو يُغسَل بالرماد.

"قرن الشيطان" ليست رواية تاريخية بالمفهوم المدرسي، ولا سياسية بمفهوم الشعارات، بل هي عمل أدبي شديد الجرأة، ينتزع القارئ من سلبيته ويُقحمه في أسئلة كبرى عن الهوية، والشر، والمقدّس حين يُستخدم كأداة قتل لا كوسيلة خلاص.

لغة نبهان، في هذا العمل، مشبعة بالشعر دون أن تُفرّط في وضوح المعنى، مشحونة بالغضب النبيل لا بالغوغائية، ومبنية على عمارة سردية ترفض التزييف، وتسخر من التجميل، وتُحاكم الواقع لا لتُرضي قارئًا، بل لتوقظه.

في شخصياته، لا نجد أبطالًا تقليديين، بل نجد كائنات حية تنزف وتخطئ وتحلم وتلعن، كأنما أخرجها الكاتب من لحم المجتمعات العربية المنكوبة، ومن تراب الأحداث الذي ما زال يغلي تحت أقدامنا.

وفي لحظات كثيرة، شعرت أنني لا أقرأ، بل أُستَجوب، لا أتابع الرواية، بل أحاكم معها هذا "القرن" الذي تجسدت فيه شياطين الفكر والسلطة والتأويل.

إنني أكتب هذه المقدمة لا بصفتي ناقدًا يُقيم عملاً، بل بصفتي قارئًا صادقًا وجد في هذه الرواية مرآة لأجيال ضائعة، وسوطًا من نار في يد كاتب يعرف تمامًا أين يضرب، ولماذا.

"قرن الشيطان" ليست مجرد رواية... إنها شهادة أدبية عالية النبرة، تعيد تعريف مفهوم "الجرأة" في الرواية العربية، وتضع صاحبها في مصاف من جعلوا من الأدب فعل مقاومة، لا أداة تسلية.

مصطفى خاطر .. ٢٠٢٥

الباب الأول: البذرة

الفصل الأول: الولادة من رحم القرون

لم تكن الجزيرة العربيّة في مطلع القرن الثاني عشر للهجرة (الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي) سوى بقعة ممزّقة من أطراف العالم الإسلامي، تسكنها العشائرُ قبل أن تحكمها، وتُسيّرها الغرائزُ قبل الشرائع، وتشدّها سلاسل الرمل والجهل أكثر مما تربطها وشائج العقيدة الواحدة.

في نجد، التي كانت قلب الجزيرة اليابس، لم يكن هناك عرش، بل مضارب متفرّقة. ولم يكن ثمّة سلطان راسخ، بل أمراء قبائل يتنازعون فيما بينهم على مجاري الأودية وحقول النخل وأصوات الرجال. لم تكن الدولة العثمانية، وإن ادّعت السيادة الدينية والسياسية، تملك من هذا الشطر سوى الاسم، وبعض الولاءات الشكلية، وكثيرٍ من اللامبالاة.

كانت المدن قليلة العدد، فقيرة المورد، محدودة الأثر، أشبه بالجُزر المتناثرة في بحرٍ من الرمل والفراغ. وكان للجهل سلطانٌ لا يُبارى، يسكن العقول كما يسكن البيوت، تتوارثه الألسنة والأنفس مع الأعراف والتقاليد. فالعلم الشرعي، حيث وُجد، كان محصورًا في تكرار المتون، وتقديس الحواشي، وإعادة الأقوال ذاتها كما لو كانت أركانًا لا تقبل الجدل، حتى صار الدين في نظر عامّة الناس مجموعة من الطقوس والممارسات الغامضة التي لا يُفهم منها إلا ما يتّصل بالرغبة في النجاة أو الخوف من الجن.

في قلب هذا المشهد، كانت بلدة العُيينة تلوذ بوضعها الهامشي، تتأرجح بين خضوعٍ شاحب لبني خالد – أمراء الإحساء – وبين محاولاتٍ للاستقلال على يد أسرتها الحاكمة. العُيينة لم تكن من حواضر العلم أو التجارة، بل من بلدات القبائل التي تنهض إذا اشتدّ بأس أمير، وتنهار إذا غضب سلطان قريب أو بعيد.

وفي هذه البلدة، وُلد محمد بن عبدالوهاب في عام ١١١٥هـ (١٧٠٣م)، لعائلة تنتمي إلى آل مشرف من بني تميم، وهي أسرة معروفة بين أهل نجد بأنها حنبلية النزعة، تشتغل بالعلم الشرعي، ويُضرب بها المثل في الصرامة والالتزام.

كان أبوه، عبدالوهاب بن سليمان، قاضيًا وفقيهًا، عُرف بالحدة والانضباط، وكان من جملة القضاة الذين لا يُداهنون ولا يسلكون طرق الليونة في إصدار الأحكام. وكان يرى في الفقه وسيلةً لحراسة المجتمع من الانحراف، لا بابًا للاجتهاد أو الرأي.

تربّى محمد في هذا البيت تحت ظل هذا الأب، فنشأ منذ صغره وهو يُلقّن المتونَ، ويحفظ نصوص الفقهاء، ويستظهر أقوال ابن قدامة وابن تيمية، حتى صارت تلك الأسماء جزءًا من وجدانه العقلي والديني.

وقد حفظ القرآن في سن مبكرة، قبل أن يُتم العاشرة، وشرع بعد ذلك في تعلم النحو والتفسير والحديث، على الطريقة الحنبلية التي تُشدّد على النص وتُضيق في التأويل.

لم يكن ذلك النشوء داخلًا في بيئة علمية واسعة، بل داخل بوتقة مغلقة، حيث التصور الديني ضيّق، والمذاهب محددة، والشك مرفوض، والاختلاف بدعة.

فقد تداخل الدين بالتقاليد القبلية، فتجلّت الممارسات الدينية في طقوس اجتماعية كالتبرك بالأشجار، والاستغاثة بالأولياء، والنذور على القبور، وتكاثر المشاهد والمزارات حتى صار بعضها قبلة للزائرين من كل مكان.

وكان بعض أهل القرى يبنون قبورًا مزخرفة، يطوفون حولها، ويطلبون منها قضاء الحوائج، بل ويُقسمون بها كما يُقسم بالله، دون أن يجدوا في ذلك تضاربًا مع دينهم أو كتابهم.

تلك المشاهد المتواترة كانت تُحدِث في نفس الطفل – الذي صار فتىً فيما بعد – حنقًا داخليًا لم يُفصح عنه مبكرًا، لكنه ترسّخ رويدًا رويدًا كجزء من يقينه بأن الخلل ليس في الناس وحدهم، بل في علمائهم، في سلطاتهم، وفي الطريقة التي آل إليها الدين نفسه.

خارج بيت أبيه، كانت البيئة لا تقل تأثيرًا:

فالجفاف يُطارد الزرع، والقبائل تتنازع الموارد، والغزوات الليلية تكرّ وتفرّ، والنظام السياسي هش، والسيادة لا تتجاوز المدى الصوتي لصاحب السلطة.

أما العلم، فمحدود الانتشار، والكتب قليلة، والحلقات مغلقة على أسماء مكرورة، بينما تتناقل العامة الحكايات والأساطير بتقديسٍ يتجاوز تقديس النصوص نفسها.

لم يكن محمد بن عبدالوهاب استثناءً في طلب العلم، فقد سلك المسار ذاته الذي سلكه فتيان عصره من أبناء الطبقة المتعلمة: حفظ القرآن، فدرس النحو على المتون الأساسية، وتعلّم شيئًا من المنطق والبلاغة، ثم انصرف إلى كتب الحنابلة، خاصة تلك التي تتصل بالعقيدة والفقه. لكن المختلف فيه لم يكن الطريق، بل الطريقة؛ فقد قرأ بنفسٍ جدليّ، وصار يرى أن كثيرًا مما يُدرّس ما هو إلا حشو، وأن بعضًا من ما يُمارس باسم الدين لا أصل له في الدين.

وفيما كان معظم أقرانه يرون في العلم طريقًا للمكانة، أو القرب من الحاكم، أو الجاه والوظيفة، كان محمد يتعامل مع ما يقرأ بقلق المصلح، لا طمأنينة الطالب.

تلك النشأة، التي جمعت بين حزم الأب، وصلابة المذهب، وضيق البيئة، وتناقضات الناس، صنعت في داخله رؤية لم تكن قد نضجت تمامًا، لكنها كانت أشبه ببذرة في جوف الصخر، تنتظر مطرًا قاسيًا كي تنبت.

كان يشعر – في قرارة نفسه – أن ثمّة خللًا عميقًا في التدين، وأنّ الناس قد نسوا "التوحيد"، ليس من جهة الإيمان بوجود الله، بل من جهة الممارسة والتصور، وأن العادات قد تسللت إلى الدين، والابتداع قد غطى على السنة، وأن من واجبه – إذا شاء الله له العلم والقوة – أن يُعيد الأمور إلى أصلها الأول.

لكن ذلك الطريق لم يكن قد بدأ بعد، إذ لا تزال مرحلة الطفولة والشباب محصورة في الدرس والقراءة والتتلمذ، ولم يكن بعد قد خطا خارج أسوار العُيينة... إلى العالم.

إلا أن البذرة قد زُرعت...

وما تلاها سيكون أمطارًا من نار، لا من ماء.

الباب الأول: البذرة

الفصـل الثاني: بيـت آل عبد الوهـاب

لم يكن آل عبد الوهاب غرباء في نجد، ولا طارئين على بيئتها القاسية التي لا تحتفي إلا بالأقوياء. كانوا من بني تميم، قبيلة ذات صوت مسموع في تاريخ العرب، وإن اختلف الناس في فرعهم، فقد اتفقوا على هيبتهم في الدِّرعية ووسط الجزيرة. لم يكونوا أمراء قبائل، ولا سادة غزو، بل سادة فقه ومنابر؛ رجال عمائم، لا رجال سيوف، ولكنهم في بيئةٍ تُقيم للفقيه وزنَ المُفتي المُخوَّل، لا تُفرّق كثيرًا بين الكلمة والسيف.

كان والد محمد، الشيخ عبد الوهاب بن سليمان، أحد علماء الحنابلة الذين وُلدوا في حضن التقليد، وترعرعوا في ظلال المذهب، وتربّوا على تعظيم السلف، وتعليم الحلال والحرام كما فُسّر من مئات السنين، لا كما يُفهم اليوم. وكان صلبًا في فكره، محافظًا في نظرته، ملتزمًا بما توارثه من مدرسة ابن تيمية وابن القيم. إلا أن الرجل -على شدّته- لم يكن يهوى الصدام، ولا استسهال التبديع، بل كان عالمًا تقليديًا من طينة أولئك الذين يرون "النهي عن المنكر" شأنَ الدولة، لا شأن الأفراد.

سكن الشيخ عبد الوهاب الدرعية بعدما تنقل بين بعض حواضر نجد، وبنى له فيها بيتًا متواضعًا، لكنه واسع العلم والحضور. وعكف على التعليم والقضاء والوعظ، فصار من وجوه البلدة ومرجعياتها. في هذا البيت، وعلى ضوء الفجر الرملي الصامت، وُلد محمد بن عبد الوهاب، في سنة ١١١٥ هـ/١٧٠٣ م، وكان مولده حدثًا عادياً في سجلّ الصحراء، لم تتفتّح له أبواب السماء ولا اهتزّت له الرمال... بعد.

في ذلك البيت، فُتحت عينا الطفل على عالم مقسوم بين حروف العلم وصرخات القوافل. كانت المجالس الفقهية تحيط به، والنقاشات المذهبية تدور أمامه، والكتب تُقرأ وتُنسخ وتُحفظ عن ظهر قلب. حفظ القرآن وهو لم يتجاوز العاشرة، وهو أمر مألوف لأبناء العلماء، لكنه تفوّق في سرعة الحفظ، وحدّة الذهن، وحدة الطبع أيضًا. لاحظ والده فيه نزعةً للتمحيص لا للاتباع، وتشدّدًا في الحكم على العوام الذين يُظهرون ما يُسمّى في الفقه بـ"البدع الصغيرة"، كالتوسل وزيارة القبور والتبرك بالصالحين.

وكانت أسرته –وإن كانت علمية– لا تُخاصم المظاهر الشعبية للدين، ما دامت لا تُفضي إلى شرك بيّن. لكن محمدًا، وهو بعدُ صبيّ، كان يقطّب حاجبيه، ويظهر الامتعاض من النساء اللائي يُشعلن البخور على أضرحة الصالحين، ومن المساكين الذين يهمسون بدعائهم عند شباك أحد الأضرحة، ومن التجار الذين يُغلّفون بضائعهم بالتبريكات. وكان يصيح غاضبًا: «أهذا دين؟! أبهذا نعبد الله؟!».

لم يكن الأب مرتاحًا تمامًا لنظرات ابنه المتحفّزة، لكنه كان يرى فيه نبوغًا يحتاج إلى ضبط. أرسله إلى مكة والمدينة لاحقًا، آملاً أن يتهذّب في رحاب الحرمين، لكن الرحلة –كما ستُبيّن الأيام– لم تُطفئ جذوة الغلو، بل كانت وقودًا جديدًا، حيث التقى هناك بتلاميذ ابن تيمية المتأخرين، واستهوته مفردات التجديد الهجومي على العقائد الشائعة.

أما أخوه سليمان، فقد كان أكثر اعتدالًا، وأكثر نفورًا من اندفاع محمد، وسيقف لاحقًا على الضفة الأخرى في المعركة الفكرية.

في بيت آل عبد الوهاب، نشأ محمد وسط خليطٍ من التقاليد الفقهية الصارمة، والتدين الشعبي العميق، والجدل المتأجج حول الخلاص والضلال، وهو خليط سيكون فيما بعد التربة الخصبة التي ستنمو فيها "العقيدة

الجديدة"، لا بوصفها بذرة إصلاح، بل بوصفها قنبلة فكرية ستُفجَّر لاحقًا على وقع الصيحات: "من بدل دينه فاقتلوه".

لكن إلى ذلك الحين، لم يكن في الدّرعية من يدري أن هذا الطفل الصامت في مجالس والده، سيحمل في صدره فأسًا لا تهوى على الشرك وحده، بل على وجه التاريخ كلّه.

كان محمد بن عبد الوهاب –ابن هذا البيت الطينيّ في نجد– نبتة شاذة في بستان ظاهر التدين، ومخبوء الشك. وها نحن نغوص أكثر في طفولته، لنعرف كيف صار العالمُ نارًا، والتوحيدُ مشنقةً، والفقهُ فُرقةً...

لكن البداية، كانت هنا: في بيت علمٍ... خرج منه من أشعل حريقًا لم ينطفئ بعد.

الباب الأول: البذرة

الفصل الثالث: طلب العلم ... على قارعة النار

لم يكن العلم في نجد ترفًا، ولا رحلاته حكاية محضًا تُروى في المجالس، بل كان العلم -ولا يزال- سلّمًا نحو الخلاص، ووسيلة للنفوذ الاجتماعي، وورقة عبور إلى مجالس الأمراء وأكفّ العامة على السواء. وكان "الطالب" في بيئة كبيئة محمد بن عبد الوهاب، لا يُنظر إليه كقارئٍ للكتب فحسب، بل كقارئ لمصائر الناس، ومُوقّعٍ عن رب العالمين، كما كان يُقال.

انطلقت رحلته العلمية في سنٍّ مبكرة، تشبه سرعة نبوغه، واندفاع يقينه نحو تفسير الدين تفسيرًا جافًا صارمًا، لا يلين ولا يُهادن. وما إن أتمّ حفظ كتاب الله، حتى طاف على حلقات العلماء المحليين في العيينة والدرعية والرياض. لكنه لم يُشبع ظمأه بعد. كان يطلب المعرفة لا ليحفظها، بل ليُنقّب داخلها عن خلل ما، عن رائحة بشرية في وحيٍ مُنزّل، أو لمسة خرافة في حديثٍ شريف.

لم يكن مجرّد طالب... بل كان، ومنذ بداياته، يميل إلى التمحيص حدّ الوسوسة، وإلى الحكم حدّ التهديد، وإلى التفسير بما يراه هو "محض السنّة"، وإن خالفه سائر العلماء. فكانت عيناه حين يقرأ، لا تنظران إلى المتن، بل تنفذان من تحته كمن يبحث عن خيانةٍ كامنة في الحبر.

أرسل به والده إلى مكة، المدينة الأولى التي فيها البيت الحرام، قلب الإسلام النابض، عسى أن تهذب هذه الرحلة روحه، وترتّب نظرته الساخطة نحو مجتمعه. لكنه ما لبث أن اصطدم بما رآه بعينيه من توسل الحجاج، وبكاء العوام على جدران القبور، وتقبيلهم لمقامات الصالحين. لم يرَ في ذلك مظاهر عاطفية تعبّدية، بل رأى شركًا صريحًا يناقض أول ما نزل من القرآن.

عاد وقد تملّكته نفرة داخلية حادّة من "الإسلام الشعبي"، ذلك الدين اليومي الذي يخلط حبّ الله بحبّ الأولياء، ويجمع بين القرآن والحجاب، بين الصلاة والحرز، بين السنّة والمولد، بين الحشمة والمشرب، بين الخشوع والاحتفال.

ثم انطلق إلى المدينة المنوّرة، عاصمة النبوّة وعلم السلف، وهناك تتلمذ على أيدي علماء الحرم، وتعرّف على مذاهب أخرى غير الحنبلي، لكنه لم يكن متسامحًا مع الخلاف الفقهي، بل كان يراه تشظّيًا عن الأصل الواحد، وعلامة فساد أكثر منها علامة تنوّع. سكنَ وقتًا قصيرًا، لكنه طال بما فيه الكفاية ليزداد نفورًا من العلماء الذين يقفون "على الحياد"، كما وصفهم لاحقًا، ومن العوام الذين "يدينون الله بغير ما أنزل"، ومن المتصوّفة الذين "يمضغون الله بمحاريب الكلام".

وفي المدينة، بدأت أولى شذرات "التحوّل الجذري". هناك، طالع بشغف كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية، ووجد فيها ضالّته؛ وجد فيها الفأس التي تُحطّم، والصوت الذي لا يعتذر. انجذب إلى فكرة "العودة إلى النبع"، ولكنه لم يعد، بل اقتحم الماء بعنف، وغاص في أعماقه وهو يطرد كل من حوله: المتسامحين، المولويين، الشعراء، الفقهاء المعتدلين، بل حتى العلماء الأقدمين الذين لم يجزموا ببدعة زيارة القبور.

عاد بعدها إلى الأحساء، واحتكّ بعلماءٍ مالكيين وأشاعرة، واحتدم النقاش هناك، وتحوّل إلى جدال، ثم إلى صدام صامت. لم يكن يجادل طلبًا للفهم، بل كان يُطلق فتاواه من موضع يقين صخري لا يتزحزح. بل إن بعض العلماء هناك، حذّروا من حدّة خطابه، ورأوا في طلابه الأوائل خطرًا على سكينة المجتمع المحلي. وبدأ يُنعت –بصوت خافت– بأنه "غليظ الطبع"، و"منكِرٌ على الخلق"، و"يتعجل في التكفير".

وكانت الأحساء، حينها، أشبه بسوق مفتوح للعلماء والمذاهب، لكنها كانت أيضًا بؤرة لاحتقان طائفي صامت بين السنة والشيعة، وهو احتقان غذّاه محمد بن عبد الوهاب لاحقًا في مؤلفاته، حين ربط التصوّف بالشرك، والشيعة بالبدعة، والعقيدة بالإقصاء، والرحمة بالقسوة، و"لا إله إلا الله" بـ"اقتل المشركين".

أما النجف، أو البصرة، أو بلاد الشام، فلم تطأها قدماه. كانت رحلاته محصورة في رقعةٍ ضيّقة، لكنها عميقة، وفي قلب نجد تحوّل العلم إلى وقود. وكل عالم التقاه، كان كأنما يُضيف حطبًا إلى هذه النار التي بدأت تتأجج في قلبه، نار لم يُرد بها إصلاحًا وحسب، بل تغييرًا جذريًا للدين كما يُمارسه الناس، لا كما نُزّل.

ولم تكن هذه الرحلة العلمية منقطعة عن طموح شخصي. فقد بدأ –على صغر سنّه– يُبشّر بأفكاره، يُجادل بها أهل بلده، يُنكِر على والده في بعض المسائل، ويتّهم العامة بالضلال، والفقهاء بالتساهل، والمجتمع كلّه بالانحراف.

وكان قد كتب في تلك المرحلة بعض الرسائل القصيرة، فيها نَفَسٌ قتالي ضد ما يراه "انحرافًا عن التوحيد"، وبدأت كلمات مثل "الشرك الأكبر"، و"القبوريين"، و"الطواغيت"، و"البدعة المكفّرة" تظهر بكثافة في خطابه، وتشكّل العصب الصلب لما سيُصبح لاحقًا: الدعوة الوهابية.

ولمّا عاد إلى الدرعية بعد هذه الرحلات، لم يكن كما خرج. لم يعد الابن الذي يرجو والده أن يخلفه في حلقة التدريس، بل صار الخصم الذي يرى في والده نفسه مداهِنًا في العقيدة.

وهنا، لم يعد العلم غاية، بل وسيلة... وسيلة للإقناع، ثم للإقصاء، ثم للإلغاء.

وفي قلب نجد، حيث القبائل تملأ الفراغ بالدم، كان العلم يُعيد تشكيل نفسه... على يد شابٍ نحيل، بوجهٍ حادّ، وكلمات كالسياط.

شابٍ... على وشك أن يرفع "قرن الشيطان".

الباب الأول: البذرة

الفصل الرابع: العــودة الناقمــة

حتى ضـاق صدر التلميـذ بالأساتــذة

عاد محمد بن عبد الوهاب من رحلته الطويلة في طلب العلم، وهو يحمل على كتفيه ما لا يحمله عادةٌ ولا مذهب. لم تكن عودته إلى العيينة أو الدرعية مجرد عودة فقيهٍ إلى مسقط رأسه، بل كانت عودة فكرةٍ إلى بيئتها الأولى، فكرةٍ شبّت في رأسه حريقًا، ووجد في صدره قنبلةً مؤجلةً ينتظر لحظة انفجارها.

لقد عاد بوجهٍ يعرفونه، لكن بعينين لا تشبهان من ودّعوه، عاد بتدينٍ صارم كحد السيف، ونظرةٍ تمور فيها نيران القلق والغضب. لم يعد التلميذ الصغير الذي يخشع عند أقدام شيخه، بل غدا يحمل في نفسه غيظًا مكتومًا على ما تلقّاه من معارف، وعلى ما رآه من مشاهد، وعلى ما حفظه من أقوالٍ يراها اليوم مجانبةً للحق المبين.

كان قلبه ضيّقًا لا يتسع لتعدد المذاهب، ولا يقبل أنصاف الحلول. وكان يراهم جميعًا وقد باعوا الإسلام: هذا بالشرك، وذاك بالقبور، وذاك بتعظيم الأولياء، وذاك بتحكيم العقل. لم يعد يطيق الموالد، ولا الطواف، ولا الشعراء الذين يمدحون النبي، ولا الفقهاء الذين يُفتون بالرخص، ولا العامة الذين يخلطون بين الدين والعادة. كل أولئك صاروا ـ في عينه ـ مشاريع ضلال. والضلال عنده لم يكن رأيًا آخر، بل حربًا صريحة على الله.

كان يرى الناس قد ارتدّوا عن "توحيد الألوهية"، كما سماه. بل إن التوحيد، ذاك اللفظ البسيط العذب، تحوّل على لسانه إلى سيفٍ أيديولوجيٍ ماضٍ، لا يعرف المجاز، ولا يرحم التأويل. أصبح التوحيد عنده ليس مجرد إفراد الله بالعبادة، بل امتحانًا عسيرًا، يُقصي من خلاله كل ما رآه دخيلًا: من التوسل، إلى البناء على القبور، إلى الصلاة في المقامات، وحتى التلفظ بألفاظ البركة على غير الله.

لم يكن الشاب قد جاوز الثلاثين بعد، لكن فكره سبق سنّه بأشواطٍ هائلة. وكان احتكاكه الأول بعلماء مدينته وقبيلته بداية صراعٍ طويل لم يهدأ، بل اشتد وتحوّل إلى عداوةٍ سافرة. فقد بدأ يهاجمهم علنًا في حلقات العلم، ويصرّ على "بدعية" ما بين أيديهم، ويكفّر بعضهم أو يُضلّلهم جهارًا. لم يكن يعترف بمقامات السن ولا المراتب، فـ"الحق أحق أن يُتّبع"، و"ما كان محمد بن عبد الوهاب ليجامل في دين الله".

فزِع الناس من لسانه قبل يده، وخشي منه الفقهاء قبل العامة. كانت خطبه تحمل نبرةً غريبة على تلك البيئة: جافة، خشنة، مليئة بالتقريع، لا أثر فيها لما تعودوه من تسامح فقهاء الحنابلة وتواضع الزهاد. كان لا يرى إلا طريقًا واحدًا، ومن انحرف عنه، فقد أباح دمه، ولو كان والده.

وفي ذلك الزمان، لم يكن التكفير مألوفًا بهذه السهولة، ولم يكن الناس يتقلبون بين جنةٍ ونار بكلمة. أما محمد، فقد صار ينظر في العقائد، لا في الأفعال، ويزن القلوب لا الجوارح، ويتدخل في نوايا الناس، لا في ظواهرهم. وكان إذا رأى أحدهم يتمسّح بجدار قبر، أو يرفع يديه نحو السماء عند ضريحٍ ما، صاح به: "كافر مشرك! هذا فعل أهل الجاهلية!". لا نصح، لا لُطف، لا إنكار بمعروف. بل صراخٌ، وغضبٌ، وتكفيرٌ جهري.

وحين شكا إليه بعضُ الفقهاء أن الناس لا يتحملون هذا الأسلوب، قالها بحدة:

"السكوت على الباطل أعظم من الباطل ذاته. واللهِ، لو بقيت وحدي، فسأهدم الشرك وحدي، كما هدم محمد بن عبد الله أصنام قريش."

وما لبث أن نقل فكره إلى منابر المساجد، ومدارس الأطفال، ومجالس القبائل. تسلّل إلى بيوت القضاة، وشكّك في إيمانهم. وسرعان ما انتشر خبره كالنار في الهشيم، لا سيما حين راح يراسل مشايخ القبائل الصغرى، يعرض عليهم فكره مقابل الولاء. وعندما رفض بعضهم، كفّرهم، وهدّدهم علنًا: "سترون السيف قريبًا إن لم تعودوا إلى التوحيد". لقد تحوّل الفكر إلى تهديد. وتحولت الدعوة إلى تحريضٍ خشن.

والده الشيخ عبد الوهاب، الفقيه الحنبلي المعتدل، كان من بين أوائل المعترضين. قال له ذات يوم:

"يا بني، لقد شدّدت حتى مزّقت القلوب، وضيّقت حتى فتنت العوام. فلا تكن سببًا في سفك الدماء!"

لكن الابن ما انثنى، بل تمادى، واتهم أباه بأنه من "المرجئة" الذين لا يُكفّرون من وجب تكفيره.

وبعد وفاة والده، انفجرت أفكاره كبركانٍ قديم نسيه الناس، فإذا به يحرق كل أرضٍ تطؤها قدماه. لقد تحرر من قيد الأب، وقيد الفقه التقليدي، وقيد العلماء، وانطلق... لا يتكئ على شيء إلا على فهمه الخاص للنص، ولا يعترف بمرجع إلا آيات الوعيد، وأحاديث الفتنة، وسيرة نبيٍّ حوّله إلى رمز محض للقتال، لا للرحمة.

ولم يكن الفقهاء وحدهم من انزعجوا من دعوته، بل حتى عوام الناس ضاقوا بصوت هذا الشاب، الذي كلما رأى فرحًا صبّ عليه نار الشرك، وكلما شمّ بخورًا صاح: "نار الجاهلية!"، وكلما مرّ على قبرٍ مزار، صاح بهدمه.

لقد غدت كلماته سياطًا. وجبهته صلبة لا تبتسم. وعيونه لا ترى إلا خطأً. وفكره لم يعد يحتمل المهادنة. وأصبحت نجد كلها حقلًا ينتظر شرارة... تلك الشرارة التي كان اسمه وحده يحملها.

وما كانت العودة إلا بداية النار...

الباب الأول: البذرة

الفصل الخامس: نبتة الغلو في تربة القسوة

حين تجمّع الغبار حول الفكرة

ليست الأفكار وحدها من تصنع الرجال، بل التربة التي نبتت فيها تلك الأفكار، والرياح التي عصفت بها وهي جنينٌ في رحم العقول. ومحمد بن عبد الوهاب لم يكن استثناءً، بل كان ابنًا صارخًا لبيئته، وابنًا ناقمًا في الوقت ذاته، ينهل من معينٍ قديم، ويضرب بمعولٍ جديد.

وإن أردنا الإنصاف، فإن نجد في ذلك الزمن لم تكن إلا صحراء فكرية تشتعل بالتديّن الجاف، والتعصب المذهبي، والنزعة القبلية التي لا تعرف الوسط. كانت خريطة الحنابلة فيها أشبه بشبكةٍ من المعابد الطقسية، تحتكم إلى التقليد دون تدبر، وتخشى من الجديد كما يخشى البدوي من العاصفة في الخلاء. وكان الإسلام عند أغلب أهل نجد مشوبًا بعادات جاهلية تسربت من عصور ما قبل التدوين، مزينةٍ برموز الأولياء، وطقوس الزار، وتمائم الرعاة، وأحلام الدراويش.

السلطة كانت بيد القبائل، والفقهاء كانوا موظفين ضمن دائرة الولاء، والفتوى لا تصدر عن علم غالبًا، بل عن إرادة سياسية. وكان الناس، في غالبيتهم، يعبدون الله بعقول أُطفئت، ويستسلمون لتقاليدٍ تحولت إلى أركان لا تُمس. وحين تُحاصر الفكرة بروح الخوف، وتُحرم من فضاء التأمل، لا تنمو معتدلة، بل تتخشب، وتتحول إلى عصا تضرب بها الجماعات بعضها بعضًا.

في هذا المناخ، نشأ محمد بن عبد الوهاب، لا كمجددٍ يرى في التنقية سبيلًا للنهضة، بل كمحاربٍ يظن أن كل انحراف عن عقيدته هو خيانة لله. إن

ما تبلور في روحه لم يكن مجرد مشروع دعوي، بل كان رؤية ضيقة للدين، لا تسامح فيها مع المجاز، ولا مساحة فيها للاختلاف، ولا تذوق للجمال الروحي الذي سكبته القرون في الإسلام. كان يبغض التصوف، يكره الشعر، يزدري الموسيقى، ويستنكر الفرح الديني إذا لم يكن صامتًا، باكيًا، متجهمًا.

عاش محمد بن عبد الوهاب طفولته تحت سقف فقهٍ جامد، يتردد بين حلقات الحنابلة ومجالس القُصّاص، حيث يروي الشيوخ حكايات عن النار والخلود، ويصورون الدين وكأنه كتيبة مقاتلين، لا رسالة روح. وورث من أبيه شيئًا من الفقه، لكنه أراد أن يحرق هذا الفقه ويبدأ من نقطةٍ صفر، لا تلوثها بدع الأولين، ولا زخارف الفقهاء.

ولم يكن غريبًا أن يستفزه كل ما يراه انحرافًا عن المعايير التي رسمها هو لنفسه. فقبور الصالحين كانت في نظره أوثانًا، والتوسل كفرًا، والاحتفال بالمولد شركًا، وزيارة المقامات خروجًا من الدين. فكرٌ حادّ لا يقبل الظلال، يرى العالم بلونين فقط: أبيض وأسود.

حين جلس في بيته ذات ليلة، وفتح كتاب "التوحيد" الذي ألّفه لاحقًا، كانت عيناه تقطران لهبًا، وقلبه يتقلب على جمرٍ من النقمة. لقد كتب كتابًا بلا روح، ولا دفء، ولا عاطفة. لا حُسن تبويب، ولا رائحة للغزالي، ولا نسائم من ابن عربي. كتابٌ يقطع، ولا يصل. يقضي، ولا يهذب. يقول: "من ذبح لغير الله، فقد كفر". ثم لا يتردد في القول: "ومن دعا غير الله، فهو مشرك شركًا أكبر، يخرج به من الملّة".

في نظره، الشرك لم يكن فقط في عبادة الأصنام، بل حتى في الصلاة عند قبر. في الذبح للولي. في التوسل. في مدح النبي فوق الحد الذي رسمه ابن تيمية. حتى في قول العامة: "ما شاء الله وشئت" رأى شركًا لا يُغتفر.

لقد ولدت فكرة التكفير في ذهنه ولادة مبكرة، ثم تغذّت على حليب التشدد، ونمت كالصبّار في صحراء الذهن. وكان يتلذذ بتلك اللحظة التي ينزع فيها عن المرء إسلامه، كما يُنزع الجلد عن الحيوان. حتى تلامذته، كان يشحذ فيهم هذا السيف منذ نعومة أظفارهم. لا أحد ينجو من الاختبار العقائدي. لا حاكم، ولا فقيه، ولا شيخ، ولا حتى أمهات القرون. كلّهم موضوعون في كفة الشرك أو التوحيد بحسب ما يرى.

لقد أطلق على ما يفعله "دعوة"، لكنه لم يدعُ بها أحدًا بلينٍ أو رفق، بل ألقاها كالمطرقة. فاستفز بها العلماء، وأرعب بها الفقهاء، وشتت بها السلم الأهلي. وحين تنبّه الناس إلى حجم ما يحمل، كانت الحبال قد اشتدت، وكان الزمن قد أفرز له حلفًا متينًا مع رجلٍ لا يقل عنه طموحًا: محمد بن سعود.

لكن قبل التحالف، كان لا بد للفكرة أن تُسلّح. وكان سلاحها ليس العلم ولا الفقه، بل "الولاء والبراء". هذه الثنائية التي انقلبت في يده من عقيدةٍ قلبية، إلى مشروع سياسي كامل. من لم يوافقه، فقد نقض عُرى الإسلام، ومن لم يبايعه، فقد استباح دمه وعِرضه. وشيئًا فشيئًا، تحوّلت الدعوة إلى دولة، والعقيدة إلى راية حرب.

في المجالس الخاصة، قال لمن حوله: "نحن قومٌ هدانا الله، وسواكُم على ضلالٍ، فلنبدأ في إقامة دين الله بالسيف، لا بالحبر".

ولم تمر أيام، حتى بدأت السيوف تلمع في يد أتباعه، وتهوي على رقاب البدو الذين رفضوا أن يقرّوا بتوحيده هو، لا بتوحيد الله.

لقد رسم محمد بن عبد الوهاب مشهدًا جديدًا للعنف باسم الدين، لكنه لم يكن عنفًا عشوائيًا، بل عنفًا مؤسسًا، يُبنى على النص، ويُوظف الآية والحديث والفتوى. لم يكن مجرد ردة فعل، بل كان فعلًا مقصودًا، واعيًا، يرى أن السيف هو الطريق الأجدى لهداية من سمّاهم بالمشركين.

وما أغفله أغلب المؤرخين أن هذه اللحظة – لحظة الانتقال من النص إلى الدم – لم تكن مجرد طموح شخصي، بل نتيجة منطقية للفكرة نفسها. فالعقيدة حين تخلق "الآخر الكافر" في كل مكان، لا تملك إلا أن تسفك الدماء لتقيم النقاء. ومن هنا، كانت بداية المجازر.

هذا الفصل من حياته هو أخطر ما فيه: الفصل الذي فيه تماهت الفكرة مع الرغبة، والرؤية مع السيف، والدين مع التوسع. وكان محمد بن عبد الوهاب في عمق لحظته، يظن نفسه نبيًّا من طراز جديد، لا يوحى إليه، لكنه يوحى إلى "الأمة" من خلاله.

لم يكن يجد بأسًا في قتل النساء والأطفال إن هم خالفوا دعوته. فهل يُقتل الطفل لأن أباه مشرك؟ في مذهبه: نعم. وهل تُستباح القبيلة لأنهم قالوا "يا رسول الله" بدل "يا الله"؟ في فكره: نعم. هكذا بدأ فقه السيف الوهابي يتشكل، لا من رحم الشريعة، بل من رحم الخوف والغضب والتضييق على الناس.

هكذا إذن، وبكل قسوة، تكاملت البذرة. نضجت الغرسة. اكتمل الشكل، وبقي فقط من يسقيها دمًا لتورق دولة. وهذا ما سيبدأ مع الباب الثاني...

الباب الثاني: نار في العروق

الفصل الأول: صدى النار في العقل الصغير

في مساءات الدرعية، لم يكن الصمتُ هادئًا، بل مثقلاً بما تخفيه العيون وتكتمه الأنفاس. فالأطفال، وإن بدا لعبهم صاخبًا، كانوا مرآةً صافية لما يعتمل في صدور الكبار، يعكسون مخاوفهم المكبوتة، وتناقضاتهم، ونزعاتهم الطائفية والدينية. وكان محمد، الفتى النجديّ، يحمل في وجهه المثلّث الملامح، عينين زجاجيتين لا تُظهران دهشة، بل تُقشّران ما حولهما ببطء يشبه تأمّل الحيوان المفترس لفريسته. لم يكن الطفل طفلًا بالمعنى الدارج. كان عقله الصغير يضجّ بأسئلة أكبر من جسده، يراقب ويحسب ويستنتج دون أن ينطق، كأنما خُلق للنظر، لا للعيش.

لقد نشأ محمد في بيت علمٍ وتديُّن، حيث يختلط الحنبلية بالتقوى الصارمة، ويصير الفقه بابًا للخشية أكثر منه بابًا للرحمة. كان والده عبدالوهاب من فقهاء زمانه، يعلّم الناس في المسجد، ويفسر لهم المتون، ويُنزِل آراء ابن تيمية منزلة الوحي. وكان الصبي الصغير يجلس خلف الأب، ينصت لا للفهم بل للسيطرة: كيف يَخضع الناس؟ كيف تُروّض العقول؟ كيف يمكن لشيخٍ أن يجعل الرجال، أصحاب العمائم واللحى، يُومئون برؤوسهم في طاعةٍ تلقائية؟ تلك كانت أولى لمحات الافتتان بالسلطة الروحية في عقل محمد الطفل.

وفي البيت، كان الخوف ضيفًا دائمًا، خوفٌ من النار، من المعصية، من البدعة، من "الضلال"، من كل ما ليس هو. كانت أمّه تتحدث عن الجنّة والنار كما لو أنهما غرفتان في البيت. وكان إخوتُه الكبار يعيدون ما يسمعون في المجالس من آيات العذاب، يردّدون قصص الحرق والصلب واللعن كما يردّد

الأطفال أسماء الألعاب. نشأ محمد بين أفواه تمضغ الجحيم، وتلوك العقاب، وتصبغ الدين بلون الدم والوعيد.

لكنه لم يكن سهلَ الانقياد. في عينيه بريق مقاومة لا يراه إلا من دقّق. لم يكن مطيعًا طاعة الخائف، بل طاعة المُترقّب. وفي الليالي الطويلة التي يقضيها وحده، كان يفكر: "لماذا كل هذا العذاب؟ لماذا نخاف الله أكثر مما نحبه؟ لماذا الجنة لا تُعرض إلا ببابٍ من نار؟". ثم يُسرع بالاستغفار سرًّا، خشية أن يسمعه الله، أو يسمع وساوسه أحدُ الملائكة.

كان أبوه يأخذه إلى حلقات الدرس، يجلسه بين الرجال، وهو لم يتجاوز بعدُ العاشرة. وكانت مفاهيم "الولاء والبراء"، و"الجهاد ضد المبتدعة"، و"تكفير أهل الأهواء"، تُزرع في أذنه كالطعون، دون أن يُدرك أنها ستنمو يومًا ما شجرًا مسمومًا. وكان محمد يتلقفها بنهم، لا من باب القناعة، بل من باب الشغف بفكرة الحقيقة المطلقة، التي لا تقبل التأويل، ولا ترضى بالاختلاف.

كانت الدرعية آنذاك، برغم بساطتها، مشحونةً بتيارات صامتة. فالقبائل تتنازع خفية، والحكام الصغار يتربص بعضهم ببعض، والحجاز يُنظر إليه بريبة، والبصرة ببغضٍ مكتوم، واليمن يُلعن من فوق المنابر. وبين كل تلك الحدود المتخيلة، كان محمد الصغير يُدوِّن في ذاكرته "من هو نحن؟ ومن هو هم؟" دون أن يعرف أن تلك الأسئلة ستقوده إلى سيوف التكفير.

ذات يوم، وبينما كان والده يراجع مخطوطات قديمة، سمعه يتمتم بحديثٍ عن أحد أجدادهم الذين انزلقوا إلى "البدعة"، وكيف أنّ ذلك كان سببًا في قَطْع النسب الروحي عن السلف. لم يفهم محمد كل شيء، لكنّ كلمة "البدعة" ظلّت ترنّ في رأسه كما يرنّ الطبل في وادٍ فارغ. وبدأت تتكوّن في

روحه فكرة أن الخطأ الديني ليس كأي خطأ: إنه جريمة، خيانة، رجسٌ يستوجب الإبادة.

وكان يقضي وقت فراغه في تصفّح كتب والده، يتنقّل بين الحواشي والمتون، يتوقّف أمام الفتاوى الغريبة، يخطّ بقلمه الصغير هوامش من الأسئلة: "لماذا؟ وهل هذا يعني كفرهم؟ وما مصيرهم؟". وكان عقله يأبى التفسير اللين، ويميل إلى النص القاطع، السيفيّ، الذي لا يترك مكانًا للتأويل.

وذات ليلة، بينما كانت أمه تخبره حكاية عن أحد الأولياء الصالحين، انفجر قائلًا: – كيف يكون صالحًا وهو ميت؟ كيف تسمونه وليًّا وتستغيثون به؟ هذا شرك! ارتعدت الأم، وضربته على فمه، لكنها أدركت حينها أن روحًا أخرى سكنت جسد هذا الطفل، روحًا لا تُشبه إخوتَه، ولا أبناء الجيران.

في سن الثانية عشرة، بدأ محمد يرتاد المساجد الأخرى في الدرعية، لا ليُصلي فقط، بل ليراقب. كان يدوّن ملاحظاته في دفترٍ صغير: من يستغيث بمن؟ من يتوسل بمن؟ من يقبّل القبور؟ من يدعو الأموات؟ كانت ملامح مشروعه تظهر، لا كرغبة في الإصلاح، بل كهوسٍ بالمطابقة. الدين في ذهنه معادلة لا تقبل خطأً واحدًا. وكل انحراف، مهما بدا بسيطًا، هو بوابة إلى الكفر الأكبر.

ثم جاء اليوم الذي سمع فيه والده يقول أمام بعض تلامذته: "الناس ضلّوا الطريق، لكن لا بد من اللين في الدعوة، فليس كلُّ مبتدعٍ بكافر". عندها شعر محمد بالغضب الصامت، ورأى في والده، لأول مرة، رجلاً متردّدًا، يخشى الناس أكثر مما يخشى الله، ويُراعي القلوب أكثر مما يراعي الحقيقة.

وهنا، بدأت أولى بذور القطيعة تنمو في صدره.

كانت طفولة محمد بن عبدالوهاب، كما تبدّت في هذه المرحلة، طفولة فريدة، لا تسير على نمط العادي، ولا تستسلم لمجرد التلقين. كان طفلًا ينظر إلى العالم على أنه ميدان معركة بين "حقه" و"باطل غيره"، وأنه المنتدب، المختار، المكلف بتطهير الأرض من الشوائب التي لوثتها عادات الناس، وبدعهم، وموروثاتهم التي تراكمت كالطين على وجه التوحيد.

وكان يرى في ذاته قدرة غريبة على التمييز، على الفصل، على القطع، على الحسم. لم يكن يكتفي بترداد ما يسمع، بل ينسج منه خيوط مشروعٍ داخلي، يتبلور تدريجيًا، كأنّ نبوءةً ما تولد فيه، تؤمن أن العالم بحاجة إلى نبي جديد، أو على الأقل إلى سيفٍ يُصلح ما أفسدته القرون.

وهكذا، كان صدى النار في العقل الصغير يتردد، يعلو، يتسع، حتى بدأ يحرق ما حوله من طمأنينة، استعدادًا لولادة الحريق الأكبر...

ولم يكن يعرف أحد بعدُ، أن تلك النار، ستغيّر وجه الجزيرة كلها

الباب الثاني: نار في العروق

الفصل الثاني: ظلال الحيرة والتكوين الأول

لم يكن محمد بن عبدالوهاب حينذاك قد غادر الدرعية، ولا عرف من العالم إلا حدود نجد الرملية، ولا وطئت قدماه أرضًا أوسع من تلك الطرق المتعرّجة التي تفصل المسجد عن السوق، والبيت عن حلقة الدرس. لكن داخله كان قد بدأ يرحل. رحلاته الأولى لم تكن على ظهور الجمال، بل على أجنحة التساؤلات التي تنبض في صدره الصغير كدفعات قلب لا يستقر. كان ينظر إلى العالم من حوله كمن يكتشف شيئًا فاسدًا تحت غطاءٍ جميل. رأى القباب تُزار، والقبور تُمسح، والدعاء يُرفع إلى غير الله، فرأى في كل ذلك انحرافًا، خيانةً لنقاء التوحيد الذي ارتسم في عقله الصارم كمرآة لا تقبل الغبار.

الطفولة عند محمد لم تكن مساحة للدهشة أو البراءة، بل كانت أشبه بما يمكن أن يُسمّى "مرحلة التحفّز". لم يكن يتفاعل مع الأقران، ولا يندمج مع لعب الصبية، بل كان كمن يجلس على حافة الطفولة، مراقبًا. كلّ شيء بالنسبة إليه كان يحتاج إلى فحص: سلوك الأم، طريقة والده في إلقاء الدرس، دعاء الخادمة، حركة الإمام عند رفع يديه، كيف يُغسل الميت، متى يُقبّل القبر، هل يُقال "يا رسول الله" أم لا. كل شيء قابل للتحليل. كانت الحياة لديه معادلة، لا قصيدة.

وفي المساء، حين تسكن الأصوات وتخفت الأضواء، كان يحدّق في سقف البيت الطيني ويعيد ترتيب الفتاوى في ذهنه. لم يكن ذهنه باحثًا عن تسلية، بل عن نظام، عن سلطة، عن هندسة صارمة للحق والباطل. في إحدى تلك الليالي، سمع حديثًا بين أبيه وزائرٍ مسنّ عن "كرامة" وقعت لشيخٍ في البصرة، حيث قيل إنه طار من مكانه إلى الشام في لحظة! بدا الضيف مندهشًا، وأخذ يكرّر: "سبحان الله!"، أما محمد فقد شعر بقشعريرة لم تكن إعجابًا، بل

رفضًا. ما هذا التهريج؟! هل يُعقل أن الدين – الذي يُفترض فيه أن يكون منضبطًا كالهندسة – يُسلّم بالخوارق كأنها مزحة؟ ومنذ تلك اللحظة، بدأ يبغض الخرافة، لا من منطلق عقلاني، بل من منطلق سلطوي: لأن الخرافة تُضعف القبضة، تُرخي العقل، وتمنح الناس عذرًا في عبور التوحيد.

كبرت عيناه، ولم يكبر جسده بعد. أصبح صمته أكثر فتكًا من الكلام. وحين يتكلم، لم تكن نبرته خاضعة لصوت الأطفال. كان يتحدث ببطء، كأن كل جملة يحملها على كاهله، ثم يُسقِطها ثقيلة. نظرته للناس صارت تتغير. لم يعد يرى الوجوه، بل يرى "الانحرافات". لا يوجد إنسان صالح بالكامل، لا يوجد مجتمع مستقيم، لا وجود لدين بلا شوائب. كان كل من حوله متّهمًا بالبدعة حتى تثبت براءته، ولم يكن يُصدر الأحكام علنًا، بل يبتلعها في صدره، يكتبها في وريقاته الخاصة، ويعلّقها في سويداء قلبه كأدلة على عالم ينبغي تقويمه.

ذات يوم، وهو في حلقة لأحد الشيوخ المحليين، سمع تفسيرًا لآية تتعلق بـ"الشفاعة"، وكان الشيخ يحاول تقريب المعنى، فجاء بمثال بسيط عن رجلٍ صالح يشفع لأهله في الآخرة. انفجر قلب محمد من الداخل. من هذا الذي يسمح لنفسه بتفسير القرآن بهذا التساهل؟ من الذي خوّله أن يجعل لأحدٍ سلطة بين الله وعبده؟ كان ما سمعه كضربة خنجر في ظهر يقينٍ يتكوّن. عاد إلى البيت، وفتح كتب ابن تيمية، وعاد يقرأ تلك الجمل التي كانت تشبه المقاصل: "من دعا غير الله فقد أشرك"، "الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله"، "الاستغاثة بالمخلوق شرك أكبر". وكلما قرأ، شعر أن النار في صدره تأكل شيئًا من الطفولة، وتبني فيه رجلاً لا مكان فيه للتسامح.

في البيت، لم يكن يجد كثيرًا من الأمان الروحي. كانت أمه ساذجة دينيًا، تخلط بين العادة والدين، تدعو الأولياء، وتبكي عند قبور الصالحين. وكان أبوه، رغم ما له من مكانة، متردّدًا في إشهار بعض الأحكام. رأى فيه محمد شيخًا ضعيفًا، يُراعي الناس أكثر مما يُراعي الحق. لم يقل له ذلك، لكنه بدأ

ينفر من طريقته، ويُدخِل في وعيه أن المشايخ الكبار لا يعني أنهم الأقرب إلى الصواب.

ومع ذلك، كانت كتب الأب كنزًا لا يُقدّر. وبدأ محمد يقرأ كل ما تقع عليه عيناه: متون العقيدة، شروح الحديث، فتاوى علماء القرون الأولى، أقوال ابن تيمية، ومن بعده ابن القيم. وكان كل نص يُشبه لبنة جديدة في بناء داخلي، لكن هذا البناء لم يكن صومعة هدوء، بل قلعة قتال. بدأ يُدوِّن أفكاره كمن يكتب بيانًا أوليًّا لحرب قادمة. لم يكن يكتب ليفهم، بل ليُعدّ نفسه.

وحين وصل إلى سنّ المراهقة، صار أكثر انعزالًا. لم يعد يخرج إلا نادرًا. وكان بعض أبناء جيله يتهامسون: "إنه متكبّر"، وآخرون يقولون: "مجتهد"، لكنه لم يكن يهمه أحد. في داخله، كان يرى نفسه رسولًا مؤجّلًا، ينتظر لحظة الإعلان.

ومع تزايد قراءاته، بدأت تتكوّن في ذهنه صورة للمجتمع الكامل، مجتمع يخلو من القباب، ومن الذبائح لغير الله، ومن الحلف بالنبي، ومن الموالد، ومن القصائد التي تتغزّل بالأولياء. لم يكن يتخيّل الجنّة، بل يتخيّل مجتمعًا يُشبه المعسكر، طاعةٌ، خشيةٌ، صفوفٌ متراصة، وضبطٌ عقائدي صارم. لم تكن نظرته أخلاقية، بل إيمانية صلبة: الحق يُؤخذ لا يُناقَش.

ثم جاء يومٌ ألقى فيه خطبة في مسجد صغير، وكان الحضور من البسطاء، وقد ظنّوا أنه سيحدثهم عن التقوى أو الصلاة. لكنه فاجأهم بهجومٍ قاسٍ على "البدع"، على "زيارة القبور"، على "أولياء الطرق"، على "شرك الاستغاثة". كان يتحدث كمن يحمل رسالة من السماء. وبعد الخطبة، انقسم الناس، بعضهم صمت، وبعضهم همس بأن الفتى متطرّف. أما هو، فقد شعر بنشوةٍ لا مثيل لها: أخيرًا قال ما يفكر فيه.

وفي الأيام التالية، بدأت النار تتّقد أكثر. كان كل حدث – صغير أو كبير – يُغذّي رغبته في إعادة تشكيل الدين. سمع رجلاً يُقسم بالنبي، فكره الأمر حتى المرض. رأى امرأة تبكي على قبرٍ، فكاد يصرخ فيها. في السوق، سمع الناس يمدحون "كرامات" الرفاعي، فشعر بأن القيح يسيل من الأذان.

كل هذا جعله يرى نفسه مكلفًا، لا عاديًّا. لقد بدأ يشعر أنه مسؤول عن توحيد الله في الأرض. أن الله اختاره لا بالوحي، بل بوضوح الرؤية. لقد فهم، والآخرون لم يفهموا، إذن عليه أن يهديهم، أو يُطهر الأرض منهم.

وهكذا، وبين جدران الطين، وتحت سقف القش، وفي قلب نجد، كانت النار تكبر. لم تكن نارَ محبةٍ ولا نارَ شغفٍ بالحقيقة، بل نارٌ تُراد أن تحرق، أن تُطهِّر، أن تُعيد خلق العالم وفق عقل طفلٍ صار يظنّ نفسه ميزانَ الحق والباطل.

وفي ليلة من الليالي، كتب محمد في دفتره الخاص:

"سيأتي يومٌ يُمحى فيه الشرك، وتُهدم القباب، ويُغلق باب كل وليّ، وتُخرَس ألسنة أهل البدعة. لن يُعبد إلا الله، كما أريد أنا، لا كما أرادوا هم."

ثم أغلق الدفتر، ونام.

لكن الجزيرة لم تنم بعدها أبدًا.....

الباب الثاني: نار في العروق

الفصل الثالث: على عتبة الرحيل

كانت الليالي الأخيرة في الدرعية تمضي ثقيلة على قلب محمد، لا لأنه يغادر بيت الطفولة فقط، بل لأنه يشعر لأول مرة أن موطنه في هذا العالم صار ضيقًا عليه. لم تعد الجدران القديمة تتّسع لأسئلته، ولا حلقات والده تروي نهمه. صارت الحروف التي طالما ردّدها مكرورة، جوفاء، باردة، كأنها أحاديث موتى. كان كل شيء حوله يشير إلى وجوب الانتقال، لا إلى مكانٍ جديد فحسب، بل إلى طورٍ جديد من الإدراك والتشكّل.

جلس ذات مساء على أطراف النخل في أطراف البلدة، يراقب الغروب الذي لطالما تأمله بصمتٍ طويل. لم يكن مجرد غروب شمس، بل انطفاء مرحلة بأكملها. سمع ذات مرة شيخًا يقول إن لكل عبدٍ سفرتين: واحدة بالأقدام، وأخرى باليقين. وشعر في تلك اللحظة أنه على عتبة كلتيهما. كانت الأرض التي درج فيها منذ ولادته تُخفي عن عينيه بقيّة الصورة، والقلوب التي حوله عاجزة عن مواكبة اضطرام قلبه.

كانت أحاديث السفر قد بدأت تهمس في البيت، وكان الوالد يخطط لإرسال محمد إلى الأحساء، إلى علمائها، إلى مدارسها، إلى رجالاتها الذين يُعرف عنهم رسوخ في الفقه وتضلّع في أصول الدين. لكن محمد لم يكن راغبًا بالعلم الذي يُعلَّم فقط، بل بالعلم الذي يُخاض به غمار التغيير. وكان يظن، أو يتمنى، أن يجد هناك بُغيته. وما كان يدركه في دخيلة نفسه، أن الرحيل ليس بحثًا عن معلّم، بل بحثًا عن حلبة.

في الأيام السابقة للرحيل، بدأ محمد يعيد ترتيب دفاتره، يُمعن في ملاحظاته، يعيد قراءة كتب ابن تيمية وابن القيم كما لو أنه يستعد لمناظرة كبرى. كانت عيناه لا تفارقان صفحات المجلدات، لكنه في كل مرة كان يُمسك القلم، لا ليُقيّد حكمة، بل ليكتب ردًّا. كأنما كان يدرّب نفسه على الجدل، ويُهيئ روحه للهجوم، لا للتعلّم. وكان يُراجع ما كتبه في طفولته، تلك العبارات الأربع التي كوّنت نواته الصلبة:

"لا بد من القضاء على كل ما يُلبّس على الناس دينهم"، "لا تبرير للشرك، حتى ولو نوى صاحبه تعظيمًا لا عبادة"، "لا تقوى مع بدعة، ولا بدعة مع سنّة"، و"لا طاعة إلا لله، ولا سبيل إلا التوحيد الصافي".

صار يُنقّحها، يضيف عليها، يشتدّ بها، يحمّلها من صرامته ما يجعلها سلاحًا لا حكمة. وكان يراها لا كمبادئ قابلة للنقاش، بل كحدود فاصلة بين الإيمان والكفر، بين النقاء والانحراف.

في تلك الأيام، كانت أمه تراقبه بصمتٍ يملؤه الخوف. لم يكن قلبها مرتاحًا لهذا اللهيب الذي يسكن عيني ولدها. لم تعد تراه فتىً يطلب العلم، بل رجلًا يتقدّم نحو شيء مظلم لا يُرى بعد، شيء يشبه النبوة من بعيد، ويُخفي في داخله نار التكفير. حاولت مرارًا أن تُلين حديثه، أن تُذكّره بالرأفة، بالموعظة الحسنة، بأنّ الله لا يُعبد بالخوف وحده، لكن كلماتها كانت تنكسر أمام صلابته. كانت تراه أكبر من عمره، وأثقل من بيئته، كأنه وُلد ليشعل، لا ليعظ.

في آخر ليلة له، زار محمد المسجد الكبير في الدرعية، الذي كان شاهِدًا على أولى حلقاته. صلى فيه طويلًا، وأطال السجود كما لم يفعل من قبل. لم يكن بكاءً، بل صمتًا غائرًا. كان يُلقي قلبه كلّه في الأرض، كمن يُحمّله المهمة الأخيرة: أن يذهب ليهدم، ليعيد التأسيس. ولما خرج، لم يلتفت وراءه.

وفي صباحٍ مغبر، حمل متاعه القليل، وركب الجمل الذي أعدّه له والده، وسار نحو الأحساء. كانت الطريق وعرة، لكن قلبه كان أصلب. لم يودع أحدًا، لم يتوقف في منتصف الطريق ليراجع قراره. كان يعرف تمامًا ماذا يريد، وإن لم يُفصح عنه. لم يكن يريد علم الأحساء، بل شرعيةً تُلبِس أفكاره ثوبَ السُّنة. وكان على يقين، أن هذا اللباس هو الذي سيمنحه القوة لاحقًا.

<u>هكذا، بدأت الرحلة.</u>

رحلة محمد بن عبدالوهاب إلى الأحساء، التي لم تكن رحلة تلميذٍ إلى أستاذ، بل رحلة نارٍ إلى وقود.

وما إن وطأت قدمه أرض الأحساء، حتى بدأ قلبه يخفق بشيء لم يعرفه من قبل. لم يكن خوفًا، بل توقٌ مكتوم للسيطرة.

وسيكتشف قريبًا، أن طريق التمكين ليس بالضرورة مفروشًا بالعلم، بل بالخلاف.

وما بعد الأحساء، لن يكون كما قبلها.

الباب الثاني: نار في العروق

الفصل الرابع: في مرآة المدينة المنورة

حين بدأت نيران الرغبة في السيطرة المعرفية تشتعل أكثر في صدر محمد بن عبدالوهاب، لم يكن أمامه إلا أن يهاجر إلى حيث ينضج العلم وتُختبر العزائم. كانت المدينة المنورة، يومها، ملتقى العلماء والفقهاء، وملتقى الطرق الصوفية والمذاهب الفقهية المتنوعة، وهي قِبلة روحية للقلوب، وميدان فقهي للأذهان. هناك، ذهب محمد لا طالب علمٍ فحسب، بل متحيِّنًا فرصةَ الاصطدام، ومُحمّلًا بآراء شبه مكتملة تنتظر التثبيت أو الثورة.

دخل المدينة وفي قلبه نَفَسُ من رأى نفسه على صواب، وفي عينيه بريقٌ من يتوقع السجال. لم يكن متواضعًا، ولا مشتاقًا لأن يُعلِّمه أحد. بل كان يحمل في ذهنه تصورًا عمّا ينبغي أن يكون عليه العالم، وما ينبغي أن تكون عليه الشريعة، وكان ينتظر فقط أن يُقال له: "نعم، أنت على حق".

في حلقات المسجد النبوي، التقى بشيوخ المذاهب، من الحنفية والشافعية والمالكية، وجلس إلى بعضهم، لكنه لم يلبث أن ضاق بهم. وجد فيهم سعة لا يحتملها، ومرونة في التأويل يراها تهاونًا، وميلاً إلى التوفيق بين المختلفات، يعتبره خيانةً للحقيقة. ذات مساء، دار حوار بينه وبين أحد شيوخ المالكية، وكان ذلك الحوار كاشفًا لِما يعتمل في نفسه:

قال الشيخ بلين: "يا بني، قد اختلفت الأمة في مسائل كثيرة، وأجمعوا على أن الخلاف في الفروع لا يُفسد للود قضية". فأجابه محمد، بصوتٍ لم يخلُ من حدة: "لكن ما يسميه الناس فروعًا هو أصل الدين، إن لم يُفصل فيه بوضوح، فسد التوحيد، وضل الناس". ابتسم الشيخ، وقال: "ما كل الناس

يستطيع أن يرى بهذا الوضوح يا بني، ولا كل قلب يحتمل القسوة باسم التوحيد. لله في خلقه سنن، وفي دينه رحمة".

لم يُعجب محمد بتلك الإجابة. رأى فيها ترفًا صوفيًا لا يليق بصرامة الدين، وشعر أن الشيخ يهرب من المواجهة. ولأول مرة، أحس بأنه ليس غريبًا عن الدين فقط، بل عن أهله أيضًا.

وفي المدينة، لم تكن الكتب أقل من الناس استفزازًا له. وجد كتبًا في التصوف تزدهر على رفوف الطلبة، وقراءتِها لا تُعدّ بدعةً بل فضيلةً. ووجد شيوخًا يتحدثون عن تجاربهم مع "الخلوة" و"المجاهدات"، ويذكرون أسماء مثل السهروردي، والجيلاني، وابن عربي. كل تلك الأسماء، كانت في عقل محمد رموزًا لضياع العقيدة، وتحويل التوحيد إلى طلاسم.

مرة، سمع أحد الشيوخ يتلو قول ابن عربي: "الخلقُ حقٌ والحقُّ خلقٌ"، فانتفض قلبه. لم يتحمّل. وقف بعد المجلس، واتجه نحو الشيخ وقال له بصوتٍ يكاد يسمعه الجميع: "أتؤمن بهذا الكلام؟ أتزعم أن الله والعبد شيء واحد؟" فقال الشيخ، بهدوء: "ابن عربي قالها في سياق حال، لا في سياق اعتقاد، وليس كل ما يُقال يُؤخذ على ظاهره".

كان الرد أشبه بسكب الزيت على النار. لم يكن عقل محمد يقبل الرمز ولا المجاز. لم يكن يؤمن إلا بالحرف، والحرف عنده إمّا حقٌ أو باطل. لا منزلة بين المنزلتين.

في تلك الأيام، اشتدت عزلته الداخلية. صار يخرج وحده إلى البقيع، يتمشى بين القبور، يتفكر في الموت، ويحدّث نفسه عن حال المسلمين: "ضاعت الأمة، بين الصوفي والرافضي والمقلّد. لم يبقَ للتوحيد إلا حفنة من الكلمات المطمورة". ثم يُسرع بالعودة إلى غرفته، ويكتب بخطٍّ شديد: "الدين الحق واضح، من لبّسه الناس فقد كفر بنعمة البيان".

وبينما كانت المدينة تستقبله بهدوءها التاريخي، وتسامحها العلمي، كان هو يتجهز لإعلان الثورة من داخلها. لم يعد طالب علم، بل أصبح ناقدًا غاضبًا، ينتظر أن تنضج حججه حتى يعود بها ليُغيّر وجه الأرض. وكان كل اختلاف يصادفه، يزيده يقينًا أن عليه أن يحمل سيفًا، لا قلمًا، في الإصلاح.

ثم جاء اليوم الذي زاره فيه أحد تلاميذ والده، وكان شيخًا وقورًا، قد سمع عن تغير محمد، فأراد أن يناصحه. جلس معه بعد العشاء، وقال له بلطف: "يا محمد، لقد سمعنا عن شدتك في المسائل، وعن ضيقك بالخلاف. ألا تعلم أن النبي – صلى الله عليه وسلم – جاء بالتيسير، وأن في الناس من لا يستطيع أن يتحمّل هذه الصرامة؟"

قال محمد: "بل أعلم أن النبي قاتل المشركين، وهدم الأصنام، ونفى من المدينة من نافق، ولم يُساوم على دين الله. وما التيسير إلا في السنن، أما التوحيد فلا يُتهاوَن فيه".

قال الشيخ: "لكن يا بني، الناس درجات، وأنت لا تُبلّغ الحق إذا قطعت قلوبهم قبل أن تبلغ عقولهم".

فأجاب محمد بجفاء: "الحق لا يُبلّغ بالعاطفة. بل يُلقى كالسيف، ومن قبله نجا، ومن كرهه، فعليه وزره".

تركه الشيخ، وفي قلبه وجع، وقال في نفسه: "هو لا يريد أن يكون عالمًا، بل حاكمًا باسم الدين".

وبعد أسابيع قليلة، بدأت الأحاديث تدور حول محمد بين أهل المدينة، بعضهم قال إنه متحمّس سيهدأ، وبعضهم قال: "في قلبه نار، يخشى أن تحرق". وأوصاه بعض الشيوخ أن يسافر إلى مكة، ليرى هناك من هم أعلم وأرحم.

ورأى محمد أن المدينة ضاقت عليه، كما ضاق هو بها. فقرّر أن يغادر.

كان يحمل معه دفاتره، وأفكاره، وكراهيته لكل شيء لا يُشبهه. كان يسير في طرقات المدينة وكأنه يغادر ميدانًا خاسرًا، لا لأنه هُزم، بل لأنه لم يجد من يواجهه كما أراد.

<u>وعلى مشارف المغادرة، كتب بخطه العريض:</u>

"لقد رأيتُ في المدينة علمًا كثيرًا، ولكن قليلًا منه يُرضي الله. فالعبرة ليست بكثرة الشيوخ، بل بنقاء التوحيد".

وغادر.

لكن نيران الفكرة بدأت تشتعل أكثر... ولم يكن قد دخل المعركة بعد.

وسيدخلها قريبًا، لا بالسؤال، بل بالاتهام، لا بالدعوة، بل بالتكفير.

الباب الثاني: نار في العروق

الفصل الخامس: بوّابة الانفجار

حين غادر محمد المدينة متجهًا إلى الأحساء، كانت الرياح قد بدأت تعصف في داخله أكثر من خارجها. لم يعد ذاك الفتى المتوتّر، التائه بين وجوه الفقهاء، بل صار كمن يحمل مشروعًا مؤجَّل التنفيذ، مشروعًا سيستمد جذوته من قلب الحيرة التي مرّ بها، ويصهرها في نار الاعتقاد الصلد. كانت الأحساء، بمذاهبها المتعددة، وتنوعها الديني، ونقاشاتها اللاهوتية الصاخبة، أشبه بساحة اختبارٍ لقدراته الفكرية التي باتت مشبعة بالحدّية. هناك، سيقابل خصومه، ويصقل فكرته، وربما — دون أن يدري — يخطو خطواته الأولى نحو إعلان الحرب على كل ما لا يشبهه.

دخل الأحساء وهو في بدايات شبابه، يحمل عصا السفر، ومخطوطة ابن تيمية مطوية في عباءته، ونظرة مشتعلة تترقب اللحظة التي يُدعى فيها للمجادلة. لم يكن طالبًا كسائر الطلبة، بل كان أشبه بمن يبحث عن منافس، عن فريسة فكرية يثبت عليها هيمنته. وفي أول مجلس دخله، في جامع الكوت الكبير، جلس بين طلبة العلم، وأخذ ينصت إلى الشيخ الحنفي وهو يشرح مسألةً في التوسل، فرفع يده في أدبٍ مفتعل، وسأل:

— يا شيخ، وهل يجوز التوسل بغير أسماء الله الحسنى؟

صمت الشيخ برهة، ثم أجاب: «جاء في الأثر أن المتوسلين بالصالحين مرجّو الإجابة، وهذا من باب تعظيم أهل الفضل.»

فابتسم محمد ابتسامة لم تفارقه أبدًا منذ تلك اللحظة، ثم قال بصوتٍ رخيم لكنه صارم: «بل هو من الشرك، إن لم يكن في أصله ففِي صورته.»

عمّ الوجوم المكان، وبقي الشيخ صامتًا، لكن محمد كان قد قرر أن تلك المعركة الفكرية لن تُؤجَّل. بدأ يخرج كتبه، يكتب رسائل قصيرة، ويجادل الحنابلة والحنفية، ويناقش الزيدية الذين استقروا في أطراف المدينة. لم يكن يسعى إلى فهمهم، بل إلى إسكاتهم. وشيئًا فشيئًا، بدأت سمعته تنتشر: شابٌ جافّ، لا يقبل التأويل، يرى في مخالفيه شركاء للشيطان.

كان ذلك يُرضيه. بل كان يشعر بنشوةٍ عميقة كلما انفضّ حوله جمعٌ بسبب حدّته. لم يكن يسعى للتقريب، بل للفرز. أحب أن يكون على الضفة الأخرى. وفي إحدى المرات، دعاه أحد شيوخ المدينة للمبيت في داره، فقبل، لكن الحديث الذي دار بينهما تلك الليلة سيكون فارقًا.

قال الشيخ المضيف: «يا بني، إن الله وسِع رحمته كل شيء. وما خُلقنا لنتعسّف في دينه.»

ردّ محمد، وهو يحدّق في نور الفانوس: «بل خُلقنا لنعبد الله كما أراد، لا كما يهوى الناس.»

ابتسم الشيخ، وقال بلطف: «لكنّك تُكثر من تكفير المسلمين، وتُضيق ما وسّعه الله.»

هنا تغيّرت ملامح محمد، ورفع رأسه قائلاً: «إنما أنا أنكر الشرك، وما الشرك عندي إلا أن يُصرف شيءٌ من العبادة لغير الله. وهل في الدنيا شيءٌ أخطر؟»

فسأله الشيخ: «وهل ترى أن الأمة كلها على ضلالة؟»

فأجابه بصوتٍ خافت، كأنّه يحدّث نفسه: «بل أراهم قد تركوا التوحيد الحق. وأنا سأعيده.»

وفي تلك الليلة، لم ينم محمد كثيرًا. ظلّ يقلب في عقله تفاصيل المجادلة، ويُعيد ترتيب المسائل، ويكتب ملاحظاته على أوراق متناثرة. كتب: "التوسل شرك. زيارة القبور شرك. دعاء غير الله شرك. تقبيل الأضرحة شرك. والساكت عن الشرك مشركٌ مثله." كانت تلك العبارات، التي سيُطلقها لاحقًا في دروسه وكتبه، قد بدأت تتكوّن على مهل، كما يتشكّل الجمر تحت الرماد.

ثم جاء اليوم الذي أدرك فيه أنه لم يعد طالب علم، بل خصمًا. خرج من الأحساء، لا بشهادة علم، بل بنية حرب. لم يعد يحمل همّ التعلّم، بل همّ التنقية. في عودته إلى العيينة، كان كل ما يراه يمرّ تحت مرشّح الشك: الأسواق، المساجد، المقابر، حتى أحاديث النساء في الأفنية.

وفي الطريق، صادف قافلة حاجّة قادمة من العراق، فسأل أحد ركّابها عن أحوال النجف. فردّ الرجل: «الناس هناك يزورون قبر عليّ ويستغيثون به.»

تشنّج محمد، وأشاح بوجهه، ثم همس: «بل يستغيثون بمن لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا. ووالله، ما هذا إلا ما كانت عليه قريش!»

عاد محمد إلى نجد، لا وهو ذاته. لم يعد ذاك الفتى المُندهش، بل الشاب الغاضب، الموقن بأن الله أرسله في زمنٍ كثرت فيه البدع، وقَلّ فيه التوحيد. صار يُبشّر بدعوته بصوتٍ خافت في البداية، ثم علني، يدعو للتوحيد «الصافي»، ويدعو لهدم القباب، وتحطيم التمائم، وترك الاحتفال بالمولد، والتوقف عن دعاء الأولياء.

واجهه الناس بالدهشة، وبعضهم بالرفض، وبدأت تظهر التهديدات، ثم المُناظرات. وذات يوم، دخل أحدهم عليه وقال له: «شيخ محمد، لقد أغضبت الفقهاء وأرباب الطرق، فاحذر.»

فردّ وهو مبتسم: «والذي بعث محمدًا بالحق، لن أترك قول الحق، وإن غضب من في الأرض جميعًا.»

ومن تلك اللحظة، صار محمد بن عبدالوهاب مشروعًا كاملًا، لا ينقصه إلا السلطان.

وكانت النار في عروقه قد بلغت الحلقوم.

وكانت الجزيرة كلها، على وشك أن تشتعل.

(نهاية الباب الثاني)

الباب الثالث: مرآة الغربة

الفصل الأول: نداء الطريق

كان محمد بن عبدالوهاب قد خرج من الدرعية، لا مطرودًا ولا مغلوبًا، بل هائمًا في فكرة تزداد قسوة كلما اتسعت رؤيته. رحيله لم يكن فرارًا، بل كان الخطوة الأولى في جهادٍ يتصوره داخليًا: جهاد ضد التراخي الديني، ضد التوسل، ضد الأضرحة، ضد «كل من لا يعبد الله كما أعبدُه». لقد شعر أن بقاؤه سيقتله من الداخل، ولن يشفي تلك الرغبة التي تنمو بداخله لتقويم الدين بأداة حادة.

في الطريق إلى الرياض أولًا، كان الغبار يغلف السماء، والبعير يهدر من الإرهاق، وهو ممتطٍ سروجًا قديمة، لا يرافقه سوى كتبه وقليل من الزاد. كان الليل يوشك أن يهوي على الأرض حين لمح قبة مسجدٍ بعيد، فقال في نفسه: "كم من الناس يسجدون تحت هذه القبة وقلوبهم معلقة بسواها؟". ولم يكن في عبارته استنكار بريء، بل نزعة إلى القتال، حتى لو لم يظهر ذلك بعد.

دخل بلدة صغيرة على أطراف نجد، وحين سُئل من أين أتى، قال: "من الدرعية، أطلب العلم وأدعو إلى ما أراه صوابًا". لم يكن في صوته حذر، بل بدا فخورًا بمهمته، وبدأ يفتح حلقاتٍ صغيرة في المساجد، يحدّث الناس عن الشرك في القبور، ويهاجم التوسل بالأولياء، ويشرح التوحيد على طريقة ابن تيمية لا على ما اعتادوه.

جلس إليه شاب اسمه سالم بن جابر، وسأله بعد أحد الدروس:

– يا شيخ، ولكن أمّي تدعو الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وهي صالحة تحج وتصوم، فهل هي مشركة؟

نظر محمد إليه بعينين صارمتين، ثم قال:

– الشرك لا يُمحى بالصلاح، وما أكثر من يصلّون وهم على شرك، بل ما أكثر من يحجون ويعبدون غير الله.

– لكنهم لا يعبدونه عبادة، بل يتوسلون به.

– وهل يعلم الغيب سواه؟ وهل يُرجى أحد معه؟ كلّ من صرف شيئًا من الرجاء أو الخوف لغير الله فقد ضلّ.

لم يكن النقاش عند محمد بحثًا عن الحقّ، بل كان تثبيتًا لرؤية، وفرضًا لمنهج. وقد بدا له الشاب مستعدًا لأن يتغير، فقال له:

– اترك عنك ما وجدت عليه آباءك، واتبع ما أقول، فإن في ذلك النجاة.

ومع مرور الأيام، صار لسالم أتباع، وبدأت في البلدة الصغيرة حركة غريبة: حلقات تشتد، نقاشات تنقسم، أناس يهجرون المساجد ذات القباب، وآخرون يتوجّسون من القادم الجديد.

سمع أحد الشيوخ الكبار في البلدة، وكان ضريرًا يُدعى الشيخ مبارك، عن هذه الحركة الجديدة، فأرسل إلى محمد طالبًا لقاءه. لم يتردد محمد، وجاءه بعد صلاة العشاء. كانت الغرفة معطّرة بخشب العود، والشيخ يجلس على سجادة قديمة، يحيط به تلاميذه.

قال الشيخ:

– بلغني عنك يا ولدي أنك تُكفّر من توسل بالأولياء.

رد محمد:

– لا أكفّر الناس بأهوائي، بل بدليل.

– وهل ترى أن كل من قصد قبرًا للصالحين فقد أشرك؟

– إن قصد به الدعاء والرجاء، نعم.

– ولكن العلماء اختلفوا، وهذه مسائل اجتهادية.

– وهل الاجتهاد في التوحيد مباح؟ ألا ترى أن الاختلاف في أصل الدين خطر؟

<u>هنا ابتسم الشيخ الضرير وقال:</u>

– بني، لقد كنتُ مثلك في شبابي، أرى الأمور حادة كالسيف، ثم عرفتُ أن في الدين رحمة، وأنّ الله لم يجعلنا قضاة على عباده بل دعاة.

لكن محمد لم يقتنع. رأى في كلام الشيخ ضعفًا، وفي نبرته تمييعًا للحق. وشعر لأول مرة أن العلم وحده لا يكفي، بل يحتاج إلى سلطة تسنده، إلى قوة تفرضه.

وبعد أسابيع، غادر محمد تلك البلدة، وقد ترك خلفه شقوقًا بدأت تتسع. سار نحو الحجاز، لا للحج، بل للعلم ولرؤية الواقع. هناك، في مكة، صُدم بمظاهر الدين كما تُمارس: حلقات تحوي متكلمين وفلاسفة وصوفيين من كل صوب. رأى أناسًا يطوفون ويدعون قبور الأولياء، ويسألونهم الشفاعة، وسمع خطبًا لا علاقة لها بالتوحيد كما فهمه، فاشتد في قلبه الغضب.

في المدينة، حاول أن يدخل حلقة من حلقات علم الحديث، فطُلب منه أن يُعرّف بنفسه، فقال:

– محمد بن عبدالوهاب، من نجد، أطلب العلم، وأدعو إلى تنقية الدين من البدع.

فردّ عليه أحد الطلبة ساخرًا:

– وهل أنت وحدك من يعلم البدع من السنن؟

لكنه لم يرد، بل اكتفى بالابتسام.

أقام في المدينة شهرًا، ثم انتقل إلى البصرة، حيث رأى عجبًا من أمر الناس، وقد كثرت الطرق، وتعددت الرايات، وعلت أصوات الخلاف. دخل مسجدًا فوجده مزينًا بالألوان والرايات، فلما سأل عن ذلك، قيل له: "احتفال بمولد النبي".

قال محمد: "ما هكذا كان دين محمد".

وألقى في المسجد خطبة هاج فيها الموالد والذكر الجماعي وزيارة القبور، فثار الناس عليه، وضربه أحدهم بعصا، وكاد يُقتل لولا أن أنقذه أحد شيوخ البصرة المعتدلين.

هرب ليلًا إلى خارج المدينة، ومكث أيامًا في خيمة بادية، يعيد ترتيب أفكاره. وهناك، على ضوء نار خافتة، كتب أول مخطوطة له، بعنوان: "كشف الشبهات"، كانت تحمل أولى ملامح منهجه المكتمل.

عاد بعدها إلى نجد، وقد صارت رؤيته أكثر وضوحًا: إن الإصلاح لا يكون إلا بالقوة، وإن الدعوة وحدها لا تكفي، وإن الكلمة ما لم تحملها السيوف، فهي صدى في صحراء لا تُنبت.

وكان في نفسه شيء لم يصرح به لأحد، لكنه عرفه تمامًا:

"أحتاج إلى أمير... وإلى جيش... وإلى بيعة تقلب وجه الجزيرة."

وهكذا، لم يعد محمد بن عبدالوهاب مجرد شيخٍ من نجد.

بل صار مشروعًا ينتظر لحظة الانقضاض.

الباب الثالث: الرحيل إلى النار

الفصل الثاني: شمس البصرة وأشباحها

كان صباح البصرة ثقيلاً كأن الشمس فيه مريضة. حارة لكنها لا تضيء، عالية لكنها لا تمنح دفئاً داخلياً. حين وطئت قدم محمد بن عبدالوهاب تراب المدينة، لم تكن البصرة التي سمع عنها، ولا التي رسمها في خياله؛ كانت مدينة تعبث بها المتناقضات: فيها علم كثير، لكنها غارقة في الخرافة، وفيها مساجد كثيرة، لكن القلوب متشظية، وفيها وجوه عابسة تتكلم باسم الله، وقلوب خاوية تحوم حول القبور.

وصل محمد شاباً يحمل في قلبه غضباً دفيناً، وفي عقله معولاً يفتّش عن كل ما يمكن هدمه. لم يكن باحثاً عن معرفة بالمعنى التقليدي، بل عن وقود يُغذّي مشروعه الداخلي: أن يُصلح الدين كما يراه، أن يطهّره من الدنس الذي التصق به، كما كان يعتقد.

في أول أيامه، اتجه إلى حلقات العلم في المساجد، يتنقل من حلقة إلى أخرى. جلس إلى شيخ يُدرّس في الفقه المالكي، فاستمع لبعض الوقت ثم انسحب. لم تعجبه طريقة عرض المسائل، ولا النقاش المفتوح حول الخلافات. همس في نفسه: «الدين ليس حلبة نقاش... هو حسمٌ ويقين». وفي اليوم التالي، حضر حلقة في التصوف، وكان الشيخ يحدّث عن مراتب الذوق، وعن النور الباطني، وعن العروج الروحي إلى الحضرة. لم يكمل الساعة، إذ همس في أذن من بجانبه: «ما هذا؟ أهو درس دين أم قصة خرافية؟». همس الرجل: «يا فتى... هذا الشيخ من الأولياء، له كرامات مشهورة، الناس تُشفى على يده». فهز محمد رأسه بأسى، وقال بعد أن خرج: «بل الناس تمرض بعقله».

في أحد الأيام، جلس محمد في حلقة أحد كبار علماء البصرة، الشيخ عبدالرزاق الكباشي، رجل وقور، واسع الصدر، يُعرف عنه اعتداله وحكمته. وبعد الدرس، اقترب محمد وقال:

– يا شيخ، أراك تحدّث الناس عن المحبة والرجاء، ولا تذكر الخوف والعذاب إلا قليلاً. أما تعلم أن النار أقرب إليهم من جنّاتك؟

ابتسم الشيخ الكباشي، وقال بنبرة هادئة:

– بُني، إن الله جَعَلَ القلوبَ مفاتيح، لا أقفالاً. من دخلها بالحب ثبت فيها، ومن دخلها بالخوف فرّ منها متى هدأ الرعد.

فرد محمد:

– ولكن الناس غارقون في البدع، يطوفون بالقبور، ويطلبون من الأموات! ألا يستحقون أن يُرهبوا؟

رد الشيخ:

– نُرهبُهم من الغلط، لا من الله. الله أقرب إليهم من ظنهم، وعلينا أن نقرّبهم منه لا أن نطردهم.

لم يعجبه الرد، لكنه صمت. ومشى خارج المسجد يتمتم: «ما هكذا يُحمل التوحيد».

وكلما مرّ يوم، ازداد ضيقه. كان يرى الناس يُقبلون على قبور الأولياء بالدعاء والتوسل، وكان يشعر بغصة، كأنما تُذبح العقيدة أمامه. وفي أحد الأيام، وقف على مقربة من مقام مشهور في البصرة يُعرف باسم «مقام الشيخ

علوان»، فرأى النساء تبكي، والرجال يتمسحون بالضريح. شعر أن الدنيا انقلبت.

قال في نفسه: «أي شرك أعظم من هذا؟ من يعبد الله لا يتوسل بميت، ومن أحب الله لا يبكي عند قبر مخلوق». ثم حدّق في الوجوه المبللة بالدموع، وبدأ يدوّن في ذاكرته: "أبناء الشرك ليسوا أعدائي، بل ضحايا. عدوي هو الذي علمهم هذا وسمّاه دينًا".

لم يقتصر حضوره في البصرة على الحلقات، بل بدأ الناس يلاحظون حماسه وغرابة أفكاره. كان يناقش الشيوخ بحرارة، ويجادل الكبار دون وجل. وفي مجلسٍ حضره جمع من الفقهاء، دخل محمد في جدال طويل حول مشروعية التوسل بالأولياء. فقال أحدهم:

– التوسل جائز بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الأعمى: «اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك». فما تقول؟

فرد محمد:

– كان حياً فيهم! أما التوسل بالميت فلا دليل عليه. والدين لا يُبنى على عاطفة أو موقف واحد، بل على التوحيد الخالص.

ضحك شيخٌ عجوز وقال:

– أراك صغير السن، لكنك تتحدث وكأنك شيخ الإسلام!

قال محمد بجدية مفرطة:

– بل أتحدث بما يرضي الله.

هنا بدأ الحضور يشعر أن هذا الشاب لا يشبه بقية الطلبة. البعض أعجب بجرأته، والبعض الآخر شعر بالخطر. وقد وصل صدى آرائه إلى بعض وجهاء المدينة، الذين أرسلوا في طلبه. في مجلس رسمي صغير، اجتمع بمحمد ثلاثة من وجهاء البصرة، بينهم شيخ متصوف، وقاضٍ معروف، وتاجر غني مهتمّ بالدين.

قال القاضي:

– يا بني، بلغنا أنك تُكفّر الناس وتطعن في المشايخ، فما شأنك؟

أجابه محمد:

– لا أُكفّر أحدًا بعينه، ولكن أُحذّر من الشرك. هل أنكرتم عليّ أن أقول: الله يُعبد وحده، ولا يُدعى غيره؟

قال الشيخ المتصوف:

– يا ولدي، لسنا في حرب معك، لكن طريقتك تُنفّر، والناس تُحب أولياءها، وتجد فيهم البركة.

قال محمد:

– وهل جعل الله البركة في غيره؟ وهل أمرنا أن ندعو الأموات؟ هذا دين جديد، وليس دين محمد بن عبد الله.

انفضّ المجلس دون نتيجة. وتكررت المواجهات. وبدأت أصوات تُنذر بأن هذا الشاب ليس مجرد طالب علم، بل ناقم يريد الهدم.

وفي أحد الأيام، جاءه رجل مسنّ من أهل السوق، معروف بتقواه، وجلس إليه طويلاً ثم قال:

– يا فتى، أعلم أنك غيور على الدين، لكن احذر أن تصير مثل النار، لا تضيء إلا بعد أن تحرق.

أطرق محمد رأسه وقال:

– النار لا تحرق المؤمنين.

قال العجوز:

– لكنها تحرق الحقول والبيوت إذا لم تُوجّه.

بعد تلك الحادثة، بدأ محمد يشعر بالعزلة. لم يجد من يستوعبه، ولا من يشاركه أفكاره. فبدأ يميل إلى الاختلاء، والكتابة، والمطالعة. ازداد تعلقه بابن تيمية، وراح يعيد قراءة مؤلفاته مرارًا. وذات ليلة كتب في دفتره:

«كل ما يفعله الناس بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. لا بد من طرد الغبش من العقيدة، ولا مجال للهوادة. الله واحد، والدين واحد، والحق لا يتعدد».

وفي يومٍ شتويّ ممطر، بعد عام من وصوله، خرج محمد من المسجد، ووقف تحت المطر يحدّق في المئذنة القديمة. كانت تتآكل من الرطوبة، وتحمل شقوقاً في جسدها، فتمتم: «حتى المآذن في هذا البلد قد شاخت». وأكمل: «الناس يبنون الأضرحة، ولا يُصلحون بيت الله».

في تلك اللحظة، أدرك محمد أن البصرة، على عراقتها، لن تُنجب مشروعه. أنها أشبه بمقبرة للمعنى، وليست رحمًا لميلاد جديد. فبدأ يُفكر بالرحيل.

وفي المجلس الأخير له مع الشيخ الكباشي، جلسا سويًا في ظل نخلة عجوز قرب المسجد، وقال الشيخ:

إلى أين ستمضي الآن؟

قال محمد:

حيث أجد قلباً ينصت، وعقلاً لا يغلق الباب.

قال الشيخ:

أم تخاف أن تُغلَق الأبواب كلّها، فلا يبقى إلا بابك؟

أجابه محمد:

حتى لو أغلقت الأبواب كلّها... أنا المفتاح.

ابتسم الشيخ بأسى، وقال:

– المفتاح لا يفتح كل الأقفال، وبعضها إن فُتح... دمّر ما وراءه.

نظر محمد بعيدًا، ثم قام دون أن يودّع، ومضى.

هكذا غادر البصرة، وهو أكثر غضبًا، وأكثر عزلة، وأكثر اقتناعًا أن عليه أن يحمل النار معه إلى حيث سيُشعلها.

وكانت خطوته التالية... الأحساء.

الباب الثالث: المنعطفات الأولى

الفصل الثالث: المذهب في الميزان – جدل العقل والنص

منذ تلك اللحظة التي ودّع فيها محمد بن عبدالوهاب بيئته الأولى إلى العالم الرحب، كان في داخله صوت لا يهدأ، يقيس به كل فكرةٍ يسمعها، وكل مذهبٍ يطّلع عليه، وكل شيخٍ يجلس أمامه، بمسطرة صارمة: هل هذه عقيدة نقية أم مشوبة؟ هل هذا شركٌ مموه أم توحيد صافٍ؟

دخل البصرة مشبعًا بأفكار حنبلية جافة، مغروسة في تربة ابن تيمية وابن القيم، وعينه مسلطة على ما يسميه الانحرافات العقدية. هناك، في تلك المدينة العتيقة التي كانت يومًا ما ساحةَ صراعٍ بين المعتزلة والأشاعرة، بين الزهاد والمتكلمين، وجد أمامه خليطًا لا يرضي حماسه العقائدي: دراويش صوفية ينشدون المحبة، وفقهاء مالكية يميلون إلى الرخص، وعامة يتباركون بالمقامات، ويقبلون أيادي الأولياء الأموات.

كان طالبًا للعلم في الظاهر، لكنه في حقيقته كان يراقب الخصم، يدوّن سقطاته، يُعد عدته.

في البصرة، سمع لأول مرة عن عبدالقادر الجيلاني، واطلع على بعض أوراده، فهاله أن يكون الناس يعدّونه قطبًا روحانيًا تُقضى الحوائج باسمه. وذات مساء، دخل مسجدًا صغيرًا تابعًا لطريقة قادريّة، وهناك رأى جمعًا من الدراويش يهتزون ويصرخون ويرددون: "يا غوثَ الزمان، يا عبدالقادر!"، فأصابته قشعريرة. لم يُفصح عن امتعاضه، لكنه كتب في دفتره: "إنهم يدعون غير الله، وما ذلك إلا شركٌ ملبّس." كان لا يزال في بداياته الفكرية، لكن بوصلته كانت تشير بثبات نحو تطهير العقيدة ـــ أو ما ظنه كذلك.

جلس عند بعض العلماء، وأخذ عنهم شيئًا من الفقه والنحو، لكنه كان في الغالب متحفزًا، يتصيّد العثرات، لا يتلقّى بتواضع الطالب، بل بمنظار المصلح الذي يرى نفسه على بيّنة والناس في ضلال. وقد ذكر صاحب كتاب "الدرر السنية" أنه كان يسأل أساتذته أسئلة حادة عن التوسل، عن نذر القربى، عن حكم البناء على القبور، وكانوا يجيبونه بتسامحٍ معتاد، يُعلّلون للناس جهلهم أو تقليدهم، لكنه لم يكن يقبل ذلك. لم يكن في قاموسه شيء اسمه الأعذار، ولا منطق يُخفّف من الحكم.

وذات يوم، جلس في حلقة أحد الشيوخ الكبار بالبصرة، وكان الشيخ يشرح حديث الشفاعة، فقال: "إن الله يأذن لبعض عباده المقربين أن يشفعوا لعباده الصالحين، وهذا من كرامة الأولياء." فقاطعه محمد بصوتٍ حاد: "وكيف تفرق بين هذا وبين إشراك المشركين الذين اتخذوا وسطاء؟!" فعمّ الصمت، وأجابه الشيخ بلين: "يا بني، ليس من الحكمة أن نكفّر الأمة بما اختلف فيه أهل العلم." لكن محمدًا لم يكن ليرضى بتلك الأجوبة، وأخذ يدوّن ملاحظاته حول "تساهل العلماء" و"ترويجهم للبدع".

لم يُطِل المقام في البصرة. يقال — وفق ما رواه حسين بن غنام — أنه اضطر للفرار منها بعد أن ضاقت به صدور الناس بسبب طعنه في المشايخ والتصوف وأولياء الله، حتى إن بعض الصوفية اتهموه بالإلحاد. وهناك روايات تقول إنه تعرض للضرب، أو الطرد، أو المقاطعة. لكنه خرج منها وهو مقتنعٌ أن العالم الإسلامي كله بحاجة إلى ما يسميه: "تجديد الدين على منهج السلف".

بعدها، انتقل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وهناك، في مكة والمدينة، ظن أنه سيجد السكينة بين الحرمين، لكنه فوجئ بمن يسميهم "القبوريين" يطوفون حول مقامات الأولياء، ويستغيثون بالأنبياء، بل رأى بعضهم يرفع يديه على باب قبر النبي ﷺ ويقول: "مدد يا رسول الله!"

ارتعد داخله، وازداد تشنجه العقائدي. والتقى في المدينة ببعض العلماء الحنابلة، فقرأ معهم شيئًا من كتب التفسير والحديث، لكنهم أيضًا لم يوافقوه في حدّيته، ورأى أنهم يميلون إلى الرأي والقياس، ويسوّغون التوسل. وهناك، التقى مرة بأحد قضاة مكة، وكان رجلاً مالكيًا متسامحًا، فقال له: "يا بني، ارحم الناس، فالله أرحم بنا مما تظن، ومن دعا نبيًا أو وليًا فهو يطلب بركته، لا يعبده." فرد محمد بحدة: "لكن الله لا يقبل الشرك، ولو بدا مغلفًا بالنية الطيبة."

ثم زار المدينة النبوية، وهناك، عند الحجرة الشريفة، أحس باضطرابٍ داخلي. وقف ينظر إلى الناس وهم يتوسلون بالنبي ﷺ، ويدعون عند قبره، فاشتعلت النار في صدره أكثر. سأل أحد المشايخ هناك: "هل يجوز التوسل بذات النبي؟" فأجابه الشيخ الأشعري: "بل هو جائز عند الجمهور، فعله الصحابة في حياته وبعد وفاته." فلم يقتنع محمد، بل قال: "إنما التوسل المشروع هو بالدعاء، لا بالذوات."

تلك اللحظات شكلت منعطفًا روحيًا وفكريًا لا يُستهان به. فهو عاد من الحجاز لا كحاجٍ مطمئن، بل كمجاهدٍ قرر أن يعيد تشكيل الإسلام برمته.

حين عاد إلى العيينة ثم الدرعية، كان قد نضجت في ذهنه مجموعة من المبادئ التي صاغها من خلال قراءاته ومشاهداته ورفضه لكل ما يخالف نظرته. وكان قد حسم أمره أن الإصلاح لا يتم إلا بالإزالة، لا بالتحسين.

قال لاحقًا في إحدى رسائله: "ما أدعو إليه هو دين الله الخالص، الذي بعث الله به نبيه محمدًا ﷺ، وأما ما عليه الناس فهو خليط من البدع، لا يقبل الله منها صرفًا ولا عدلًا."

وهكذا، تكونت لديه رؤية تقوم على تكفير جماعي لمن خالفه، ولو كان المخالف من عامة المسلمين. لم يفرّق بين عوام جاهلين وعلماء متأولين. وكان يرى أن من لم يُكفّر المشرك فهو مشرك.

وفي جلساته الخاصة، بدأ يحدّث من حوله: "أترون هذا الذي يذبح على القبور؟ إنه مشرك. أترون هذا الذي يقول مدد يا رسول الله؟ إنه مشرك. ولو كان من أهل العلم." وكان أحد الحاضرين يومًا ما أحد تلاميذ أبيه، فقال له: "لكنهم مسلمون يا شيخ محمد." فأجابه بحدّة: "بل مشركون، ومن لم يكفّرهم فهو مثلهم."

كانت هذه اللحظات بمثابة إعلان ميلاد العقيدة الوهابية، لا كتيار سلمي دعوي، بل كحركة إقصائية تؤمن أنها وحدها على الحق، وأن سائر الأمة في ضلال، وأن من لم ينضوِ تحت رايتها فمصيره أحد اثنين: الهداية أو الإبادة.

وهكذا، وُلد مذهب لا يعترف بالخلاف، ولا يرحم الضعف، ولا يصالح التاريخ، بل يحمل معولًا يُريد به هدم ألف سنة من التراث.

ولم تكن الجزيرة لتسلم من ذلك المعول...

الباب الثالث: خطى الرمل

الفصل الرابع: غبار على قافلة الحجاز (موسع)

لم تكن قافلة محمد بن عبدالوهاب إلى الحجاز مجرد انتقالٍ جغرافي، بل كانت انفصالًا نفسيًّا عما تبقى من تردّد أو ارتباطٍ عاطفي بالأرض الأولى. كان الفتى النجدي قد شبَّ روحيًّا على مرجل الحنق واليقين، وصار في داخله عنف هائل يبحث عن صيغة للظهور. كانت دراسته في المدينة المنورة خطوة متوقعة لمن في مثل مكانته، لكنها بالنسبة له كانت بوابة لاختبار سلطته القادمة.

في الطريق إلى الحجاز، امتزجت مشاعر الترقب بالرهبة. كان الرمل يمتد كقدرٍ لا نهاية له، ورفاق القافلة ينشغلون بالاستعداد لموسم الحج والعلم والتجارة، فيما كان محمد غارقًا في مراجعة ما حفظه من كتب ابن تيمية وابن القيم، كأنما يريد أن يضعها درعًا على صدره حين يدخل "أرض السُنَّة". جلس ذات مساء في محطّة استراحة، ووضع كتابًا صغيرًا على ركبته، وأخذ يقرأ بصوت خافت:

"ومن لم يُكفّر المشركين أو شكّ في كفرهم فهو كافر مثلهم..."

سأله أحد الرفاق ممن حفظوا عنه صمته الطويل:

ما هذا الذي تقرأه؟

أجابه بنظرة خاطفة:

كلام من لا يُجامل في الحق.

ـ تقصد شيخ الإسلام؟

ـ بل أقصد الحق الذي لا يعرف إلا سيفه.

وصلت القافلة إلى المدينة أخيرًا. كانت المدينة المنورة آنذاك عاصمة العلم وملتقى الشام واليمن والحجاز والعراق، ومنارة فقهية تشع بالمالكية والشافعية، وفيها تيار صوفي مشبع بحب آل البيت وأحاديث الذوق الروحي.

أقام محمد في أحد منازل طلاب العلم، وكان مجلس شيخه آنذاك هو الشيخ محمد حياة السندي، الرجل الذي جمع بين الحديث الحنبلي والطابع السلفي الناقد للصوفية، لكن من دون حدّة أو تكفير. كان السندي قريبًا من الاتجاهات التي أحبها محمد، فدخل عليه في أحد المجالس وسلّم باحترام، ثم قال له:

ـ جئت من نجد ألتمس العلم على يدكم.

فأجابه السندي وهو يتأمله:

العلم يُطلب كما يُطلب الماء... لكن الأهم: ما الذي تُريد أن ترويه به؟

لم يجب محمد، بل اكتفى بالابتسام.

في الأيام التالية، لزم الشيخ السندي، وشارك في حلقاته، لكنه كان أكثر حماسة من باقي الطلاب، وكان يُكثر من الأسئلة التي تكشف عن نزعة صدامية لا عن رغبة نقاش. سأله ذات يوم بعد درس طويل حول الشفاعة:

ولكن يا شيخ، أليس طلب الشفاعة من غير الله شركًا صريحًا؟

رد الشيخ بهدوء:

ليس الأمر بهذه البساطة يا محمد، هناك تفصيل في النيات والمقاصد، وقد فرّق العلماء بين الشرك الجلي والخفي، وبين الوسيلة والعبادة.

لكنه لم يقتنع. كان يرى في هذا الجواب تهاونًا، وكان يعتبر أن كل تأويلٍ هو مدخل لتمييع التوحيد.

وبعد بضعة أسابيع، بدأ محمد يزور بعض المساجد الكبيرة، لا ليصلي فقط، بل ليراقب. وجد في مسجد النبي صلوات لا تُشبه صلوات نجد، ورأى رجالاً يقبّلون المقام النبوي ويدعون عنده، ونساءً يبكين وهم يتمسّحن بجدران الحجرة النبوية. وقف بعيدًا وأطبق حاجبيه، ثم همس لنفسه:

كيف يُستغاث بغير الله؟!

لكنه لم يكن بعدُ في موقع يُمكّنه من الاعتراض العلني. ومع ذلك، سجّل كل شيء في ذاكرته، كأنها سجلات اتهام مؤجلة.

في أحد الأيام، دخل في نقاش حاد مع طالب علم شافعي، حول مسألة التوسل بالأنبياء، فانتهى النقاش بمحمد يقول:

أنتم لا تفهمون معنى التوحيد، أنتم تلبسون على الناس دينهم!

فقال له الطالب الشافعي:

بل نحن نفهم أن لله رحمة، وأن في الإسلام سعة. أما أنت، فلا ترى إلا السيف.

غادر المجلس وهو غاضب، لكن ذلك الجدل ترك فيه يقينًا جديدًا: أنه لا بد من ثورة في الفهم، تبدأ من اقتلاع البدعة لا مهادنتها.

في خلواته الليلية، كان يعيد قراءة صفحات من كتب العقيدة، ويضع عليها خطوطًا حمراء، ويكتب هامشًا على بعضها:

- هذا مما أحدثه الناس، لا دليل عليه.

- أو: يجب هدمه.

وذات مرة، وهو على السطح، جلس تحت ضوء القمر، وأخذ يتأمل المدينة. بدت له صامتة، نائمة، حالمة في سلامها. همس:

لكن هذا السلام وهم، لأنه يقوم على شرك.

وقرر أن يكون لسان الحق، حتى لو صرخ وحده.

في أحد المجالس، قرأ بصوت مرتفع حديثًا عن "هدم القبور المشرفة"، فالتفت إليه أحد الشيوخ وسأله:

ـــ يا فتى، هل تقرأ لفهم، أم لتجد ما يؤيد رأيك؟

قال محمد:

وهل الحق بحاجة لتأويل؟

رد الشيخ:

بل الفهم نفسه رحمة، لأن الله لم يجعل أحدًا ناطقًا باسمه في كل شيء.

خرج محمد من المجلس ساخطًا. كان يرى أن كل هؤلاء الذين يلبسون العمائم لا يملكون الجرأة على إعادة بناء الدين كما نزل. وكلما وجد نفسه وحيدًا، ازداد شعورًا بأنه على حق.

في تلك الأيام، وصلت المدينة بعثة علمية من اليمن، وكان معهم أحد شيوخ الطرق الصوفية، شيخ ستيني يُدعى عبدالرؤوف. سمع به محمد وقرر أن يحضر مجلسه، لا لينهل، بل ليناقض. وجلس المجلس وبدأ الشيخ يتحدث عن "مقامات السالكين" و"مراتب الوجد"، فتدخّل محمد فجأة قائلاً:

يا شيخ، ما هذا الذي تقول؟ أتجعلون من الدين طُرقًا متفرقة؟ أما قال الله: (وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا)؟

رد الشيخ بلطف:

يا بني، الصراط واحد، لكن النفوس تسلكه بقلوب مختلفة. والتجربة الروحية لا تُفهم كلها بالعقل، بل تُذوق.

فقال محمد:

الذوق طريق الهلكة، والدين ليس مشاعر بل أحكام.

سكت الشيخ، وأُسدل الستار على الجلسة.

انتشر صدى المداخلة في المدينة، وبدأ البعض يتحدثون عن الفتى النجدي الذي لا يخشى أحدًا، ولا يتورع عن مواجهة الشيوخ.

في اليوم التالي، استدعاه شيخه محمد حياة السندي. دخَل عليه وجلس ساكنًا، فأشار إليه الشيخ بالاقتراب وقال:

ـــ يا محمد، إن العلم يُثمر الحِلم، وإنّ الجدل يفسد النيّة. لا تكن خصيمًا للناس جميعًا، فالدعوة بالحكمة لا بالغضب.

أطرق محمد برأسه، لكن لم يُجب.

تابع الشيخ:

تذكّر أن الذي يردّ الباطل بعنف، قد يكسره لا يُقنعه.

رفع محمد عينيه وقال:

لكن يا شيخ، إن سكتنا عن الباطل، انتشر.

هز السندي رأسه وقال:

فرقٌ بين السكوت، وبين الإحسان في البيان.

غادر محمد المجلس وهو يشعر أن كل من حوله يريد أن يُطفئ ناره. لكنه عزم على أن يُشعلها، ولو في صمت.

كان قد أمضى في المدينة أشهرًا، صار فيها أكثر حدة، وأشد يَقينًا بأن عليه مسؤولية أكبر من مجرد طلب العلم. لقد آمن في داخله أنه مُرسل، لا متعلم فقط، وأن طريق الإصلاح يبدأ من الكلمة، ثم الفتوى، ثم السيف إن لزم الأمر.

وفي إحدى ليالي ربيع الثاني، كتب في دفتره بخط ثابت:

لقد رأيت الناس قد انحرفوا عن توحيد الله، وركنوا إلى القبور، وأشركوا في المحبة والطاعة، وليس أمامنا إلا إزالة هذه الجهالات، وإعادة الإسلام كما كان.

ثم أغلق الدفتر، ووضعه تحت وسادته، واستلقى على ظهره ينظر إلى سقف الغرفة الطينية، وهمس:

ستعود يا نجد، بل ستعودين أكثر نقاءً.

وما كان يدري أن النار التي أوقدها في قلبه، ستأكل وجدان أمة بأكملها لاحقًا.

الباب الثالث: من ظلال اليقين إلى شمس الدعوة

الفصل الخامس: الطريق إلى اللاعودة

في بزوغ فجرٍ رمليٍّ ثقيل على أطراف نجد، كان محمد بن عبدالوهاب يتهيأ لرحلته الأخيرة نحو قلب المواجهة، نحو حيث سيُعيد تشكيل الدين كما رآه، ويجعل من أفكاره قاعدةً لا تزول. لم يكن بعدُ شيخًا كبيرًا، ولا فقيهًا متّفقًا عليه، لكنه كان قد اجتمع في صدره حريقٌ لا يُشبه سوى زوابع الصحراء، لا تهدأ إلا إذا اقتلعت كل ما على طريقها.

كانت العودة إلى نجد من رحلته الطويلة في الحجاز، وقد قضى فيها أعوامًا متنقلًا بين الحرمين، بداية مرحلة جديدة من الصدام. رأى هناك من البدع – حسب تصنيفه – ما جعله يعتقد بأن الإسلام قد اختُطف، وأن الشرك يُمارَس في رحاب الكعبة تحت مسميات أخرى. فالموالد، والزيارات، والتوسلات، والطواف بالقبور، كلّها في نظره كانت شركًا صريحًا، وإن أنكر عليه بعض العلماء ذلك.

عاد إلى مسقط رأسه، العُيَيْنة، محمّلًا بحزمة من القناعات الصلبة التي لم يعد مستعدًا للتفاوض بشأنها. وفي ذهنه، لم يكن الناس بحاجة إلى موعظة رقيقة، بل إلى صدمة، إلى قطع جذري، إلى هدمٍ يسبق البناء. في الليلة الأولى لعودته، جالس والده الشيخ عبدالوهاب – وقد تقدّم به العمر – وسرد عليه ما شاهده في الحجاز. أطرق الوالد طويلًا، ثم قال له:

«يا محمد، الناس ليسوا على قلب رجل واحد، فلا تكن شديدًا فتكسرهم».

لكن محمدًا لم يكن ليستجيب لصوت الحكمة. رفع عينيه وقال:

«إنما الشدة في موضعها رحمة يا أبي. أأتركهم يعبدون القبور بدعوى اللين؟!»

هزّ الأب رأسه وقال: «ولكن التغيير لا يأتي بالصدام، بل بالحكمة».

فردّ محمد، وقد توهّج وجهه:

«وما الحكمة إن لم تُبْنَ على الحق المُفْرَد؟! الحق واحد، والمساومة عليه خيانة!»

لم يُطِل المقام بعدها في بيت أبيه. خرج، وبدأ يخطب في الناس، يدعوهم إلى العودة إلى التوحيد كما يفهمه. تحدّث عن هدم القباب، وحرّم الاستغاثة بالأولياء، ونهى عن الطواف بغير الكعبة. كانت خطبه نارية، لا تعرف المداراة، وكان بعض الناس يستمعون له بانبهار، وبعضهم ينفرون منه. لكن محمدًا كان يُؤمن أن الحق لا يقاس بعدد الأتباع، بل بمدى صلابته.

سرعان ما شاع خبره في أرجاء نجد، وأصبح «الشيخ محمد» حديث المجالس. وبدأت الوفود تأتيه، بعضهم طلاب علم، وبعضهم منافسون، وبعضهم متسائلون. كان يجلس في مجلسه، مرتّبًا كلماته بدقة، يشرح «كلمة التوحيد» بطريقة لم يعتدها الناس. لم يكن يكتفي بذكر أن لا إله إلا الله، بل كان يشرحها شرحًا سلبيًا، ينفي فيه كل مظاهر التوسّل، وكل ما عداه بدعة.

وما لبث أن خسر بذلك عددًا من المحيطين به. بعضهم تراجع، وبعضهم هاجمه علنًا. وكان من أبرز معارضيه شيخ فاضل من أهل بلدة قريبة، قال عنه في إحدى خطبه: «لقد خالف محمد بن عبدالوهاب أهل العلم، وجعل الأمة كلها في شرك». فردّ عليه محمد في رسالة شهيرة قال فيها:

«أما بعد، فإني لا أكفر أحدًا من المسلمين، ما لم يقع في الشرك الأكبر، وأما من عبد غير الله، فقد حكم الله عليه في كتابه، وليس لي فيه رأي».

ومع كل هذا، كان محمد يزداد إصرارًا، وكان الناس ينقسمون حوله كما ينقسم الرمل في الرياح. فكان في نظر البعض مصلحًا، وفي نظر آخرين متعجرفًا لا يفقه المداراة.

لكن نقطة التحوّل الكبرى لم تأتِ بعد.

في أحد الأيام، زار محمد بن عبدالوهاب بلدة الدرعية، وكانت آنذاك تحت حكم الأمير محمد بن سعود، رجل طموح وحاد الذكاء، وكان لديه تطلع لتوسيع سلطته في نجد. التقى الرجلان في مجلس ضيق، تحدّث فيه محمد بن عبدالوهاب عن رؤيته. صمت ابن سعود طويلاً، ثم قال:

«يا شيخ، إن دعوتك تُحرّك الأرض تحتنا، فإن تبعناك فماذا لنا؟»

أجابه الشيخ: «لك العزّ في الدنيا، والنصر في الآخرة، إن صدقت نيتك».

ابتسم الأمير وقال: «وهل تُحرّم علينا ما نأخذ من ضرائب على السوق؟»

فقال محمد: «إنها مكوس، والمكوس محرّمة».

قال ابن سعود: «أتعني أن تذهب خراجاتنا؟»

قال الشيخ: «ومن ترك شيئًا لله، عوّضه الله خيرًا منه».

كانت تلك الجملة مفتاح التحالف. أُعجب الأمير بصرامة الرجل، ووجد فيه مشروعًا دينيًا يلبّي طموحه السياسي. واتفقا على أن تكون الدعوة الدينية سندًا للدولة، والدولة حصنًا للدعوة.

ومن تلك اللحظة، بدأت ملامح الدولة السعودية الأولى في التشكّل، لا كإمارة قبلية فحسب، بل ككيان مؤسس على أيديولوجيا دينية صلبة. صار محمد بن عبدالوهاب، المؤسس الروحي، شريكًا في القرار، وموجّهًا للتشريع، ومُصدرًا للفتاوى التي تُكفّر من خالف دعوته.

وبينما كان يُعلّم الناس «التوحيد» على طريقته، كان جند ابن سعود يوسّعون الرقعة بالقوة. هُدمت القباب، وأُحرقت الكتب، وأُجبر الناس على البيعة. وكان كل من يُخالف، يُتَّهم بالشرك، ويُستباح ماله ودمه.

في تلك الأثناء، كتب أحد خصومه من العلماء:

«لم أرَ في دعوتهم نورًا، بل نارًا. ما دخلوا بلدة إلا خرّبوها، وما قابلوا خصمًا إلا كفّروه، إنهم لا يفرّقون بين التوسّل والشرك، ولا بين العابد والزائر».

لكن محمد بن عبدالوهاب، في نظر أتباعه، كان مجددًا، ومنقذًا للإسلام من الخرافة. وكان هو يُؤمن بذلك، بل يُصدّقه تمامًا. وكان يُكثر من ترداد عبارة:

«لقد جئتكم بدين جديد... لكنّه هو الدين الحق، كما نزل على محمد بن عبد الله، بلا شوائب ولا بدع».

وهكذا، اكتمل التحالف بين الدعوة والدولة، وتحولت نجد إلى مسرحٍ جديد لصراع قديم: صراع الحقيقة الواحدة ضد تعدد التأويلات.

وكان محمد بن عبدالوهاب قد بدأ الآن في كتابة رسائله الأشهر: «كشف الشبهات»، «الأصول الثلاثة»، و«كتاب التوحيد». لم تكن هذه الكتب شرحًا للعقيدة بقدر ما كانت سلاحًا أيديولوجيًا موجّهًا ضد المخالفين. فيها يقرّر أن كل من خالف هذه المفاهيم – في التوحيد والشفاعة والاستغاثة – فهو خارج عن الإسلام، أو في حده الأدنى، واقع في الشرك.

وفي ليالٍ قليلة، انتقل من أن يكون فقيهًا إلى أن يصبح إمامًا لحركة دينية كبرى، امتد أثرها إلى كل الجزيرة العربية. وصار الناس، شاءوا أم أبوا، مجبرين على التعامل مع هذه الحقيقة الجديدة: محمد بن عبدالوهاب لم يكن يطلب الإصلاح، بل كان يُقيم ثورة على الدين كما ورثه الناس.

وبذلك، لم يكن هناك عودة، لا في المعنى السياسي، ولا في المعنى الديني. لقد بدأ عصر جديد، وُلد من رحم التحالف بين التفسير الأحادي للنص، والسلطة المطلقة في السيف.

وكان الطريق إلى اللاعودة، قد سُفِر، وصار لكل من في الجزيرة أن يختار: أن يدخل في دعوة محمد بن عبدالوهاب، أو يُتّهم بالخروج عن الإسلام نفسه.

هكذا أُغلقت الأبواب خلفه، وانفتح التاريخ على صفحة جديدة، لا زالت آثارها تُرسم حتى اليوم.

الباب الرابع: حصاد الأسئلة المحرّمة

الفصل الأول: معارك الظن واليقين

كان الليل في الدرعية ينزل على المدينة مثل غطاءٍ ثقيلٍ من الغبار والهمس.

النجوم لا تبرق كثيرًا، كأنها تعرف أن الأرض هنا قد امتلأت بنارٍ لا تُحبّ الضوء.

وفي دار محمد بن عبدالوهاب، لم تكن الشموع تُشعل فقط لتُنير الحروف، بل لتُراقبها.

جلس الشيخ أمام محبرته، متأملًا في خطوطٍ بدأ يكتبها منذ أيام، ثم عاد ليشطبها، ثم يعيد كتابتها بشكلٍ آخر.

على الطاولة أمامه، عشرات القصاصات، ممزقة أو مطوية أو موصومة ببقع الحبر الحارّ.

كتب، ثم توقّف:

«إن التوحيد هو الأصل، وكل من خالفه مشرك.

وإن الشرك هو أعظم الظلم، ومن لم يكفّر المشرك فهو مثله.»

تأمل العبارة طويلًا، ثم نظر إلى جدار الغرفة.

كان الضوء الأصفر الخافت يرتجف على الطين اليابس، تمامًا كما يرتجف قلبه.

همس لنفسه، كمن يكلم رجلاً آخر يسكنه: – «ولكن، ماذا عن الذي خالف وهو يجهل؟ وماذا عن الذي أحب الله، وزار القبر، لا تعبّدًا لصاحبه، بل حبًّا فيه؟»

أعاد قراءة العبارة، ثم كتب فوقها، بخطّ مختلف:

«الجاهل يُعلَّم... ولا يُكفَّر.»

لكنّه حين قرأها من جديد، أحسّ وكأنها تضعف النص، وتترك ثغرة في جدار العقيدة.

مزّق الورقة.

في اليوم التالي، وقف محمد في مجلسه، يُدرّس للطلبة أحكام التوحيد، ويتحدث بثقة لا تهتزّ.

لكن داخل صدره، كان هنالك شيءٌ يتحرك... شيء يشبه القلق، لكنه أعمق.

قال أمامهم: – «الشرك ليس فقط عبادة صنم، بل كل ما يُقصد به غير الله في الطلب والدعاء والذبح والنذر...»

رفع أحد الطلبة يده، صوته كان رقيقًا، لكن عيناه جريئتان: – «يا شيخ، وهل يجوز أن نقول عن من يزور قبر النبي ويدعو الله هناك: إنه مشرك؟ وهو يشهد أن لا إله إلا الله، ويصلّي، ويصوم، ويُحبّ الرسول حبًا جمًا؟»

ساد صمتٌ قصير.

نظر محمد إلى الشاب، ثم أجاب بصوتٍ ثابت: – «المعيار ليس الحب، بل التوحيد. فلو أحب أحدٌ رسولًا أو وليًا حتى جعله واسطة بينه وبين الله، فقد وقع في المحظور. والنية وحدها لا تنقذ من الشرك.»

لكنّ العبارة نفسها ارتدّت في داخله كصدى لا يهدأ.

كان يدرك أن هناك فرقًا بين من يُشرّع الشرك، ومن يتورط فيه عن جهلٍ أو تقليدٍ أو عاطفة.

وكان يعلم، في دخيلة نفسه، أن أكثر الذين خالفوه... لم يكونوا كفّارًا، بل كانوا أبناء بيئة، أبناء حكاية، أبناء ذاكرة دينية طويلة.

في الليل، عاد إلى أوراقه.

أخرج كتابه القديم «كشف الشبهات»، وبدأ يقرأ فقراته كما لو أنه يقرأ نصًا كتبه شخصٌ آخر.

قرأ هذا المقطع:

«وإذا عرفت أن هذا هو دين الله الذي أرسل به رسله، وأنه لا يتم الإقرار به إلا بالكفر بالطاغوت، فاعلم أن أكثر من في الأرض قد كفروا بهذا التوحيد.»

توقف طويلاً.

همس: – «أكثر من في الأرض؟ أم أكثر من في قلبي أنا؟»

ثم كتب، في هامش الصفحة:

«هل كنت أبحث عن الحق... أم عن نُصرة نفسي؟»

ثم نظر إلى الجملة، وأغلق الكتاب فجأة كمن قبض على حيّة.

أحد كبار فقهاء الحجاز أرسل له رسالة طويلة، يخاطبه بأدب، ويخالفه في المنهج.

كان نص الرسالة كالتالي:

«شيخنا الفاضل، بلغني أنك تكفّر العامة بسبب زيارتهم للقبور، وأنك تصف علماء الأمة بالمداهنين، وتضع نفسك في مرتبة من يحكم على الإيمان والشرك.

أما نحن، فندعو إلى التوحيد، لكننا لا نكفّر إلا بما أجمع عليه المسلمون، ونخشى أن تكون دعوتك – رغم نيتك الطيبة – قد فتحت على الأمة بابًا من الفتنة...»

قرأ الرسالة ثلاث مرات.

وفي كل مرة، شعر بشيءٍ من الانقباض في صدره، لكنه رفض أن يعترف بذلك.

كتب ردًا قاسيًا:

«إنك ممن ينصرون الباطل باسم الأدب، وتخشون فتنة التكفير أكثر من فتنة الشرك! وهل يُداهن الأنبياء أقوامهم لأجل عدم الفتنة؟!»

لكنه لم يرسل الرد.

مرّت أيام، وبدأ بعض أتباعه يرتكبون تجاوزات.

أحدهم أحرق مكتبة في بلدة مجاورة لأن فيها كتبًا «تروّج للتصوف».

وآخر جلد شيخًا مسنًّا لأنه لم يتخلّ عن تقبيل يد معلّمه.

جاءت الأخبار لمحمد، وكان وجهه جامدًا، لكنه قال في سره:

«إنهم يفهمونني على طريقتهم... لكنني مسؤول عن النار التي أطلقتها.»

في مجلس خاص، جلس مع محمد بن سعود، وكان النقاش بينهما هذه المرة دينيًا أكثر منه سياسيًا.

قال له الأمير: – «يا شيخ، هل نحن في حربٍ مع الكفار... أم مع المسلمين؟»

أجابه الشيخ: – «نحن في حرب مع من أظهر الإسلام وخرّبه بالشرك.»

قال الأمير، بنبرة ثقيلة: – «وما الذي يُفهمه الناس من هذا؟ أنكم تكفّرونهم، وتُحلّون دماءهم، حتى لو لم يعلموا.»

سكت محمد لحظة، ثم قال: – «أنا أدعو إلى الله، والأمير يُقيم الحدود. فإن اختلطت الدعوة بالدماء، فليس ذلك منّي، بل من السنّة التي لا تُفرّق بين العقيدة والحكم.»

لكنّه، في قلبه، كان يعرف أن الأمر لم يعُد بيده.

في أواخر هذا الفصل من حياته، بدأ محمد يدوّن خواطره في دفتر سريّ، لا يُطلعه على أحد.

كتب في إحدى الصفحات:

«من خاف من الفتنة فقد عرفها، ومن أنكر الشرك فقد مسّه.

ولكن، ما العمل إن صار التوحيد ذريعة للبطش، وصارت الفتوى مطية للقتل؟»

ثم كتب تحته:

«الدعوة نار، فإن لم تضعها في مصباح... أحرقت يدك ويد غيرك.»

وفي تلك اللحظة، سمع أذان الفجر، فقام يصلي.

لكن صلاته لم تكن صلاة من وجد الطمأنينة، بل صلاة من يناجي إلهًا ويسأله:

«هل كنتُ على حق؟ أم كنتُ فقط أول من رفع الصوت؟»

هكذا، عاش محمد بن عبدالوهاب معركة الظن واليقين بكل تقلباتها.

لم تكن مجرد معركة بينه وبين الناس، بل بينه وبين نفسه.

بين دعوة يرى أنها وحيٌ متجدّد، وواقعٍ يشبه الكوابيس القديمة.

لم يكن نبيًا، ولم يدّعِ العصمة، لكنه أيضًا لم يحتمل فكرة أنه قد يكون مخطئًا.

فالحقيقة بالنسبة له لم تكن هدفًا... بل كانت هوية.

ولم يكن مستعدًا أن يرى ذاته تنهار، ولو انهارت من أجلها أمة.

الباب الرابع: حصاد الأسئلة المحرّمة

الفصل الثاني: محبرة فوق الجمر

حين خرج محمد بن عبدالوهاب من صلاته تلك، لم يكن الضوء قد تسلّل بعد إلى الأزقة الضيقة للدرعية.

كانت العتمة لا تزال تتمدد على جدران البيوت الطينية، والهواء ثقيلٌ برائحة الرماد... كأن المدينة نفسها تخبئ شيئًا.

عاد إلى غرفته الصغيرة، إلى المحبرة التي باتت تُشبه الجمر في قلبه، كلما اقترب منها احترق.

جلس أمامها وهو يشعر أن بينه وبين الحبر خصومة قديمة.

منذ صباه في العيينة، والحبر رفيقه.

علّمه والده عبدالوهاب بن سليمان أن لا يخطّ حرفًا إلا بعد أن يسأل قلبه مرتين:

هل هو لله؟

وهل هو حقّ؟

لكنه في تلك اللحظة، لم يكن واثقًا من أي شيء.

فتح دفتره، واستعاد فصولًا من حياته الأولى:

البصرة، حين كان في الخامسة والعشرين، يسير في أروقة المساجد بين مجالس العلماء...

هناك حيث سمع للمرة الأولى صوتًا داخليًا يقول له:

"كل هؤلاء العلماء... خائفون من الناس أكثر من الله."

كان شابًا حادًا، لا يرضى أنصاف الحلول.

رأى أن التوحيد يُمتهن في حلقات الذكر، وأن البدعة تلبست بثياب الورع.

فقال لنفسه: «لن أكون واحدًا منهم.»

ثم تذكّر رحلته إلى الحجاز، حيث رأى كيف اختلط التصوف بالخرافة، وكيف امتلأت كتب العلم بالحواشي على الحواشي حتى ضاع المتن.

رأى رجلًا يطوف حول قبر فقيه، وآخر يقبّل حجرًا ويقول: «هذا حجر البركة.»

قالها حينها بصرامة لأحد المشايخ: – «هذا شرك، وهذا لا يرضي الله.»

فردّ الشيخ بهدوء: – «يا بني... ليس كل انحراف شركًا. بعضه جهل، وبعضه حب، وبعضه إرث.»

لكن محمد لم يكن يملك رفاهية التدرّج.

كان يرى أن الوقت ينفد، وأن الانحراف يزداد، وأن السكوت جريمة.

في تلك الليلة من ليالي الدرعية، بينما يستعيد تلك الوجوه والأماكن، تساءل:

– «هل كنتُ أبحث عن الحقيقة أم عن لحظة الانتصار؟»

– «هل أنا مُصلح، أم قاضٍ في معركة لم تنعقد؟»

– «ألم أكن أختار النصوص التي تُعزز موقفي، وأُقصي كل من يخالفني بحجة "سدّ الذرائع"؟»

فتح أحد كتبه القديمة، نسخة مشروحة من كتاب التوحيد.

قرأ فيه عنوان بابٍ من الأبواب:

«باب: من تبرّك بشجر أو حجر فقد أشرك»

تذكّر لحظة كتابته لهذا الباب، يوم كان غاضبًا من شيخٍ حجازي دافع عن التبرك بالحجر لأنه من آثار نبي.

شعر أن غضبه تسلّل إلى الحبر.

وشعر أن "العقيدة" بدأت تتقشّر في يده لتكشف عن جلدٍ آخر... جلد السلطة.

كان قد كتب في شرح الباب:

«فإن ظنّ ظانّ أن الله يرضى بأن يُتقرّب إليه بغير ما شرع، فقد جعل مع الله شريكًا في التشريع، وهذا هو الشرك الأكبر.»

لكنه الآن، أمام النار التي أشعلتها كلماته، بدأ يتساءل عن أولئك الناس البسطاء الذين لم يعرفوا كيف يفرّقون بين المحبّة والعبادة، ولا بين النية الطيبة والجهل بالدليل.

عاد يكتب في دفاتره الشخصية، هذه المرة بصيغة المتردد لا الحاسم:

«إن قلبي لا يطاوعني أن أكفّر رجلًا يقول لا إله إلا الله، ويصلّي، ويصوم، ثم يخطئ في موضع نية أو عادة قديمة...

لكن قلمي لا يطاوعني أن أترك البدعة تنتشر.

فمن يُرضي الله: قلبي أم قلمي؟»

ثم كتب تحته:

«هل من الممكن أن يكون الحبر نفسه فتنة؟»

لم يكن وحده في هذا الصراع.

كانت رسائل تُرسل له من الأحساء، من نجد، من مكة، من المدينة.

بعضها يثني على دعوته، وبعضها يطعن فيها.

لكن أكثرها كانت تسأله:

«هل حقًّا تُكفّر علماء الأمة؟»

وكان جوابه في العلن: «لا نكفّر إلا من ثبت شركه بالدلائل».

<u>لكن في الحواشي، كان يكتب أسماء لعلماء وصوفية، ويُقسّمهم إلى:</u>

من يُرجي أمره

من يجب الإنكار عليه

من لا تُقام له صلاة

بدأت هذه القوائم تتكاثر.

وفي كل مرة يُضيف فيها اسمًا، يشعر بأن حبره يسيل على الجمر، لا الورق.

وفي أحد المجالس، دخل عليه أحد تلاميذه المقرّبين، وقال: – «يا شيخ، لقد هاجمنا بعضهم وقالوا إنكم جعلتم أنفسكم حكّامًا على قلوب الناس!»

أجابه محمد بهدوء: – «نحن لا نحكم على القلوب، بل على الظاهر.»

لكنّ التلميذ قال: – «والظاهر... من الذي يراه؟ أليس نحن؟»

صمت محمد.

كانت المرآة تقترب، ولم يعُد فيها إلا صورته وسؤاله:

«ألم تصبح الدعوة، يوم أمس، سيفًا؟ وها هي اليوم محبرة فوق جمر؟

فمتى تصير ميزانًا؟ ومتى يبرد الجمر؟»

وفي ختام ليلته، وهو وحده مع الله، كتب:

«يا رب، إن كنتُ قد أخطأت، فاغفر لي.
وإن كنتُ على صواب، فثبّتني،
وإن كانت دعوتي قد خلطت الحق بالدم،
فطهّرها من نار الفتن... أو خذني قبل أن أُضلّهم.»

ثم أطفأ شمعته،

وترك المحبرة تغلي على الجمر وحدها.

الباب الرابع: حصاد الأسئلة المحرّمة

الفصل الثالث: الأشباح في الحلقات

في الصباح التالي، لم يكن الشيخ محمد قد غفا إلا سويعاتٍ معدودة.

كان صدى دعائه الأخير لا يزال يتردد في أركان الغرفة، والمحراب الصامت يُشبه شاهدًا على عاصفة لم تهدأ بعد.

حين طرق الباب أحد الخدم ليبلغه أن أحد العلماء الكبار وصل الدرعية طالبًا اللقاء، تردّد الشيخ لحظة.

منذ سنوات، كان يرحب بكل زائر يرى في دعوته تجديدًا.

أما الآن، فصار يستشعر في كل لقاء امتحانًا، وفي كل كلمة فخًا من فخوخ الضمير.

دخل عليه الضيف، شيخٌ حنفي من أهل الأحساء، مهاب الطلعة، هادئ الصوت، يُدعى الشيخ عبدالرزاق المهاجر.

جلس دون أن يطيل السلام، ثم قال بلهجة لا تُخفي ما بها من تحدٍّ مغموس بأدب:

«يا شيخ محمد، قرأت كتبك، وسمعت أقوالك، ورأيت آثار دعوتك. وأنا لست هنا لأناظرك، بل لأفهم. لماذا أُخرجنا من الإسلام ونحن فيه؟»

سكت محمد بن عبدالوهاب طويلًا.

أحسّ أن السؤال لم يكن يُراد به إجابة، بل اعتراف.

أجابه أخيرًا:

«ما كفّرنا أحدًا إلا من فعل ما يُوجب الكفر. ومن أقام البدع وأشرك بالله، فقد خرج عن دائرة الإسلام، وإن صلّى وصام.»

قال الشيخ عبدالرزاق:

«وهل التبرك بقبور الأولياء، أو التوسل بالنبي، شرك؟ وهل تُدرك أي ذاكرة دينية يعيشها الناس حين يفعلون ذلك؟ أليس من الفقه أن تُفرّق بين الشرك الأكبر، والشبهات، والخطأ في الفهم؟»

رفع محمد رأسه، وقال:

«الحق لا يُجزّأ. وما كان عليه النبي، يجب أن نعود إليه بلا رتوش ولا خرافة. كل ما لم يكن دينًا في عهد رسول الله، فليس دينًا اليوم.»

ابتسم الشيخ الزائر، وقال:

«لكنّ الناس ليسوا نسخًا من الصحابة، ولا تلامذة مدرسة واحدة. الدين ليس آلة. إنه روح. ومن فرّق بين الطقوس ونيّاتها، علم أن الله يحكم على القلوب، لا على الحركات.»

هنا، تساءل محمد في نفسه:

«هل أُغلق عليّ باب التأويل؟ هل صارت دعوتي تُعامل القلوب كما تُعامل الأصنام؟»

ثم ردّ بصوتٍ متماسك:

«والشرك لا ترفق فيه، وإلا عمّ وطمّ. وما وقع ما وقع في الأمة إلا حين سكت العلماء عن البدعة الأولى، فأورثتنا بدعًا لا تُحصى.»

قال الشيخ الزائر:

«لكن حين يصبح كل اجتهاد غير اجتهادكم بدعة، فمن يُنصّب أحدًا مفتاحًا للنجاة؟ ومن ذا الذي لا يخطئ في اجتهاده؟»

تلك الليلة، بعد أن غادر الضيف، جلس محمد إلى حلقة تلاميذه، لكن شيئًا تغيّر.

كان ينظر إليهم وهم يُحدّقون فيه بإجلال، ويرددون عباراته كأنها آيات.

لم يعد يرى فيهم طلبة علم، بل نسخًا من رأيه، ظلالًا لكلماته.

قال أحدهم:

«يا شيخ، هل نكتب أسماء من يترددون على القبور؟ نرفعها لك لتُقرّر حكمهم؟»

فقال آخر:

«لقد لاحظنا أن بعض النساء في السوق يذكرن أسماء مشايخ طُرقيين عند الرقية، أفلا يُعد هذا من الشرك؟»

تململ الشيخ محمد في مجلسه.

لم يكن هذا ما أراده.

أراد إصلاحًا، لا اصطفافًا.

أراد توحيدًا، لا تجسّسًا.

قال لهم:

«يا إخوتي، لا تستعجلوا في إصدار الأحكام. الشرك أمرٌ عظيم، لكن إثباته أعظم. من عذرًا تأوّل، ومن تأوّل لا يُحكم عليه بالكفر حتى تُقام عليه الحجة الواضحة.»

لكن أحد التلاميذ قال:

«ومتى تُقام عليه الحجة يا شيخ؟ وقد مضى على ضلاله سنوات؟ أما آن أن يُفصل في أمره؟»

شعر محمد كأنه فجّر في الناس غريزة الطرد أكثر مما أيقظ فيهم روح الإصلاح.

في الأيام التالية، تكاثرت الرسائل.

بعضها يطلب الفتوى في تكفير أشخاص بأسمائهم.

وبعضها يتضمن تبليغًا بأن جماعة كاملة من قرية كذا، لا يُقيمون الصلاة «بالنية الصافية» لأنهم يزورون قبرًا قديمًا في أطرافها.

ووصلته رسالة من تلميذ قديم يقول:

«يا شيخ، لقد قرأتُ ما كتبته، فرأيتني أنا نفسي خارج الإسلام وفق مقياسك، فهل أُجدّد إسلامي؟ أم أترك العلم وأسكن القبور؟»

كان وقع الرسالة عليه كالسوط

كتب في دفتره:

«يا رب... أأنا الذي خلطت بين الغيرة على التوحيد، والتسلّط باسم العقيدة؟

أأنا الذي فتحتُ الباب لشرعنة القسوة بدعوى الغيرة؟

وهل دعوتي، التي بدأت بنار الإصلاح، انتهت إلى جليد الإدانات؟»

جلس مساء ذلك اليوم مع الشيخ عبدالعزيز بن سعود، الحاكم الذي منح دعوته القوة والسيف.

قال له:

«يا شيخ، كثُر كلام الناس، وبدأت القبائل ترتاب. البعض يقول إن دعوتكم تُفرّق الأمة، لا تجمعها.»

قال محمد بن عبدالوهاب:

«وأنا أقول: لا تجتمع الأمة على ضلالة. نحن نُعيدها إلى أصلها، إلى توحيدٍ لا شائبة فيه.»

لكن صوتًا خافتًا في داخله قال له:

«وهل الأمة كلّها ضالة؟ وهل عرفتَ الحق وحدك؟»

قال ابن سعود:

«الناس تخاف من التكفير يا شيخ. كل يوم يأتي إلينا وفد يطلب أن لا يُنعت بالكفر ولا تُغزى دياره. هل لك أن تخفّف من هذه اللهجة؟»

قال محمد:

«ومن لم يُكفّر المشركين، فقد شكّ في كفرهم، ومن شكّ في كفرهم فهو كافر.»

سكت ابن سعود.

كانت الجملة نفسها قد قالها له قبل سنوات، لكنها الآن كانت كالرصاص.

في قلب السياسة، لا يوجد ما هو أخطر من التكفير بالجملة.

عاد محمد إلى غرفته.

مرّ بيده على كتبه، فرأى ما لم يكن يراه من قبل.

كل كتاب كان أشبه بطعنة في قلب التسامح.

كل حاشية كتبها على الهامش، كانت إقصاءً لا إضاءة.

<u>جلس ليلًا يكتب:</u>

«أخشى أن تكون دعوتي قد أيقظت في الناس نزعة الاجتثاث، لا نزعة التزكية.

لم أُرِد لهم أن يُفتّشوا في صدور الناس عن الكفر، بل في صدورهم عن التوحيد. لكنهم فتّشوا... وأخرجوا قوائم، لا قلوبًا.»

ثم كتب في آخر الصفحة:

«أين ذهبت الرحمة التي وُلد بها هذا الدين؟
هل دفنّاها في حلقات الحديث؟
أم غطّاها صليل السيوف؟»

أطفأ شمعته.

ولم يغلق دفتره.

تركه مفتوحًا، كأن فيه اعترافًا مؤجّلًا...

أو توبة لم تنضج بعد.

الباب الرابع: حصاد الأسئلة المحرّمة

الفصل الرابع: شريعة على صهوة الخوف

كانت الأخبار تأتيه محمولة على ظهور الخيول، مُثقلة برائحة الغبار والنار.

قرى تُهاجم، مساجد تُهدم، قباب تُسوّى بالأرض، أضرحة أولياء تُنبش، ونُسخ من كتب الفقه تُحرق لأنها تحوي أورادًا أو فصولًا عن الكرامات.

كل ذلك، باسم "نقاء التوحيد".

وحين وصلته رسالة من قرية "فدك"، يقول فيها أحد شيوخها:

"لقد دخل علينا رجالكم، فسألونا: أتتبرّكون بالأولياء؟

فلما قلنا: نحبهم ولا نعبدهم، قالوا: هذا شرك.

فهدموا الضريح، وأخذوا منا كتاب الدعاء، وقالوا: هذا بدعة شركيّة."

ووقّع الرسالة بعبارة: "من عبد الله بن عابد بن صالح، أحد محبّيكم، لا أعدائكم."

وضع محمد بن عبدالوهاب الرسالة على الطاولة، وسكت طويلًا.

في بداية دعوته، لم يكن يتخيّل هذا المشهد.

كان يرى في الشرك خطرًا وجوديًا يُهدّد الأمة، وأن إزالة مظاهره ـ أيًّا كانت ـ هو أول شروط عودة الإسلام إلى صفائه الأول.

لكنه لم يكن يريد للناس أن يُؤخذوا على غفلة، أو يُطعنوا في قلوبهم وهم يصلّون.

لم يكن يتخيّل أن تتحول كلماته إلى سيوف تسبق الفهم، وسلاسل تُقيّد الضمير.

أراد أن يُزيل الغبش عن التوحيد، لا أن يُطفئ نور الرحمة.

مرّ بذاكرته أولى لحظات لقائه بابن سعود.

يومها، جلسا متقابلين، وكأنّ التاريخ يتنفس بينهما.

<u>قال له محمد بن عبدالوهاب يومها:</u>

«يا عبدالعزيز، إنني أرى الناس يعبدون الله على جهل، ويتقرّبون إليه بما لم يشرع. ومن لم يُنكر المنكر فهو شريك في الإثم.»

<u>قال له ابن سعود:</u>

«وهل يرضى الله عن هدم قلوب العوام إن لم يهدموا القباب؟ وهل تُنصر الأمة بسيف على أهلها؟»

<u>أجابه محمد:</u>

«بل تُنصر بالحق، وإن كان مُرًّا. والسيف إن لم يكن في يد الحق، صار في يد الباطل.»

<u>وتم الاتفاق:</u>

الدعوة له والسلطة لابن سعود.

وكلما وسّع هذا نفوذ السيف، وسّع الآخر نفوذ الكلمة.

لكن بعد سنين، لم يعُد الفرق واضحًا.

صارت الكلمة نفسها تُحمل على الرمح، والدعوة تُبشّر بالجنة من جهة، وتُهدّد بالنار من الجهة الأخرى.

في عامٍ من الأعوام، دخلت قوات الدولة الناشئة إلى الحجاز.

دخلوا الطائف، ثم مكة.

قُتل رجال، أُحرقت زوايا صوفية، صُودر مصحف منسوب إلى خطّ الإمام عليّ لأنه "بدعة" بلا سند، وهُدِمت بعض القباب التي كان يُقال إنها لأبناء الصحابة.

لم يكن محمد حاضرًا، لكنه تلقّى الأخبار مكتوبة بالتفصيل.

جاء في تقريرٍ من قائد الحملة:

«الحمد لله، لقد طهّرنا الأرض من الشرك. لم نُبقِ قبرًا يُزار، ولا مزارًا يُخشى. وقد أمرنا بإزالة كل ما يُشير إلى بدعة، ولو كان حجرًا كُتب عليه اسمٌ غير الله.»

قرأ محمد التقرير، ثم طوى الورقة بصمت.

<u>في الليل، دخل عليه أحد أبنائه.</u>

<u>قال له:</u>

«يا أبت، أحقًّا أننا على الحق وحدنا؟»

قال محمد:

«الحق لا يُعرف بكثرة السالكين، بل بدليله.»

فقال الابن:

«لكننا نُصلي، وهم يُصلون. ونُوحّد، وهم يُوحّدون. ونقرأ القرآن، وهم يقرأون.

فهل شققتَ عن قلوبهم يا أبت؟»

لم يُجبه محمد.

كان قلبه مشغولًا بسؤال آخر: "هل يُمكن للحق أن يكون عنيفًا إلى هذا الحد؟"

أعاد محمد قراءة بعض فتاواه القديمة.

وجد فتوى في تكفير من يذبح لغير الله عند قبر ولي.

ثم وجد أخرى في تحريم زيارة قبر النبي لمن اعتقد أن الزيارة تقرّب إلى الله، لا لمجرد السلام.

ثم وجد ملاحظات بخط يده:

«إذا اشتبه على المرء في فعل شركي، وجب تعليمه. فإن أصرّ، كان كافرًا.»

لكنّه لم يجد تفسيرًا لكلمة "أصرّ"...

هل المقصود الجهل العنيد؟ أم الجهل العفوي؟

وهل تقاس العقيدة بالمقاييس نفسها التي تُقاس بها الجريمة؟

كانت الرسائل تأتيه من علماء الأزهر، من الشام، من اليمن.

كلٌّ منهم يُعارضه، أو يُحذّر منه.

<u>كتب أحد علماء اليمن:</u>

«يا محمد، قد تكون مُخلِصًا، لكنك تستعجل الحصاد، وتقطع الزرع قبل أن ينضج.

التوحيد لا يُغرس بالنار، بل بالعلم، والحكمة، والصبر.»

وقّع الرسالة باسم: الحسن بن أحمد، رجل من أهل السنة، لا من أهل الشرك.

قرأ محمد الرسالة ثلاث مرات، ثم كتب على ظهرها:

«ومن قال إنني أقطع؟ إنني أُطهّر.»

لكنه لم يُرسلها.

ربما شعر للحظة أن "الطهارة" صارت تعني عند أتباعه الإبادة الرمزية للآخر.

في إحدى ليالي الدرعية، دعاه الشيخ ابن سعود لحضور اجتماع مع بعض وجهاء القبائل.

كان بينهم رجل من الحجاز، اسمه سعد بن سالم، ذو لحية كثيفة، ووجه صارم.

قال سعد:

«يا شيخ، إنكم تدعون إلى التوحيد، ونحن معكم.

لكن أتباعكم لا يفرقون بين الجاهل والمبتدع، ولا بين الخطأ والشرك.

صار الناس يخافون من الذكر، من الصلاة في المساجد التي فيها قبور، من كتب الدعاء القديمة.

صار الدين رعبًا.»

ردّ محمد:

«لو كنّا نُجامل في العقيدة، ما نهضنا أصلًا.»

قال سعد:

«لكنكم الآن لا تُعلّمون... أنتم تُهاجمون. وهذا الدين جاء موعظةً، لا محكمة.»

عاد محمد تلك الليلة إلى غرفته.

جلس أمام محرابه، ولم يصلِّ.

أخذ دفتره، وكتب:

«كم من نفسٍ خافتني، ولم تخف الله؟

كم من قلبٍ حسبني باب النجاة، ولم يفتح قلبه لله مباشرةً؟

كم من جاهلٍ حسب سيفي شريعة، وهو لا يفرق بين العادة والعقيدة؟»

<u>كتب في الهامش:</u>

«إذا صارت الشريعة مطيّة للخوف... فهل تبقى شريعة؟»

كان الحبر لا يزال ساكنًا.

لكن الجمر تحته ازداد اتقادًا.

وكتب آخر سطر:

«اللهم، لا تجعلني باب فتنة، ولو كنتُ على الحق.»

الباب الرابع: حصاد الأسئلة المحرّمة

الفصل الخامس: ظلّ اللهب على الجدار

كانت الشمس قد توارت خلف كثبان الدرعية حين دخل محمد بن عبدالوهاب مجلسه الأخير لتلك الليلة. لم يكن بانتظار أحد، ولم يُضِئ المصباح، وكأن العتمة باتت رفيقة تألفه، لا تخيفه.

جلس على الأرض. لا كتب حوله، لا تلاميذ، لا أوراق مبعثرة. فقط صمتٌ كثيف، وصوت الريح يضرب نافذة الطين، كأنها تذكّره: أن كل نارٍ، وإن اشتعلت بالحق، تُلقي ظلًا.

في أيامه الأولى، كانت الدعوة نارًا في قلبه. يرى في البدعة سوسًا ينخر الأمة، ويرى في التوسّل شركًا مغلّفًا بمحبة الأولياء. وكان يؤمن أن الإسلام قد تلوّث عبر القرون، وأن العودة إلى الصفاء الأول لا تحتمل التدرّج ولا التساهل.

لكنّه الآن، بعد عقود من الخطابة، من التأليف، من التحالف، من التكفير، من الحروب، من الدماء التي سُفكت، والقبور التي سُويت بالأرض، بدأ يرى أن للنار ظلالًا.

ظلّ لا يطفئه النقاء، ولا تُبرّره النيّة.

<u>في إحدى أوراقه الشخصية، كتب منذ أعوام:</u>

"لقد بدأنا من آية: قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. وانتهينا إلى فتوى تُحرِّم السلام على من يقرأ دلائل الخيرات، أو يضع وردًا على قبر. هل خسرنا الطريق بين الآيتين؟"

ثم مزّق الورقة.

كان مزّق كثيرًا غيرها، لأن الظل لا يليق برسائل تُكتب في النور.

في العيينة، حين كان في السابعة من عمره، زارت أسرته ضريحًا شهيرًا في الجبل المجاور. كانت أمه تمسك بيده، وتقول له: "قل: يا الله، لا تنادِ الميت." لكنه رآها مساءً تبكي عند الضريح، وتقول: "يا شيخنا، اشفع لنا."

حين كبر، أنكر التناقض. لكنه لم يفهم الألم. لم يفهم أن الناس حين تشتد بهم الحياة، لا يلجؤون إلى القبور لأنهم يعبدون أهلها، بل لأنهم تعبوا من جدران لا تُجيبهم.

في الخرافة ظلّ الأمل. وفي التوسّل ظلّ الوحدة. وفي حب الأولياء ظلّ الأمومة والأبوة والحنين إلى زمنٍ لم يعرفوا فيه الفقه، لكن عرفوا الطمأنينة.

في البصرة، في مجلس علمٍ ذات مساء، صرخ في وجه شيخ: "هذا شرك! هذا لا يرضي الله!" لأن الرجل مدّ يده إلى عصا يُقال إنها كانت للنبي.

قال له الشيخ: "يا بني، ليس كل انحراف شركًا. بعضه جهل، وبعضه حب، وبعضه إرث لا يعرف بديله."

لكنه لم يكن يملك آنذاك رفاهية التفهّم.

كان يرى الوقت ينفد. والناس تنزلق. والدين يتهدّد.

حين عاد من رحلاته إلى نجد، بدأ يؤلف كتابه "التوحيد الذي هو حق الله على العبيد". كان الكتاب خلاصة غضبه. صفحة تلو صفحة، كأن كل كلمة فيها تُكفّر عالمًا، أو تنقض طريقًا.

وحين كتب باب: "من تبرك بشجر أو حجر فقد أشرك"، كان لا يزال تحت أثر خلافٍ مع شيخٍ من الحجاز، دافع عن التبرك بآثار نبي.

سأل نفسه الآن: كم بابًا في كتبي وُلد من غضب؟ كم سطرًا حُبك من نزاع؟ كم حكمًا اجترأته لأني خفت أن يُقال: "تساهل محمد بن عبدالوهاب"؟

زارته وفودٌ من الأحساء، من مكة، من نجد، من المدينة. بعضهم جاء يبايع، وبعضهم جاء يستتيب، وبعضهم جاء يخاصم.

<u>قال له أحد الفقهاء من اليمن:</u>

"شيخنا، نحن لا نعبد القبور. لكنك جعلت كل من لم يُنكرها مشركًا."

<u>فردّ محمد:</u>

"إن لم يُنكر، فقد رضي. وإن رضي، فقد خلط الدين بالخرافة."

<u>فقال الفقيه:</u>

"وهل يُعذر الجاهل؟"

<u>قال محمد:</u>

"يُعذر في العلم، لا في التوحيد."

قال الفقيه:

"لكن الناس ورثوا دينهم، ولم يعرفوا غيره."

صمت محمد. ثم قال:

"والله، لا أُكفّر العامة، بل العلماء الذين يسكتون."

لكنه كتب في حاشية كتابه بعد تلك المناظرة:

"قد يُعذر الجاهل في بعض الأحوال، إن لم تُقم عليه الحجة."

في الحروب التي خاضها تحالفه مع آل سعود، سقط كثيرون.

نساء، أطفال، شيوخ، فقراء، أئمة مساجد، طلاب علم.

كلهم أُدرجوا تحت وصف: "الموالون للبدعة."

كلهم، في دفاتر الدعوة، كانوا من "أهل الشرك، إن لم يُظهروا التوبة."

لكنه في خلواته، كان يقرأ حديث النبي: "هدم الكعبة أهون عند الله من قتل مسلم."

وسأل نفسه:

هل تجرّأنا باسم الحق، حتى اختلطت أيدينا بالدم؟

وهل خسرنا قلب الأمة، لنربح صورتها؟

وهل يمكن أن يكون النقاء، إذا زاد عن حدّه، قاتلًا؟

<u>في سنة من السنوات، دخل عليه أحد تلاميذه المخلصين، وقال له:</u>

"يا شيخ، الناس يقولون إنك فتحت باب التكفير بلا ضوابط، وإن في نجد من صار يُكفّر أخاه لأنه زار قبر أمه."

<u>أجابه محمد:</u>

"نحن لا نكفّر إلا بشروط، ولا نُبيح القتال إلا بعد إقامة الحجة."

<u>فقال التلميذ:</u>

"لكنهم لا يعرفون الحجة. يعرفون فتاواك، ويحسبونها قرآنًا."

<u>صمت محمد.</u>

ذلك الليل، كتب في دفاتره:

"الخوف من الشرك قد أورثنا رُعبًا من المحبة. والخوف من البدعة قد قتل فينا روح الرحمة."

في الأيام الأخيرة، أُرسلت إليه رسالة من عالم مغربي كبير، يطلب منه إعادة النظر في أحكامه العامة.

قال في الرسالة:

"يا شيخ، لو طبّقنا منهجك حرفيًا، لما بقي من الأمة إلا طائفة. ولا سلم إمامٌ ولا مريد."

ردّ عليه محمد برسالة قصيرة:

"يا سيدي، لقد جاهدت جهدي أن أُعيد الناس إلى ما كان عليه النبي وأصحابه، فإن كنتُ قد شدّدت، فلأن الزمان لا يحتمل التراخي."

لكنه كتب بخطٍ صغير في أسفل الصفحة:

"اللين يُصلح ما لا يُصلحه السيف."

خرج إلى مسجد الدرعية في آخر جمعةٍ حضرها.

صلّى في الصف الأخير، لم يتعرف عليه أحد. وكان صوته في السجود همسًا:

"يا رب، إن كنتُ فتحتُ باب فتنة، فاختمه بيدك، لا بيد خلقك."

وفي السجدة الثانية، بكى.

لا من خوف الموت، بل من سؤالٍ أقدم من الموت:

"هل كنتُ سببًا في أن يخاف الناس من الله... أكثر مما يحبونه؟"

عاد إلى غرفته، وأشعل الشمعة.

كتب على الصفحة الأولى من دفتر جديد:

"اللهم إنك تعلم أنني أردتُ وجهك... فإن أخطأت، فاغفر لي. وإن أصبت، فاجعل قلبي لا يفرح إلا برضاك، ولا ينتشي بانتصارٍ يُغضبك، ولا يبني عقيدةً على أنقاض الرحمة."

أغلق الدفتر.

وأطفأ الشمعة.

وفي العتمة، بقي ظل اللهب على الجدار... كأن كل دعوة، مهما سمت، لا تخرج من التاريخ طاهرةً كما دخلت.

وأن الحبر، مهما خلص، قد يسيل مع الرماد.

الباب الخامس: في فم الثعبان

الفصل الأول: نزاع بين الشريعة والروح

حين أُغلقت أبواب المجلس في الدرعية، وظل محمد بن عبدالوهاب وحده مع أفكاره، لم يكن أمامه إلا أن يواجه نفسه، بمرآتها القاسية، تلك التي لا تزيّف ولا تجامل. لقد أصبح واضحًا أن مسار دعوته لم يعد يدور حول "الحق" و"البدعة"، بل بات يتقاطع بخيوطٍ حادّة مع مفهومٍ أقدم وأكثر تعقيدًا: السلطة.

صوت في داخله ظلّ يتكرر: "أنت تُقاتل لأجل الله؟ أم لأجل نفسك؟"

الجواب لم يكن سهلاً. خصوصًا وقد بدأت معالم مشروعه تأخذ شكلًا سياسيًا أكثر مما هي وعظية أو إصلاحية.

كان يجلس يوميًا في بيته في حي الطريف، بعد مجالسه الصباحية، يستقبل الوفود من القرى المحيطة. البعض يطلب الفتوى، والبعض الآخر يسأله عن شرعية قتال جيرانه، أو إخراج الناس من ديارهم بحجة الشرك. وكانت أجوبته تزداد حدة، كما لو أن الشك الذي داخله لم يكن يضعف موقفه، بل يدفعه نحو مزيد من الإصرار، كأنّه كلما راوده صوت الروح، رفع صوته بالشريعة.

في تلك الفترة بدأت الدرعية تتحوّل من مجرد بلدة صغيرة في وادي حنيفة إلى مركز سياسي روحي، ومقر مشروع متصاعد. وكان محمد بن سعود، زعيمها، يدرك أن هذا الرجل القادم من العيينة، ذو العمامة البيضاء والجبين الحاد، ليس مجرد واعظ، بل زعيم أفكار، يُشعل القرى كما تُشعل الكلمة نارًا في هشيم.

في إحدى الجلسات بين محمد بن عبدالوهاب وابن سعود، قال له الأخير: – "أراك يا شيخ محمد تتحدّث كأنك حاكم، لا كأنك فقيه."

ابتسم الشيخ وقال: – "الشرع حاكم يا محمد، وأنا خادمه."

لكنّ ابن سعود لم يكن غافلًا. كان يعرف أن هذا "الخادم" قد بدأ يصوغ الشرع على مقاس دعوته، ويوجه الناس بما يشبه الأوامر لا الفتاوى.

في رسائله إلى بعض تلاميذه، بدأ الشيخ يطلب ما هو أكثر من البلاغ والدعوة:

"ينبغي على من علم التوحيد أن يُجاهد لنشره، ولا يُقعدنّه قومٌ يعبدون الله على جهل، فالعقيدة لا تكتمل إلا بجهاد من يُخالفها."

لكن "الجهاد" هنا لم يكن عسكريًا خالصًا.

لقد بدأت النواة تتكوّن.

مشروع دولة تُبنى على دعوة تتوسّع باسم الدين وتُساق تحت رايةٍ مكتوب عليها "لا إله إلا الله"، ولكنها تخفي سيفًا في غمد السياسة.

كان بعض علماء نجد قد كتبوا إليه مستنكرين شدّة تكفيره، وسهولة تبديعه للعلماء والناس، فردّ عليهم في رسالة قال فيها:

"لا نُكفّر أحدًا إلا بعد إقامة الحجّة، ومن أصرّ على التبرّك بالقبور أو دعا غير الله من دون الله، فهو مشرك."

لكن مع الوقت، أصبح معيار "إقامة الحجّة" يُختصر بزيارة قصيرة أو جدال من طرفٍ واحد.

وأصبح المقياس: من لا يقبل دعوتنا، فهو معارض لله ورسوله.

كان هذا التوسّع في المفهوم هو ما جعل العديد من وجهاء القرى يخشون الشيخ أكثر مما يخشون سيف ابن سعود. فالسيف يُفهم، ويُساوَم عليه. أما التكفير... فلا نجاة منه.

في إحدى الليالي، دخل عليه تلميذه حسين بن غنام، وكان من أبرز من رافقه في رحلته الفكرية، وقال له: – "يا شيخ، لقد صارت كتبنا تُدرّس في القرى كأنها قرآن. وأصبح المريدون لا يسمعون لغيرنا."

ردّ الشيخ: – "أليس هذا نصرًا؟"

فقال ابن غنام: – "بل قد يكون فتنة."

ولم يردّ محمد. بل أمسك قلمه، ودوّن في دفتره:

"حين يُصبح النصر بابًا للغرور، فاعلم أن الله يبتليك."

ومع ذلك، لم يغيّر شيئًا من مساره.

كانت بلدة العيينة قد أُعيد ذكرها في ذهنه، تلك التي طُرد منها قديمًا بعدما خاف شيخها عثمان بن معمر من بطش الدولة العثمانية. الآن، صارت العيينة تُرسل وفودها إليه خاشعة، تطلب رضاه، وتعلن التوبة عن "شركها".

التحوّل لم يكن في القرى فقط، بل في قلب محمد نفسه.

بدأ يُراسل قبائل الشمال والشرق والجنوب، يدعوهم إلى "التوحيد"، لكنه يشترط عليهم السمع والطاعة، والتبرّؤ من الطرق الصوفية، وتدمير القباب والمزارات. وفي بعض الأحيان، كان يُرسل المقاتلين قبل الرسائل.

كتب عنه أحد أبناء الأحساء في مذكراته:

"إنه لا يدعو، بل يأمر. ولا يُبيّن، بل يُهدّد. وقد صارت البلاد تخاف من دعوته أكثر من أن تحبّها."

لكن محمد لم يكن يرى في ذلك ضلالًا. بل اعتبره "حزمًا في الأمر"، وكتب في إحدى خطبه:

"إن التوحيد لا يثبت في الأرض إلا إذا اقتُلِعَ الباطل من جذوره، ولا تُصلح العقيدة أنصافُ المواقف."

في تلك المرحلة، كان الشيخ ينام أربع ساعات في اليوم، يقضي النهار في الإفتاء والمجالس، والليل في المراسلات والتأليف. لكنّ وجهه صار حادًّا أكثر، كأنّ عينيه لم تعودا تبكيان شيئًا.

ورغم الازدياد في نفوذه، لم يكن يفرح إلا نادرًا. كأنّ في داخله ألمًا لا يعرف كيف يسمّيه. أهو ألم الضمير؟ أم ألم القيادة؟

في إحدى لحظات تأمله، كتب:

"لا أدري هل أُقيمُ دولةً أم أُقيمُ حجة؟ وهل يحسنُ بالفقيه أن يُغلق باب التوبة على الناس؟ أم أنّ الناس أغلقت باب الله قبل أن نطرقها؟"

ثم طوى الورقة، وقال: – "لن أنظر خلفي. فالخلف كان قبورًا، وأنا أُريد دارًا لا شرك فيها."

لكنه كان يعلم، في قرارة نفسه، أن قبرًا واحدًا قد يهدمه، كفيل بإشعال قبائل كاملة.

وأن الدين، حين يُمسك به رجل يبحث عن يقين مطلق، قد يتحوّل إلى مطرقة لا عصا.

وهكذا، لم يكن الشيخ رجل دين فقط.

بل كان رجل مشروع، يرى في القرآن خارطة سياسية، وفي السنة مرآة لقيام الدولة، لا فقط لضبط أخلاق الفرد.

وكان يوقن أن الصراع الحقيقي، لم يكن بينه وبين المخالفين، بل بينه وبين تردده.

وحين انتصر على تردده، لم يعد هناك سلاح إلا استُخدم.

ولا نصّ إلا أُوِّل.

ولا خصم إلا وُصف بأنه "عدو التوحيد".

<u>وفي تلك اللحظة، دخل إلى "فم الثعبان".</u>

<u>فلا هو عاد مصلحًا، ولا أصبح سلطانًا.</u>

بل صار شيئًا بين الاثنين، لا يعرف كيف يعود، ولا يملك إلا أن يتقدّم... ولو على جمر.

الباب الخامس: في فم الثعبان

الفصل الثاني: الدم الذي يسيل من الكتب

لم يكن محمد بن عبدالوهاب قد أكمل عقده الرابع حين بدأ يشعر أن الأفكار التي خطّها في دفاتره بدأت تنفلت من محبرته. كانت الكلمات التي دوّنها على وجل في الليالي الطويلة، والمفاهيم التي صاغها في حلقات النقاش، قد نزلت إلى الأرض. لكن لا كما أراد لها أن تكون. بل كما أراد لها أن تُستخدم.

صوت الكتب صار أعلى من صوت البشر. لكن رائحة الدم كانت أقوى من رائحة الحبر.

بعد أن تصاعد الخلاف مع بعض شيوخ نجد ومكة والمدينة، بدأت الأخبار تتسرّب إلى مجالس العلماء. الاتهامات تتطاير: هذا يُكفّر الأشاعرة، وذاك يُقصي الصوفية، وآخر يحرّض العامة على كسر القبور وهدم الأضرحة. وسرعان ما تحوّلت الحلقات الفقهية إلى جبهات مشتعلة، كل طرف يتسلّح بما يملك من نصوص، ومن خلف النصوص تتوارى النفوس، بعضها مضطرب، وبعضها جائع للسلطة.

ومع كل هذا، كان محمد بن عبدالوهاب قد بدأ يُعيد كتابة نفسه على صورة جديدة: صورة "المنقذ".

لم يكن مجرد رجل دين يبحث عن إصلاح في العقيدة، بل رجل أدرك أن الإصلاح دون سلطة... مجرد أمنية.

<u>في مجلس ضمّ بعض تلامذته المقرّبين، سألهم:</u>

"هل رأيتم يومًا كتابًا يُهزم جيشًا؟"

أجابه أحدهم باستغراب: – "العلم أقوى من السيف، يا شيخ."

فقال محمد وهو يضم كفيه كمن يقبض على شيء غير مرئي:

"ليس بعد اليوم. من أراد للعلم أن ينتصر، فعليه أن يحمل السيف أيضًا."

هكذا خرجت دعوته من رحم المجادلات الفكرية إلى ميدان السياسة، ثم إلى رحى الحرب.

في ذلك الوقت، كانت كتب العقيدة تُنسخ وتوزّع على القبائل كما تُوزّع المناشير الثورية.

أرسل محمد رسائل إلى رؤساء العشائر في نجد والقصيم والأحساء، يقول فيها:

"من أطاعنا فهو أخونا، ومن خالفنا فقد استحق السيف."

كان الخطاب واضحًا، لا لبس فيه: "العقيدة أولاً، والطاعة شرط، ومن خالف فهو مشرك."

لم يكن ثمة مكان للوسط. لا في الدين، ولا في الولاء.

في تلك الأيام، بدأت الحوادث تتكاثر.

في بلدة "المجمعة"، اقتحم بعض أتباعه مسجدًا قديمًا فيه ضريح لأحد الأولياء المحليين. هدموا القبر، وكتبوا على جدران المسجد: "من تعظّم القبور فقد عبد غير الله".

وفي "حريملاء"، وُثّق مشهد مؤلم لشيخ طاعن في السن يُطرد من حلقته لأنه رفض القول بتكفير زائر القبور.

قال لهم: – "لقد علّمني مشايخي أن نُحسن الظن بالناس، وأن الجهل لا يُكفّر، وأن الرحمة مقدمة على العقوبة."

فقال له أحدهم: – "مشايخك كانوا أهل بدعة. أمّا نحن، فمشايخنا كتاب التوحيد وحده.

بدأ محمد يشعر أن ما خطّه في الكتب صار يُستخدم سلاحًا، لا مرجعًا.

وفي إحدى ليالي الدرعية، بينما كانت أصوات الجدل تملأ الدار من الداخل، سمع في الخارج صياحًا.

خرج، فوجد غلامًا مراهقًا يُعنّف رجلًا سبعينيًا، ويصرخ في وجهه:

– "قل إن زيارة القبور بدعة! قل إن أمك ماتت على الشرك!"

تجمهر الناس، والشيخ الكبير يهمس باكيًا: – "لكنها كانت تصلي وتصوم وتدعو الله ليلًا ونهارًا..."

فصرخ الغلام: – "وهل دعاها محمد أن تزور قبرًا؟"

اقترب محمد، ونظر في وجه الغلام.

كان يرى فيه صورته القديمة، لكنه مشوّهة.

رأى في عينيه الحماسة ذاتها، والجهل ذاته، لكنه ممزوج الآن بالبطش.

عاد إلى غرفته، وفتح أحد دفاتره.

كتب فيه:

"الدم يسيل من الكتب إذا قرأها الأحمق بعين الحقد، لا بعين الفقه.

إذا استُخدم العلم لتبرير الانتقام، صار السيف آية، وصار القبر جبهة، وصار الإنسان حطبًا."

لكن الطريق إلى الوراء لم يعد متاحًا.

في ذات الفترة، بدأ محمد بن سعود، زعيم الدرعية، يلتفت لدعوة محمد بن عبدالوهاب كفرصة لا كقناعة.

قال لأحد خاصته: – "إنه يحرّك الناس كما يُحرّك الراعي غنمه، فلم لا نكون نحن السور الذي يحيط بالحظيرة؟"

تلاقت الرغبتان:

– عبدالوهاب يريد نشر دعوته، لا سيما بالقوة.

– وابن سعود يريد توسيع سلطته، ولو بالدين.

اتفقا أن يكون لمحمد بن عبدالوهاب "الفتوى"، ولابن سعود "الراية".

وهكذا تم تدشين عهد جديد، كان ظاهرُه توحيدًا، وباطنُه توسّعًا.

وفي أحد دروسه بعد هذا الاتفاق، قال محمد بن عبدالوهاب لتلاميذه:

"اعلموا أن الله لا يقبل إلا دينًا خالصًا، والدين الخالص لا يقوم في أرض يكثر فيها القبور، ولا يقام في بلاد يعمّ فيها الجهل. فمن لم يطهّر الأرض من الشرك، فلا يدخلنّ الجنة، وإن صلّى وصام."

كانت كلماته أكثر قسوة من ذي قبل.

وكان التلاميذ أكثر حماسة، والناس أكثر خوفًا.

في نهاية ذلك الأسبوع، وقعت حادثة في "الزلفي"، حين اجتمع بعض أتباعه على شيخ قال: – "أمي كانت تتبرك ببعض آثار النبي، فهل في ذلك حرج؟"

فما كان من أحدهم إلا أن قال: – "أمك مشركة."

ثم أُخرج من المسجد بالقوة.

وصل الخبر إلى محمد بن عبدالوهاب، فصمت طويلًا.

سأله أحدهم: – "هل توافق على ما حدث؟"

فقال: – "لو سكتنا على الشرك من أجل مشاعر الناس، لمات الإسلام."

ثم أضاف:

"إن ديننا لا يقبل التجميل... إما أن يُؤخذ كله، أو يُترك."

لكن في تلك الليلة، وهو وحده أمام محبرته، كتب:

"لقد أصبح الحبر دمًا، وأصبح القبر جريمة، وأصبح الحزن نفسه بدعة...

فمتى يعود الإنسان إنسانًا؟ ومتى تصير الدعوة حبًا، لا رعبًا؟

لقد تحولتُ من رجل يقرأ كتب الفقه، إلى رجل تكتب كتبه جرائم لم أقصدها."

ومع اقتراب الفجر، وهو يسمع صوت المؤذن من بعيد، أغلق دفتره، وقال:

"اللهم لا تجعلني سببًا في إراقة دمٍ باسمك."

لكنه كان يعلم، في قرارة نفسه، أن الدم لم يعد يطلب إذنًا.

بل يسبق الدعوة، ويصير فتوى... ثم سلاحًا.

الباب الخامس: في فم الثعبان

الفصل الثالث: وسوسات الفقهاء

لم يكن محمد بن عبدالوهاب ليخطو خطواته في الفراغ. كانت الأرض من تحته محروثةٌ بمئات السنين من التأويلات، والتشريعات، والاجتهادات التي نسجها فقهاء ومفسرون ومحدّثون، كلٌّ منهم نصب لنفسه محرابًا من الورق، وجعل من مداد القلم شريعةً لا يُردّ عليها رأيٌ أو مراجعة.

حين جلس ذات صباحٍ على أطراف وادي حنيفة، بعيدًا عن أعين المريدين، وبين يديه أحد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، كانت النسائم تأتي من جهة الشمال، رطبة وباردة على غير عادة الصحراء. امتدت أمامه صفحات التاريخ العقائدي الذي لطالما رآه مثقلًا بالخوف من الناس، لا الخوف من الله. كل سطر في الكتاب كان يشعل في داخله رغبةً في إعادة التأسيس، لا على نصٍ ثابت، بل على ما يراه هو "حقًا صرفًا".

ومع كل صفحة، تزداد قناعته أن الفقهاء – أو ما يسمّيهم بينه وبين نفسه بـ"الفقهاء الموظّفين" – قد أسّسوا دينًا موازيًا لدين الله. دينًا لا يعترف إلا بالسلاسل، لا في السند، بل في الطاعة. سلسلة طويلة من المشايخ يُقاس بها الحق لا بالدليل، بل بالهيبة.

<u>في إحدى الرسائل التي تلقّاها من المدينة، كتب له أحد طلابه القدماء، وقد انضم إلى أحد الطرق الصوفية:</u>

"شيخي، إنني أراك اليوم تكثر من الضرب، لا التعليم، وتطارد الزلل لا تزكية النفس، فهل هذا ما خرجنا به من طلب العلم؟ هل صرنا فقهاء رقابة، لا فقهاء رحمة؟"

قرأ الرسالة، ثم طواها دون أن يجيب. لكنه كتب في دفاتره:

"إنهم لا يفهمون أنني أحارب الزمن لا الناس، وأنني في حربٍ دينية لم أختَرها بل فُرضت علي، لأنني حين رأيتُ الناس يطوفون حول قبور الأولياء، ويقضون الليل في تمائمٍ وذِكرٍ لا يُعرف له أصلٌ في الشرع، عرفت أن الفقهاء خانوا، أو صمتوا. وكلاهما جريمة."

ومع ذلك، لم يكن مرتاحًا. كان ثمة صراع خفي بينه وبين جماعة من العلماء في نجد والأحساء والحجاز، الذين بدأوا يشنّون عليه حربًا من تحت الطاولة. يلمّحون في خطبهم أنه مبتدعٌ في التفسير، ويقولون في مجالسهم إن فتواه أقرب إلى فقه الخوارج منها إلى فقه أهل السنة.

كان أحدهم – شيخ من الحنابلة في الرياض – قد قال علنًا:

"إن محمد بن عبدالوهاب يرى أنه وحده على الحق، وأن كل مخالفٍ له مشرك، وهذا من الغلوّ الذي لم يعرفه سلفنا الصالح."

ردّ عليه محمد في رسالة قصيرة، لكنّه دوّن في هوامشها عشرات التعليقات النارية:

"من رضي بالقبور أن تُعبد، فقد عبدها قلبه، وإن أنكرها بلسانه. فكيف تُنكر عليَّ أنني أفضح الشرك، وأنت تجامله بحجة درء الفتنة؟!"

كان يزداد يقينًا أن هؤلاء الفقهاء لا يُنكرون المنكر، بل يصنعون له غلافًا من فقه الواقع والمصلحة والتدرج، حتى يصبح المنكر عادة، ثم عرفًا، ثم طاعة. وداخل هذا الصراع، بدأ يسأل نفسه: هل يمكن أن يكون علماؤنا أكثر خطرًا من الجهلة؟ وهل يكون المدافع عن الشرك – بعذر الجهل – أخطر ممن يقع فيه؟

في أحد مجالسه المغلقة، وبين مجموعة من المقربين، صرخ في لحظة انفعال:

"لو أنّ عمر بن الخطاب بيننا، لجلدهم! هؤلاء الذين يجعلون الدين طريقًا إلى الرياء! هؤلاء الذين يرون السُّنة في عباءة شيخ، لا في الدليل الصريح!"

كان يعرف أن كلامه سيُنْقل، وسيُحرف، لكنه لم يكن يبالي. لقد بلغ به الغضب على المؤسسة الدينية ما لم يبلغه حتى الغضب على الممارسات الشعبية الخرافية. لم يكن يرى نفسه فقط مجددًا، بل مخلّصًا مما أسماه "الاستبداد الفقهي".

ولأنّ الدعوة لا تكتمل بلا أدوات، فقد قرّر أن يُدون سلسلة رسائل سماها: "كشف الشبهات"، وجعل هدفها أن تكون معولًا يهدم تبريرات الفقهاء الذين يرون في بعض مظاهر الشرك نوعًا من الجهل المغفور. كتب في مقدمتها:

"اعلم – رحمك الله – أن الله لم يبعث نبيًا إلا بدأ بدعوة قومه إلى التوحيد، لا إلى السلوك، ولا إلى السياسة، ولا إلى العلم، فالتوحيد هو البداية والنهاية. ومن جادلك في التوحيد، فاعلم أن الشبهة في قلبه لا في عقله."

وفي هذه الرسالة، بدأ يُقسّم الناس ليس فقط إلى موحّد ومشرك، بل إلى:

المموّه الذي يُلبّس على الناس

المتردّد الذي يخشى الصدع بالحق

الفقيه الذي يشتري برأيه عافية السلطة

وتدريجيًا، صارت رسائله تُقرأ كفتاوى، وفتاواه تُقرأ كأوامر. وكان في كل هذا يرى نفسه مؤتمنًا لا متسلّطًا، لكنه لم ينتبه – أو تجاهل – أن صوته صار أعلى من النصوص ذاتها.

وفي إحدى الليالي، حين كان يراجع بعض الهوامش في كتابه عن التوحيد، دخل عليه أحد مريديه، وهمس له:

"شيخنا، أحد الفقهاء في الأحساء افتى بأنكم خوارج العصر..."

سكت محمد، ثم تمتم:

"بل هو من مرجئة العصر."

ثم كتب في دفتره:

"إذا اتُّهِم المصلح بأنه خارجي، فاعلم أن الفقه صار سكينًا في يد الطغاة."

وبينما يغلي صدره بالكلمات، ويكاد القلم يتكسّر بين أصابعه، كان يهمس لنفسه:

"لن أُجامل من لبس العمامة ليخدع الناس. هؤلاء هم الثعبان الذي في جوف الأمة... وها أنا قد فتحت فمي."

ولم يدرك أنه بذلك أدخل رأسه في فم الثعبان... الذي يُلدغ من الداخل.

في هذه الليلة، لم يكتب في دفاتره فقط، بل كتب على جدران نفسه أن لا رجعة عن الحرب. حرب ليست فقط على الشرك الشعبي، بل على فقهاء السلطة.

وفي قلب الصحراء، كان محمد بن عبدالوهاب يرسم خارطة جديدة: عقيدة تُنقّى بالنار، وسلطة تُبنى باسم الله، وعدوٌّ يُسمى: الفقيه الذي يبرر كل شيء.

الباب الخامس: في فم الثعبان

الفصل الرابع: الحجاز: الأرض التي تكره الازدواج

كانت الحجاز دومًا أكثر من بقعة جغرافية؛ كانت مسرحًا تتصارع فيه المفاهيم قبل أن تتصارع الجيوش. مكة والمدينة، بقداستهما، لم تكونا فقط قبلة الحجيج، بل قبلة الفكر الإسلامي المتنوّع، حيث اجتمعت الفرق، واحتكت المذاهب، وتصارعت الرؤى في أسواق العلم قبل منابر السياسة. وكان على محمد بن عبدالوهاب، وقد اشتدت شوكته، أن يواجه هذا الامتحان.

في بداية أمره، حين كان لا يزال عابرًا متجولًا في نجد والاحساء، كان يسمع عن الحجاز كما يسمع المتدين عن فتنة، يخشاها لكنه لا يستطيع تجاهلها. هناك، في الحجاز، يتمترس أئمة المذاهب الأربعة، وتُقام حلقات الذكر الصوفية في الحرم، ويُزار قبر النبي، وتُستنزل البركات على أعتاب الأولياء. إنه المشهد ذاته الذي خطَّه عبدالوهاب في ذهنه كقائمة طويلة من البدع والانحرافات.

وصلت أخبار دعوته إلى الحجاز متأخرة، ولكنها كانت جارحة. لم يكن أهل الحجاز يصدقون أن هناك رجلًا يحرِّم التبرك بالقبر النبوي، أو يطعن في نوايا المتصوفة، أو يتهكم على أهل الكلام. وحتى عندما لم يكن يعلن تكفيرًا مباشرًا، فإن عباراته المبطنة كانت كافية لتشعل النار في الحلقات العلمية. كان بعض فقهاء الحجاز يصفونه بـ"الناشز عن المذاهب"، وآخرون يرونه "خارجًا عن السلف لا تابعًا لهم".

لكن محمد بن عبدالوهاب لم يخفْ. كانت تلك الحدة التي تصاحبه كظله تدفعه إلى المواجهة لا الانسحاب. كتب في أحد رسائله السرية إلى ابن سعود:

"إن أرض الحجاز، وإن عظُمت منزلتها، فقد عظمت فيها البدعة. والبدعة في أرضٍ مقدسة أدهى وأمرّ، لأنها تلبس ثوب الورع، فتُفتن بها العقول."

لم يكن هدفه حينها فقط الإصلاح العقائدي. لقد بات واضحًا في تلك المرحلة من حياته أن محمد بن عبدالوهاب يرى في الحجاز مركزًا رمزيًا، والسيطرة عليه تعني تكريس شرعيته لا في نجد وحدها، بل في الأمة كلّها. من هنا، بدأ حلفه السياسي مع محمد بن سعود يتخذ طابعًا توسعيًا دينيًا. كانت الفتوى تمهّد الطريق للسيف، وكان السيف يحرس العقيدة.

في أحد أيام الصيف من العام ١٧٤٥، جلس في مجلس ضمّ بعض رجالات الدرعية، وكان يتحدث عن واجب نشر الدعوة خارج نجد، فتطرق أحدهم إلى الحجاز فقال:

"لكنهم أهل علم، وهم شافعية وحنابلة ومالكية، لا يسهل مقارعتهم."

<u>رد عبدالوهاب:</u>

"بل هم أسرى لمذاهبهم، لا يرون النص إلا من خلال عيون بشر قد ماتوا. سنعيدهم إلى التوحيد لا إلى الفقه."

<u>ثم صمت لحظة، وأكمل:</u>

"وليس الدين أن نحني رؤوسنا لرأي فلان وعلان، إنما الدين ما قاله الله وقاله رسوله."

كان من الواضح أن محمد بن عبدالوهاب قد انتقل من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم. أراد للحجاز أن يخضع لا لحججه فقط، بل لنفوذ آل سعود. كان

يرى أن الازدواج في الحجاز، بين العلم المذهبي والعقيدة العرفانية، وبين الفقهاء والصوفية، يفسد وحدة الدين. لكن هل كان يقصد وحدة الدين، أم مركزية السلطة؟

لم يكن أحد يجرؤ على سؤاله هذا السؤال.

<u>حين بدأ أول توغّل عسكري نحو أطراف الحجاز، كتب الشيخ رسالة شهيرة إلى أتباعه جاء فيها:</u>

"إن التوحيد لا يستوي مع التعدد، ولا يستقيم مع مَن يجعل من البشر وسائط بينه وبين الله. فإذا كنتم أهل دعوة، فافتحوا القلوب بالحجة، وإن كنتم أهل نصرة، فافتحوا الأبواب بالسيف."

وكانت هذه اللغة المزدوجة ذاتها هي ما جعل خصومه يرونه قائدًا سياسيًا متنكرًا بلباس الدين. أحد علماء مكة كتب حينها:

"إن الرجل لم يأت بجديد في التوحيد، وإنما جاء بجديد في استعمال التوحيد سلاحًا لطلب الحكم."

لم تكن رحلة محمد بن عبدالوهاب إلى الحجاز مجرد بعثة تبشيرية، بل كانت حملة تعبوية تمهّد لتوسعة سياسية. وكان يدرك تمامًا أن السيطرة على مكة والمدينة ستجعل منه المرجعية الأولى، لا في الفقه فقط، بل في السياسة. وكلما كتب في كتبه عن الشرك والبدع، كان يربطها بأماكن بعينها في الحجاز، كأنه يهيّئ الأتباع نفسيًا ليوم المواجهة.

وكان التحدي الأكبر أمامه ليس الناس البسطاء، بل العلماء الذين كانوا يرون في منهجه تبسيطًا مخلًا، وتجهيلاً متعمدًا للتراث. كتب أحد شيوخ المدينة:

"إن الرجل يخلط بين الكفر والمعصية، وبين الجهل والزندقة، وبين المخالفة والردة، وهذا خلطٌ لا يقوله فقيه ولا يرضاه ورِع."

لكن عبدالوهاب، كما اعتاد، لم يتراجع. كتب في حاشية أحد كتبه:

"إن من ترك السنة لأجل فلان وعلان، فقد عبد هواه، وإن من خاف من الفتنة فسكت، فقد جعل لله شريكًا في البلاغ."

وكان واضحًا أن حماسته بدأت تتجاوز النصوص نفسها. أصبح أكثر يقينًا بأن ما يفعله ليس اجتهادًا، بل هو واجب إلهي. ومع كل خطوة نحو الحجاز، كان يتضاءل صوت التردد في داخله، ويعلو صوت اليقين، أو ما يشبهه.

وهكذا، تحولت أرض الحجاز، في عينه، من دارٍ للعلم والقداسة، إلى معقلٍ للبدعة يجب "تطهيره"، على حدّ تعبيره. ولم يكن يدرك، أو لعله تجاهل، أن الازدواج الذي كان يكرهه، كان هو نفسه يقع فيه، إذ كان يدعو إلى نقاء العقيدة، بينما يُخفي تحتها رغبة مضمرة في السيطرة.

وبين الدعوة والتوسعة، بين المحبرة والسيف، لم يبق من الحجاز إلا مرآة كبيرة... كلما اقترب منها محمد بن عبدالوهاب، رأى فيها وجهًا يشبهه، لكنه ليس وجه الداعية فقط، بل وجه الحاكم القادم.

وكانت الأرض، كما قال أحد خصومه، "تكره الازدواج... لكنها تكره الاستفراد أكثر."

وهذا ما لم يفهمه محمد بن عبدالوهاب.

الباب الخامس: في فم الثعبان

الفصل الخامس: السجال الأول مع المريدين

حين بدأ محمد بن عبدالوهاب يرى شبح الدولة يقترب من ظلال دعوته، كان يدرك أن خطابه لم يعد مجرد صيحات إصلاحية، بل خارطة قتال. لم يكن وحده في تلك الليلة التي سبقت أول سجال علني بينه وبين بعض مريديه في مسجد الدرعية. كان بصحبته قلمه، ومحابر كثيرة نفدت منها الطمأنينة.

المريدون الذين لطالما هتفوا له في مجالسه، ودوّنوا كلماته كما تُدون الوصايا، بدأ بعضهم يرتاب. لم يكن السبب في العقيدة وحدها، بل في الوجه الجديد الذي بدأت الدعوة تتخذه: وجه الحكم والحدود، والدماء التي تراق باسم التوحيد.

في المسجد الصغير الذي احتشد فيه العشرات، تقدّم شاب يُدعى عيسى بن عثمان، أحد أول تلاميذ الشيخ، وقد قرأ عليه كتاب التوحيد أكثر من مرة. قال بصوت خافت ولكنه ثابت:

«يا شيخ، ألسنا متفقين أن لا إكراه في الدين؟ فلماذا أصبح من يختلف معنا في الرأي يُعاقب؟»

أجابه محمد بن عبدالوهاب وهو يطالع الجالسين بعين نصفها واثق ونصفها قلق:

«ليس في الأمر إكراه، بل تصحيح للمفاهيم، وحماية للناس من الشرك.»

لكن عيسى لم يصمت:

«يا شيخ، هل كل من توسل، أو طلب الشفاعة، أو زار قبرًا، هو مشرك؟ أليس بين الجهل والردة مسافات؟»

هنا، تعالت همهمات في المجلس، وانقسم الحضور إلى من صُدم، ومن بدأ يُعيد حساباته.

محمد بن عبدالوهاب رد بنبرة صارمة:

«من عبد الله بغير ما شرع فقد أشرك، والحق لا يُقاس بالعواطف، بل بالدليل.»

عندها قام أحد كبار الموالين واسمه عبدالمحسن الحربي، وقال:

«سيدي الشيخ، نحن نبايعك على هذا، لكن ألم يقل ابن تيمية إن العذر بالجهل يُقبل في بعض الأحوال؟»

هنا توقف محمد، وشعر أن السجال لم يعد سؤالًا عن فتوى، بل عن الوجهة الكبرى للدعوة.

قال ببطء:

«ابن تيمية قال، وابن القيم قال، ولكنهم لم يعيشوا انحرافات عصرنا. لقد رأينا بعيننا كيف يُعبد القبور، وكيف تُصرف الأدعية لغير الله، والمجتمع يصفق. هل نسكت؟»

تقدّم شاب آخر، وكان من أهل العيينة، وقال:

«لكنكم يا شيخ، في كل مرة تختلفون مع فقيه، تقولون إنه مبتدع، وإن صوفيًا يُخشى على إيمانه، وتُقصون من لم يُجاهر معكم. ألم تتحوّل الدعوة إلى سيف؟»

في هذه اللحظة، ساد صمت ثقيل. الشيخ أمسك لحظات بلحيته، ثم قال:

«والله ما أردت بها إلا وجه الله. ولكن إن سكتنا، عمّ الفساد. والدولة لا تُبنى إلا بالتوحيد.»

ثم رفع صوته وقال:

«من منكم يرضى أن يعيش في بلد يُدعى فيه لغير الله؟ أو يُستغاث فيه بغيره؟ أو تُقدس فيه القبور أكثر من المساجد؟»

ردّ أحد العقلاء بهدوء:

«نرضى يا شيخ أن يُنكر المنكر، ولكن نخشى أن يتحول الإنكار إلى قمع، والدعوة إلى استبداد.»

ابتسم محمد بن عبدالوهاب ابتسامة باهتة، وقال:

«أنتم أبنائي في الدعوة، وأعلم حرصكم. ولكن النار لا تطفأ بالندى.»

بعد تلك الليلة، تغيّر شيء في الوجوه.

خرج بعض المريدين من دائرته، وصاروا يتحدثون همسًا عن التحوّل الذي أصاب الدعوة. قال بعضهم إنه لم يعد شيخًا، بل أميرًا بثوب شيخ. وقال آخرون إن الصدق لا يُقاس بالنية فقط، بل بالنتائج.

وبينما كان محمد يراجع في اليوم التالي فتاوى كتبها بيده عن هدم القباب، وتحريم الاستغاثة، وتكفير العوام، خطر له سؤال لم يجرؤ أن يكتبه:

«هل سأحاسب على نية الإصلاح، أم على كل دمٍ سال؟»

<u>ورأى في نفسه انعكاس ما كتبه قبل سنين:</u>

«التوحيد سيف، فإن لم يُشهر على الباطل، أكل الباطلُ كل شيء.»

لكن هل شُهر السيف فعلًا على الباطل، أم صار حادًا على الرقاب الرخوة، وساكنًا في حضرة الأقوياء؟

وفي مساء ذلك اليوم، حين دخل مجلس الأمير محمد بن سعود، لم يكن رجل دين فقط، بل قائد مشروع... تتقاطع فيه العقيدة مع السياسة، والإيمان مع القوة، والحبر مع الدم.

الباب السادس: شهوة التصحيح القاتل

الفصل الأول: سكيـن العقيـدة

لم تكن السنوات الأولى من تحالف محمد بن عبدالوهاب مع آل سعود سوى بداية لانحدار طويل في منحدرٍ شديد الانحدار، حيث امتزجت النصوص الدينية بالسيوف، والعقيدة بالدولة، والتوحيد بالدم.

في تلك المرحلة التي تبعت إعلان درعية الدعوة رسميًا، بدأت ملامح رجل جديد تتشكّل في وجه الشيخ. لم يعد ذلك الفقيه الغاضب الباحث عن نقاء العقيدة فحسب، بل رجلٌ يُصغي للأرض وهي تميد تحت قدميه، ويستشعر نشوة من يملك الكلمة التي تصدر الأوامر وتُحرّك الرجال وتُبقي النساء خلف الجدران.

كل ذلك، وكان أبناؤه من حوله، يراقبونه عن قرب.

كان عبد الله، أكبر أبنائه، يحفظ مؤلفات والده عن ظهر قلب، يُعجب بها، لكنه يتردّد أحيانًا في قلبه حين يرى كيف تُستعمل.

وكان حسين، أكثرهم تهوّرًا، يحمل سيفًا أكثر مما يحمل محبرة، يرى في دعوة والده سلطة يجب حمايتها بأي ثمن.

أما إبراهيم، فكان متديّنًا هادئًا، شديد الولاء لوالده، لكنه أقلهم اقتناعًا بالعنف.

وكانت زوجته – امرأة من آل مشرف – قد أصبحت نادرة الظهور، بعد أن ضاق عليها البيت بالزوار والفتاوى والنقاشات التي لا تهدأ.

وأخوه سليمان، ذلك الفقيه الذي خالفه لاحقًا، كان في تلك السنوات لا يزال مترددًا، يميل مرة نحو النصوص، وأخرى نحو السكون.

الشيخ لم يكن يرى في بيته عائلة بقدر ما رآه مَدرسة. كل منهم كان تلميذًا، أو جنديًا، أو مشروع قاضٍ في دولته الوليدة.

لكن خلف الأبواب، لم تكن الحياة كما تبدو في خطبه.

في أحد أيام صيف ١٧٤٧، بينما كانت الدرعية تتقلّب بين الجفاف ونذر الغارات، كان محمد بن عبدالوهاب جالسًا في مجلسه، يكتب بخطّ واضح: «باب في وجوب هدم القباب المبنية على القبور».

دخل عليه أحد خواصه من التلاميذ، يحمل رسالة من أحد شيوخ الإحساء، فيها نقد لاذع لما سمّاه «التسرّع في التكفير، ونزع القدسية عن رموز الأمة».

قرأها الشيخ، ثم وضعها جانبًا، وقال لتلميذه: – «أكثر ما أخافه على هذه الأمة: الشرك في صور المحبة».

ثم نظر في عينيه مباشرة، وأضاف: – «إن لم نقطع هذا الداء من جذوره، سيعود علينا بلونٍ جديد، قد يلبس التشيّع أو التصوّف أو حتى الزهد، لكنه يبقى شركًا».

هزّ التلميذ رأسه، لكنه لاحظ ارتعاشة خفيفة في يد الشيخ. كان ذلك المرض الخفي، الذي بدأ يزحف على أعصابه، وإن لم يعترف به.

في نفس الليلة، استدعاه محمد بن سعود، الذي بدأ يُظهر بوضوح حاجته إلى دعم أكبر من رجال القبائل المترددة، فأراد من الشيخ إصدار فتوى تُكفّر كل من لم ينضم إلى سلطته، مستندًا إلى «البيعة الشرعية».

هنا، وقف الشيخ طويلًا عند حدود خطيرة.

فبين الدين والدولة كان هناك جدارٌ رقيق، قد يُهدم بفتوى واحدة. لكنه كتبها.

<u>في فتوى قصيرة، قال فيها:</u>

«من دعا إلى طاعة غير الإمام الشرعي، فهو باغٍ، ويُقاتل حتى يعود».

ولم يُسمِّ الإمام، لكنه أرسلها مع رجال ابن سعود.

في البيت، كانت زوجته تقرأ كتابًا في العتمة، تهمس بدعاءٍ طويل، يتقاطع فيه اسم الله واسم زوجها. كانت تعرف أن محمدًا صار رجلًا آخر. تراه في المجلس يحكم، ويُقسّم، ويُدير الرجال كما لو كان نبيًا، لا شيخًا.

وفي إحدى الليالي، سألته: – «ألا تخشى أن تختلط عند الناس دعوتك بالله نفسه؟»

فردّ دون أن يلتفت: – «إنما نخاف أن يختلط عندهم الشرك بالطاعة».

فقالت: – «لكن الناس يخافونك، لا الله.»

صمت.

وفي الصباح، طلب من أحد أبنائه ألا تجلس أمهم كثيرًا مع الخادمات. «الكلام الذي يُقال يُنقل».

كان يشعر أنه مُحاصر من جهتين: من أعداء الخارج، ومن الداخل الذي لا يفهم حماسته.

ثم جاءت حادثة القصيم.

أرسل أحد تلاميذه إلى هناك لينشر الدعوة، فقابله أحد القضاة المحليين بردّ عنيف، ورفض علني لفتاويه.

<u>جاء الرد من الشيخ سريعًا:</u>

«من لم يُنكر الشرك، فقد رضيه. ومن رضي الكفر فقد كفر».

فوقعت أول معركة دموية هناك. قُتل العشرات. قيل إنها معركة توحيد، وقيل إنها أول فتنة داخلية باسم الدين.

<u>وبينما كانت الرسائل تنهال عليه تأييدًا أو رفضًا، كتب في دفتره:</u>

«إن الشرك أوسع مما يتصور الناس. وربما يدخل الرجل فيه دون أن يدري».

ثم أضاف هامشًا:

«ولا يُشترط إقامة الحجة على كل فردٍ فرد، إذا عمّت البلوى، وصار المعروف منكرًا والمنكر معروفًا».

كانت تلك الجملة قنبلة موقوتة، ستنفجر لاحقًا في كل عقل متشدد.

في زاوية البيت، كان عبد الله يُعيد نسخ كتب والده بخط جميل.

همس مرةً لأخيه: – «هل تظن أن كل هذا الحق؟»

فقال حسين: – «من قال إن الحقّ لا يكون في السيف؟»

ضحك عبد الله وقال: – «لكن أبي لا يحمل السيف، فقط القلم».

فردّ حسين: – «لكنه يُشير بالسيف حين يكتب».

وكانت تلك العبارة تلخّص كل شيء.

في نهاية ذلك العام، أعلن الشيخ أن كل من لا يُجدد بيعته للدعوة، فهو في حكم الجاهلي.

كتبها في منشور، وعلّقه على أبواب المساجد.

ثم جلس في عزلته، ينظر إلى يده التي تكتب.

كانت ترتجف.

تذكّر قول والده عبدالوهاب قديمًا: – «إن أعظم سكين تُغمد في الدين... هي سكين المغرور بعلمه.»

لكنه أطفأ المصباح، وقال في نفسه: – «بل المغرور هو من رأى الباطل وسكت.»

ثم نام، وفي الحلم... رأى نفسه واقفًا على جبل، تحته نار، وفوقه سماء، والناس بينهما. وكان هو يصرخ: – «إني أُنقذكم!»

لكنهم كانوا يهربون منه، لا إلى الله.

الباب السادس: شهوة التصحيح القاتل

الفصل الثاني: الدين أم أنا؟

حين أغلق محمد بن عبدالوهاب دفتراً من دفاتر الشك، لم تكن النار قد خمدت. بل لعلها ازداد اشتعالها، نار لا تُرى في العين، لكنها تتآكل في الجوف. تلك الليلة، غفا متعبًا على الأرض الطينية لغرفته، شبح القلم في يده، وعباءة ملقاة فوق كتفيه كأنها أثقل من كل ما كتب. لكن النوم لم يدم. كان ضجيج الأسئلة في رأسه أعتى من صمت الليل.

قام في الفجر وقلبه متخم بصوتٍ واحدٍ يتكرر: "هل أقاتل من أجل الله، أم من أجل نفسي؟ هل دعوتي هذه دين... أم رغبة في أن أكون فوق الجميع؟"

منذ أن كان صغيرًا في العيينة، كان مختلفًا. أخوه سليمان، الفقيه الحنبلي، كان أكثر اعتدالًا، أقل توترًا في حسم القضايا. لطالما دار بينهما جدل حول التكفير، حول التدرج في الإنكار، حول فقه المقاصد. لكن محمد كان يميل دائمًا إلى الحسم، إلى الحدود الواضحة. كان يقول: "الدين لا يحتمل الميوعة. الوحي حاسم، فلماذا نغرقه في التأويل؟"

في شبابه، قرأ كتب ابن تيمية حتى حفظها عن ظهر قلب، وانبهر بصلابته، بجرأته في مواجهة السلطة، ولكن أيضًا بقدرته على أن يجعل من العلم سلطة. لاحقًا، كان يشعر أن تلك القدرة قد انتقلت إليه. ومع كل فتوى يصدرها، ومع كل تلميذ يكتب عنه، كان يشعر أنه يكبر. يكبر على العلماء، على الفقهاء، على القضاة. يكبر حتى على الملوك. وكان يسأل نفسه: "هل أنا صاحب فكر... أم مشروع دولة؟"

بدأ في تلك الفترة ينظر إلى من حوله نظرة المراقب، لا المشارك. حتى أهله تغيّروا في عينه. زوجته فاطمة، التي كانت تستمع له وتصغي لتقلباته

الفكرية في البداية، بدأت تنأى. كانت تخاف من تصاعد حدة نبرته، من تلك النظرة التي في عينيه كلما تحدّث عن "تطهير الدين". كانت تقول له أحيانًا: "يا محمد، الناس بشر، لا نصوص. وقد يعبدون الله من حيث لا تدري." فيسكت، ويقوم إلى زاويته، كمن يخشى أن يسمع أكثر.

أبناؤه أيضًا بدأوا يشعرون بأنه أكثر أبوةً للفكرة من الأبوة لهم. كان يغيب أيامًا، ينتقل بين القرى والواحات، يتحدث في المساجد والساحات، يكتب الرسائل إلى الأمراء والفقهاء، يناقش ويكفّر ويحرّض ويشرح ويؤسس. كل شيء في حياته صار دعوة. وكل ما ليس كذلك، بدا له فائضًا عن الحاجة.

حتى أخوه سليمان، الذي كان يجلّه ويحترمه في طفولته، انقلب عليه لاحقًا. كتب فيه رسائل يرد عليه فيها، ويحذّر من غلوّه. كتب يقول: "إن أخي يرى الكفر في كل مخالفة، ويهدم أعمدة المذاهب الأربعة، ويجعل من نفسه مرجعًا وحيدًا لا يزاحم."

ذلك الجرح الأخوي لم يكن عاديًا. محمد كان يعرف أن سليمان لا يجهل الدين، ولا يطعن في التوحيد. لكنه اختلف معه، فقال فيه ما قال. وكان يبرر ذلك في قلبه بأن الدعوة أكبر من الإخوة. ولكن الحقيقة التي لم يكن يريد الاعتراف بها هي أنه كان يرى نفسه مركز الدائرة.

في تلك الأيام، بدأت تصل إليه أخبار عن تلاميذه الذين ذهبوا ينشرون دعوته: بعضهم أصبح يقيم الحدود دون إذن، وبعضهم كفّر أئمة المساجد، وبعضهم منع الناس من زيارة قبور آبائهم، وبعضهم أحرق كتبًا بأكملها. وكان كل ذلك يُنسب إليه. وكان أحيانًا يرفض، وأحيانًا يصمت. وكان يقول في نفسه: "هل صنعتُ هذا بيدي؟ هل كانت كلماتي وقودًا لنارٍ لا أستطيع الآن إطفاءها؟"

جلس إلى تلميذه حسين بن غنام، وكان من أذكى من تتلمذ عليه. قال له: "يا شيخ، أنت دعوتنا إلى توحيد الله ونبذ البدع، ولكن الناس يرونا اليوم نكفّر كل من خالفنا. ألا ترى أن الأمر اتّسع؟"

فأجابه محمد: "إذا لم يُغلق الباب، دخل منه كل فساد."

فقال حسين: "لكننا أغلقنا كل الأبواب، ولم نترك سوى نافذتك."

لم يُجب محمد. كان يعرف أن كثيرًا من مريديه بدأوا يرونه لا مجرد داعية، بل مرجعية مطلقة. وكان أحيانًا يشعر بنشوة لذلك، وأحيانًا بخوفٍ عظيم.

<u>في إحدى ليالي تلك الفترة، كتب في دفتره:</u>

"اللهم إن كنتُ جعلتُ الدين وسيلةً لأعلو، فاكسرني. وإن كنتُ ظننتُ أني أحمي دينك، فذكّرني أن دينك لا يحتاج إلى عبدٍ ضعيف مثلي. وإن كان قولي حقًا، فاجعلني لا أضلّ به أحدًا، ولا أُعجب به نفسي."

<u>ثم طوى الدفتر.</u>

خرج في الصباح إلى المسجد، الناس ينتظرونه. ألقى درسًا في التوحيد، لكنه كان أقل حدة من المعتاد. حدّثهم عن الرحمة، عن النية، عن أن الله يُمهل ولا يُعجّل. قال له أحدهم بعد الدرس: "يا شيخ، خفتَ؟" فأجابه: "بل خفتُ أن أضلّكم وأنا أحسب أني أهديكم."

ذلك الصباح، لم يشعر أنه ينتصر. بل شعر أنه بدأ يفهم.

لكن السؤال الذي ظل يلازمه كل يوم:

هل أنا أدعو إلى دين الله؟ أم إلى صورة الله التي رسمتها في نفسي؟

الباب السادس: شهوة التصحيح القاتل

الفصل الثالث: الطواف حول الذات

كانت الرياح تلك الليلة أهدأ من العادة. درعية الطين والأشواك تنام، لكن الشيخ لم يعرف النوم. جلس على حصيره المنسوج من ليف النخل، مُتكئًا على كومة كتب، لا ليقرأ، بل كأنّه يسند رأسه إلى الماضي لعلّه ينام عنه. لكنه لم يستطع. فقد باتت الجدران تضيق عليه كأنها تطوف به، لا هو الذي يطوف.

في الأيام الأخيرة، كان الشيخ محمد قد دخل طورًا جديدًا من الدعوة؛ طورًا لم يعُد فيه الإصلاح شأوًا علميًا، ولا وعظًا ساذجًا، بل مشروعًا كاملاً من إعادة تشكيل الناس، وفرض "الصحيح" كما يراه.

لم تكن تلك الطفرة ناتجة فقط عن قوة الفكرة، بل عن تحوّل الشيخ من "داعية" إلى "مرجع"، ومن مرجع إلى "مُؤسّس"، ومن مؤسّس إلى ما يشبه النبي المصلح في نظر أتباعه. أصبح اسمه يُذكر في المجالس قبل اسم ابن سعود، وأحيانًا فوقه. وبات الناس يُقبلون على فتاواه، لا لأنها راجحة، بل لأنها "كلمته"، كأنما كل ما يخرج من محبرته هو نص إلهي غير قابل للمناقشة.

ومع كل هذا التعظيم، بدأ شيء في أعماقه ينمو ويأكله: هل أنا ما أقول؟ أم أصبحت أقول ما أريد أن أكون؟

كان يسير بين أزقة الدرعية الصغيرة، متأملاً وجوه الرجال الذين أصبحوا يُبايعونه على الولاء قبل أن يُبايعوا الإمام محمد بن سعود. بعضهم يُقبّل يده، وبعضهم لا يجرؤ أن يسأله عن آية أو حديث إلا بخوف.

وفي إحدى تلك الليالي، جلس إليه ابنه عبدالله، وكان أقرب أولاده إلى قلبه علمًا وفهمًا. قال له بصوت خفيض:

"أبتِ، لقد كثر حديث الناس عنك. يقولون إنك تُقصي العلماء، وتكفّر المذاهب، وتلعن الصوفية، وتحرّض على من لا يتبع طريقتك، حتى لو كان مؤمنًا بالله وبالقرآن... ما ردّك؟"

كان جواب محمد صمتًا ثقيلًا، ثم قال:

"الحق ثقيل، يا بني. ومن خالفني إنما خالف التوحيد لا شخصي."

لكن عبدالله لم يسكت، وأضاف بصوت خافت:

"ولكن... أليس في اختلاف الناس رحمة؟ ألم يقل الإمام مالك: كلٌ يؤخذ من قوله ويُرد إلا صاحب هذا القبر؟"

نظر إليه محمد مطولًا. أحسّ في ابنه نبرة نقد ناعمة... وخوفًا من أن تتحوّل دعوته إلى عقيدة لا تختلف كثيرًا عن ما حاربه.

في اليوم التالي، كتب محمد في دفاتره:

"أخاف أن أكون أُقيم التوحيد على أنقاض الأمة... وأبني العقيدة بجدران الكراهية."

عاد الشيخ إلى مسجده الصغير في قلب الدرعية، فوجد في مجلسه المقرّبون: حسين بن غنام، والعبيد، وبعض أهل الوشم الذين هاجروا إليه طلبًا للعلم... أو للسلطة التي بدأت تلوح في الأفق. كان الحديث يدور حول غزوة

جديدة يُعدّ لها الإمام محمد بن سعود، وهذه المرة ستكون ضد بلدة المجمعة، التي رفضت "البيعة على التوحيد".

قال أحدهم: "إن أهل المجمعة يتأولون، ويقولون إنكم تكفّرون الأمة برمّتها!"

فقال محمد بن عبدالوهاب وقد ارتفع صوته: "ومن ترك ما أنزل الله واتبع آباءه وأهواءه، فقد كفر! نحن لا نُكفّر الناس بأسمائهم، بل بأفعالهم، ومن جهر بالشرك جهرنا بتكفيره."

لكنّ الغريب أن الجلسة لم تهتف بعد هذا الكلام. سادها الصمت. كأنّ الجميع أحسّ أن القارورة قد انكسرت، وأنّ اللغة لم تعد لغة الإصلاح بل الإدانة.

في المساء، أرسل له أحد أشراف المجمعة، وكان من طلبة العلم، رسالة تقول:

"يا شيخ نجد، إنك بدأت كداعية وانتهيت كمُحاكم. ما الفرق اليوم بينك وبين من اتهمتهم بالخرافة؟ كلّكم يزعم أنه يملك طريق الله وحده."

لم يُجب على الرسالة، لكنه قرأها أكثر من مرة، وهمس بينه وبين نفسه:

"لو أنني تركت الناس على جهلهم، لضاع الدين. ولو أنني أمسكت يدي عن السيف، لما نصرني أحد. لكنني حين جمعت بين القلم والسيف، تفتّت قلبي."

في تلك الفترة، بدأ الشقاق بينه وبين بعض أقرب الناس إليه. أخوه سليمان بن عبدالوهاب، الذي كان قد كتب رسالة بعنوان "الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية"، يصف فيها محمدًا بأنه "مبتدع في باب التكفير، ومتجاوز لحدود الشريعة في الفتوى."

لم يكن الشقاق بين أخوين فقط، بل كان تمزقًا بين مدرستين:

- **مدرسة ترى في الإسلام رحابة الخلاف وتعدّد المذاهب.**
- **وأخرى لا تعترف إلا بظاهر النصوص وبمنهجها في التطبيق، وتُكفّر كل من خالفها بحجة التوحيد المحض.**

ولم يكن محمد يجهل ما يقال عنه في الحجاز، أو بين علماء الشافعية والمالكية والحنفية. كان يعرف أن الأزهر كفّه، وأن فتاوى الحرمين أُرسلت إلى الدرعية تحذّر الناس من دعوته، وتصفها بأنها خطرٌ على وحدة الأمة.

لكن الرجل لم يتراجع. كتب في إحدى رسائله إلى والي الحجاز:

"نحن لا نُحدِث دينًا جديدًا، بل نُعيد الدين كما كان. من زعم أنّنا نُكفّر المسلمين فهو كاذب، نُكفّر من عبد غير الله، ومن جعل للنبي أو الولي أو الحجر حقًّا من حقوق الله."

<u>لكن السؤال الذي كان يؤرقه لم يكن في الخارج... بل في قلبه:</u>

ألم أكن أنا من نصب نفسي حاكمًا على "الصحيح"؟

ألم أُقصِ كل من خالفني، لا بالحجة بل بالتأويل؟

في إحدى ليالي التأمل، سأل نفسه:

"من أنا؟ هل أُصلح الدين، أم أُحكم باسمه؟ هل أنا نبيّ خفيّ، أم فقيه خائف؟"

تذكّر رحلته إلى البصرة، كيف طُرد من المساجد لأنه سأل أكثر مما يجب.

تذكّر كيف قال له أحدهم:

"من يظن أنه وحده على الحق، فقد عبد نفسه من دون الله."

في تلك الليلة، لم يكتب في دفتره. بل خرج إلى صحن المسجد، وجلس على التراب، ووضع يده على قلبه، كأنه يُحاول أن يطمئن إليه.

لم يُشعل شمعة، بل ترك الظلمة تحتضنه.

ولأول مرة، طاف حول ذاته، لا ليجد الله... بل ليجد نفسه.

الباب السادس: شهوة التصحيح القاتل

الفصل الرابع: مرآة الكفر

كانت الظلمة قد لفّت الدرعية، لا فقط في السماء، بل في القلب. الليل ساكن، إلا من نباح كلاب بعيدة، وصوت مؤذن يتردد خافتًا من مسجد الشيخ محمد، كأن الأذان نفسه يخجل من صداه.

كان محمد بن عبدالوهاب جالسًا في زاوية مسجده، مفترشًا عباءته القديمة، مطرق الرأس. لم يكن يقرأ، ولا يكتب، بل يحدّق في فراغٍ داخليٍّ أعمق من سواد الليل.

لقد بدأت الأصوات تتعالى، ليس من خصومه فحسب، بل من داخل أوساطه.

بعض تلاميذه المقرّبين كانوا يتهامسون فيما بينهم:

– "هل نُكثِر التكفير؟"

– "هل غلب على الشيخ الغضب حتى بات لا يرى إلا خطًا واحدًا في الدين؟"

– "هل سقط من كان مرشدًا في فخ من أراد أن يكون حاكمًا؟"

قبل أشهر، كان الشيخ محمد قد أرسل رسالة شديدة اللهجة إلى قاضي الزلفي، يُنكر فيها عليه قوله بجواز التوسّل بالنبي ﷺ.

<u>كتب فيها:</u> "إنك إن فعلت فقد جعلت رسول الله واسطة، وما الوسائط إلا شركٌ مكشوف."

لكن القاضي ردّ عليه برسالة مؤثرة، فيها من الأدب ما لم تُخفِه المرارة:

"يا شيخ محمد، إنك لا تترك لنا إلا طريقين: إما أن نكون على ما ترى، أو أن نُعلن أنفسنا مشركين. فأين فقه الاختلاف؟ وأين أدب الخلاف؟ أليس من علامات أهل العلم: الرحمة بالخلق؟"

قرأ الشيخ الرسالة مرارًا. ثم مزّقها. لكنه لم يستطع تمزيق ما استقرّ فيها من المعنى.

منذ أن أعلن الإمام محمد بن سعود ولاءه للشيخ، أصبحت دعوة التوحيد سيفًا مشرعًا، لا مقالة فحسب. فدخلت القرى تحت راية "لا إله إلا الله" مختلطة بالدم.

في عيينة، في الحريق، في المجمعة، في شقراء، كانت رسائل الشيخ تسبق الغزو، تطلب البيعة على "التوحيد النقي"، فإن أبطأ الناس، جاءهم السيف.

وقد برّر هو ذلك مرارًا، قائلًا لتلاميذه:

"ما كانت الدعوة لتقوم في أرضٍ فرّطت في التوحيد إلا بالقوة، كما فعل النبي في فتح مكة."

لكن تلك المقارنة كانت تُسكت التلاميذ، لا تُقنعهم.

في تلك الأيام، كان أخوه سليمان بن عبدالوهاب قد عاد يكتب، هذه المرة لا فقط للرد، بل للتاريخ.

كتب في إحدى رسائله:

"إن أخي محمدًا إنما استبدل بدعة ببدعة، وغلظة بأخرى. وما كل مخالف مشرك، وما كل عاميّ ضالّ."

ولم يكن سليمان وحده، بل أرسل إليه مفتي الحنفية بالبصرة، وسادات من علماء مكة، وفاس، والقاهرة، وكلهم يشكون من الحدة في التكفير، ومن استسهال إخراج المسلم من ملّته، فقط لأنه زار قبرًا، أو استغاث في دعائه.

لكنّ الشيخ محمد، وقد أصبح رأس السلطة الدينية في الدولة السعودية الناشئة، بات يرى أن التراجع خيانة للتوحيد، وأن الصمت عن البدعة شركٌ مغلّف، لا يقل عن الشرك الجلي.

في مجلس خاص، جلس إليه الأمير عبدالعزيز بن محمد بن سعود، وقال له: "يا شيخنا، لقد كثرت الحروب. وقُتل رجال كثيرون، بعضهم من أهل القبلة. ألا ترى أن نخفف قليلًا من الإنكار؟ أن نلجأ إلى التعليم، بدل القتال؟"

فأجابه محمد بن عبدالوهاب:

"إن السكوت عن المنكر منكر. والدين لا يقوم إلا على الصراحة. والناس إن لم يُجبروا على التوحيد، ظلّوا في الشرك عاكفين."

قالها وكأنّه يقطع حبل النقاش بسكين الإيمان.

ومع اتساع الدولة، اتسعت أيضًا قائمة "الضالّين".

ففي نجد، أصبح يُنكر على الموالد النبوية، والذكر الجماعي، والتوسل، وزيارة القبور، ومجالس الصوفية، وأعياد العامة، وتعظيم الأولياء.

وأصدر فتاوى في تكفير:

- **من شدّ الرحال لزيارة قبر النبي.**
- **من طلب شفاعة من غير الله.**
- **من أقام حضرةً صوفية.**
- **من استغاث بولي.**
- **من نذر لغير الله.**
- **من بنى مسجدًا على قبر.**
- **من كتب التعاويذ، أو لبس حجابًا.**
- **من سمع موسيقى، حتى ولو "لطمأنينة النفس"!**
- **وكل واحدة من هذه، اعتبرها بابًا للشرك، لا ذنبًا صغيرًا، بل مدخلًا إلى النار.**
- **ثم بدأت أصداء التشدد تصل إلى بيوته.**

فقد نقل له أحد خدمه أن ابنه عليًا قد راح يستمع سرًا إلى مجلس صوفيٍّ عند أحد رجال الدرعية، فاستدعاه.

"هل ما سمعته عنك صحيح؟"

قال علي: "نعم يا أبتِ. سمعتهم يذكرون الله، ويبكون، ويخشعون. لم أسمع شركًا."

"وما أدراك؟ البدعة في نيتك لا في نيتهم."

"لكن ألم تكن القلوب تعرف؟"

"القلوب تُضل يا بني. لا تُؤخذ العقيدة من دمعة، بل من الدليل."

وفي إحدى ليالي شتاءٍ جاف، وقف الشيخ محمد أمام المرآة، وقد بات جسده نحيلاً، وصوته أخفض مما كان، لكنه ما زال يُحملق في عينيه.

قال لنفسه:

"لماذا أصبحت الوجوه من حولي أكثر خوفًا مني، لا احترامًا؟
هل صرتُ أنا، الذي قضيت عمري في محاربة الأصنام، صنمًا جديدًا؟
هل عدت أرى الله كما أراه أنا فقط، لا كما يراه الناس؟"

أحد تلاميذه، رجل اسمه أحمد بن حسن، تجرأ وقال له في أحد المجالس:

"يا شيخ، هل لنا أن نختلف معك دون أن نُتهم في توحيدنا؟"

فأجابه بحدة:

"إن اختلفت مع التوحيد، فقد كفرت. وإن اختلفت معي في جزئية، فعليك بالدليل."

– "لكن... من يملك الدليل غيرك، ما دمنا لا نجرؤ أن نناقشك؟"

صمت المجلس.

كان كأنّ أحدهم صرخ: "لقد لبست العمامة، فصارت تاجًا."

كتب في دفتره تلك الليلة:

"ما أصعب أن تكون داعية... ثم تُصبح حكمًا. وما أوجع أن يُقدّمك الناس كإمام... فتغدو نبيًّا في قلوبهم، دون أن تطلب. وما أخطر أن تُمسك سيف التكفير، ثم لا تجد من يُذكّرك بأنك بشر."

في اليوم التالي، زار قبرًا قديمًا خارج الدرعية، كان لأحد علماء نجد القدامى، الذي يقال إن الشيخ قرأ له في صغره.

وقف عنده، ونظر إلى النقش البالي على الحجر.

<u>قال:</u>

"لم يكن صاحبك صوفيًا، ولا مشركًا، ولا مبتدعًا...

لكنه لم يكن أنا."

<u>ثم تمتم:</u>

"هل المشكلة في الدين؟ أم في طريقتي؟

هل خُدعت بالحقيقة؟ أم صنعت وهمًا وسميته توحيدًا؟

وهل سأترك بعد موتي أمة موحّدة... أم فرقة تقول: الكفر مرآته محمد؟"

وهكذا، في تلك الليلة، لم يُنكر قبرًا، ولم يُكفّر ساكنه، ولم يُحذّر الناس من الشرك.

بل جلس... ووضع يده على الحجر... كأنّه يطلب منه شيئًا.

لا بركة، ولا شفاعة... بل اعترافًا.

اعترافًا بأن الحجارة أحيانًا... أصدق منّا.

الباب السادس: شهوة التصحيح القاتل

الفصل الخامس: الشيخ والهاوية

كان الليل قد بدأ يرحل عن الدرعية، لكن شيئًا في داخل الشيخ محمد بن عبدالوهاب لم يكن يغادره، بل يثقل عليه أكثر فأكثر.

ظل جالسًا أمام القبر العتيق، حيث أنهى ليلته السابقة، لم يُغادر المكان، وكأنّ الزمن علق هناك بين خشونة الحجر وبكاء القلب.

في الصباح، جاء أحد طلبته الصغار، يركض وقد حمل معه خبزًا وتمرًا.

قال بخجل:

"مولاي الشيخ... الناس يبحثون عنك، والإمام عبدالعزيز أرسل من يسأل عنك."

لم يرد.

أخذ التمر من الطفل، ووضعه في حجره، ثم قال:

"يا بني... من علّمني في صغري أن قبرًا لا يُزار... لم يعلّمني أن القلب إن ضلّ فلا هادي له.

الناس تبحث عن جسدي، فهل تبحثون عن روحي أيضًا؟"

في اليوم التالي، عاد إلى مجلسه في المسجد.

لكن الناس وجدوه متغيرًا... لم يكن في ملامحه تلك الحدة التي عرفوها.

كان يرد على السائل، لا بغضب، بل بصوت منخفض، يحمل مفردات الشك أكثر من يقين القاضي.

أحدهم سأله:

"يا شيخ، هل يجوز أن نكتب آيات على البيوت للبركة؟"

فقال:

"كان قولي في ذلك أنه بدعة... لكني الآن أقول: إن لم تكن شركًا، فلا تُحمل أكثر مما تحتمل."

ذلك التغير لم يُرضِ تلاميذه المتشددين.

جلس إليه عبد الرحمن بن حسن، أحد أنشط من تتلمذ عليه، وقال:

"شيخي، لقد تغيّر لسانك، وما عهدنا منك المواربة."

فأجابه:

"وهل أنت ممن يرضى بأن يُسمّى الجدار شركًا لمجرد أن عليه كتابة؟

وهل نُحاسب على نيات الناس أم على ظاهرهم؟

هل أصبحنا نحكم على الأمة كلها بالجهل، وننجو نحن فقط من الغفلة؟"

قالها بصوت متعب، كأنّه يُعاتب نفسه أكثر مما يُعاتب غيره.

لكن تلك التحولات لم تقتصر على الداخل فقط، بل بدأت تصل إلى حدود السياسة.

ففي مجلس الأمير عبدالعزيز، حضر عدد من التجار والعلماء، يشكون من أن تشدد الدعوة بدأ يُنفّر الناس، ويجعل من دعوة "التوحيد" سيفًا للتسلط لا بابًا للهداية.

قال أحدهم:

"يا أمير، إن كانوا كلهم مشركين، فمن بقي للمسلمين؟"

رد عليه آخر:

"بل ومن بقي للبشرية؟"

فأجابهم الأمير:

"شيخنا هو القائم على الدين، ونحن على ما يرى، لكنه بات يميل إلى التروي."

قالها وفي عينيه شيء من الحيرة... وشيء من الحذر.

في المساء، دعا الأمير عبدالعزيز الشيخ محمد إلى لقاء خاص.

لم يكن في المجلس إلا الخدم عن بعد، وبعض كتب فقه ودفاتر.

قال الأمير:

"يا شيخ، أريد أن أقول شيئًا... وأرجو ألا تغضب."

ابتسم الشيخ، وقال:

"قل، فإني ما عدت أغضب إلا من نفسي."

فقال الأمير:

– "لقد كانت دعوتك في بدايتها نورًا، تضيء العقول.

لكنها، بمرور الوقت، صارت نارًا... تحرق الأجساد."

سكت الشيخ، ثم قال:

"ما أشدّ أن تتحوّل الرسالة إلى لعنة."

سأله الأمير:

"أتندم؟"

أجاب الشيخ، وهو يطرق رأسه:

"أندم أني لم أفرق بين ما هو شركٌ فعليّ، وما هو جهلٌ مغفور.

أندم أني تركتُ لأتباعي السيف، فأحبّوه أكثر من العلم.

أندم أنني سعيت للسلطة تحت ستار الدين، ثم علّمتهم أن الدين هو أنا."

في تلك الأيام، اشتدت الحروب في الأحساء والقطيف، وكانت رايات آل سعود ممهورة بتوقيع الشيخ.

كل أرض تُفتح، يُطرد منها من لا يوافق "دعوة التوحيد"، وتُهدم القباب، وتُحرق المصاحف المكتوبة بخطوط غير معتمدة، ويُجلد الناس لأنهم قالوا: "يا نبي الله."

كان كل ذلك يُنسب إلى محمد بن عبدالوهاب، وكان هو صامتًا.

لكن ذلك الصمت، كما قال في دفاتره، لم يكن رضا، بل عجزًا عن وقف ما بدأه بيده.

في أحد الأيام، دخل عليه ابنه عبد الله، وقد عاد من إحدى حملات "التطهير"، وقال له:

"أبشرك، يا أبي، قد كسرنا ضريحًا في منطقة الجشة، وكانوا يعبدونه كإله."

قال له الشيخ، وعيناه دامعتان:

"هل رأيتهم يعبدونه؟ أم سمعتهم يقولون: يا فلان اشفع لنا؟ وهل تُكسر الحجارة من أجل التأويل؟"

قال عبد الله:

"لكنك من علمنا أن هذا شرك!"

فقال الأب:

"نعم، علّمتك... ولكني لم أعلّمك أن تكون القاضي والجلاد معًا. إنك الآن تفعل أكثر مما قصدت أنا يومًا."

في اليوم التالي، كتب رسالة لطلابه، يُمليها على خادمه بصوت متهدّج:

"إلى كل من سمع مني، أو نقل عني، أو قاتل باسمي، أو دعا بدعوتي:

اعلموا أن لا عصمة إلا لنبي.

وما دعوت إليه من توحيد، فهو في أصله حقّ، لكن ما اتُخذ باسمه من عنف، فإني منه براء.

إنني الآن، في آخر أيامي، لا أرى الناس إلا قومًا ضلوا بجهل، لا بشرك، ويُردّ الجاهل بالعلم، لا بالحدّ.

فلا تجعلوا من الدين سلطة، ولا من التوحيد منصةً للتكفير، ولا من المخالفة خيانة.

وإن مت، فادفنوني بعيدًا عن المساجد، ولا تبنوا لي قبة، ولا تكتبوا على قبري شيئًا.

واتركوا الناس لربهم... فهو أرحم بهم منكم جميعًا."

في الأسبوع الأخير من حياته، لم يخرج من بيته، لم يخطب، لم يُدرّس.

كان يقضي يومه في التأمل، والقراءة، ومناجاة الله.

كان يقول:

"يا رب، إن أخطأت فاغفر، وإن أصبت فاهدِ من بعدي... فأنا ما كنت إلا رجلًا يحبك، وخاف أن يُحب نفسه أكثر."

ومات الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

وماتت معه صفحة من التاريخ، لا تزال مفتوحة.

لكن لم يمت الجدل.

ولا انتهت الرايات.

ولا تفرّق الأتباع.

<u>بعضهم قال:</u>

"كان إمام التوحيد، قدّس الله سره."

<u>وبعضهم قال:</u>

"بل كان مفرّق الأمة، سفك الدم باسم الدين."

أما قبره، فقد دُفن دون شاهد.

كما أوصى.

لكن أثره... لم يُدفن.

وظل السؤال يتردّد في سماء الجزيرة، بين المآذن والقبور:

"هل كان الشيخ مصلحًا... أم فاتح باب للدم؟

هل كان سراجًا منيرًا... أم شرارة أحرقت الأمة؟

هل كان الله معه... أم كان مع الله؟"

الباب السابع: الحلف الملعون

الفصل الأول: بعد الرحيل- قبس لا يخبو

كان صمت الصحراء بعد وفاة الشيخ محمد بن عبدالوهاب يشبه خفوت الطبول بعد معركة طاحنة؛ لا يعني أن السيف قد غُمد، بل إن الدم لا يزال يقطر منه في صمت. لم تكن وفاة الشيخ إلا خاتمة فصل لاختبار طويل، فالدعوة التي نمت من بذرة في العيينة، واشتدت في الدرعية، لم تمت بموت صاحبها، بل أخذت شكلاً آخر: مؤسسة دينية مسلحة.

في الأيام التي تلت وفاته، اجتمع كبار أبنائه وتلامذته، ومنهم عبد الله، وعبد الرحمن، وحسين، وجمع من القضاة والمتشددين، في ما يُشبه "مجلس خلافة فقهية"، أرادوا من خلاله الحفاظ على وصية الشيخ، أو على الأقل ما يرونه وصية له. لكن الحقيقة أنهم لم يكونوا يسيرون على وصيته الأخيرة التي كتبها بخط غير ثابت في أيامه الأخيرة، بل على خطِّه القديم، ذلك الذي كان يتقد حماسة، لا حكمة. كانت الرسالة الأخيرة للشيخ التي دُفنت معه في صدره، لا في دفاترهم.

قال عبد الرحمن ذات مساء في مجلس صغير أقيم على شرف ذكرى وفاة أبيه:

"الدعوة أكبر من رجل. وما قام به والدنا لم يكن له وحده، بل لنا من بعده. نحن الأوصياء على التوحيد، وإن تنازلنا اليوم عن الحزم، غدًا سيُعاد بناء القباب على القبور، وستعود الصوفية ترقص في حلقات الضلال."

لكن أحد طلبة الشيخ، وكان قد لزم شيخه في أيامه الأخيرة، تمتم بصوت خافت:

"الشيخ نفسه في آخر أيامه، ندم على حدة دعوته... قالها لي أكثر من مرة: "ما أردت للأمة أن تتناحر على التأويل."

نظر إليه عبد الرحمن باشمئزاز، وقال:

"أمّا نحن، فما نزال على يقين لا يتزعزع. الشرك لا يُجامل، والبدعة لا تُهادن، والحزم في الدين من أصل الدين."

هكذا بدأت مرحلة ما بعد الشيخ: دعوة بلا مراجعة، ونصوص بلا سياق، وتلاميذ رأوا في أنفسهم امتدادًا لمعصوم، لا حملة إرث إنساني قابل للخطأ والصواب.

في تلك المرحلة، ومع تزايد زحف الدولة السعودية الأولى بقيادة عبدالعزيز ثم ابنه سعود، أصبحت "الوهابية" جهازًا أيديولوجيًا متكاملاً؛ لا فقط مذهبًا فقهيًا، بل منظومة سياسية دينية تستند إلى شرعية دينية مطلقة.

كان أول عمل بارز بعد وفاة الشيخ، هو إعادة مراجعة كل كتبه وتنقيحها وإعادة نشرها، لكن ليس كما كتبها هو، بل كما أراد أبناؤه وتلامذته أن تُفهم.

تم حذف بعض رسائله الأخيرة، التي أبدى فيها ليونةً تجاه المختلفين، ومنها قوله في إحدى رسائله إلى علماء الشام:

"ولا نكفّر أحدًا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لمجرد الدعاء بغير الله، إن لم يعتقد أن المدعو هو الإله."

حُذفت هذه العبارات من طبعات لاحقة لرسائله، لأنها تُضعف ذريعة التكفير، وتُسقط مشروعية العنف. لقد خاف أبناؤه من أن تنهار البنية السلطوية التي شيدت على الخطاب الحاد، فاختاروا التضحية بوصايا الأب من

أجل الحفاظ على الدولة التي أصبحت تعتمد على "توحيد القهر" لا "توحيد الرفق".

في نفس الوقت، بدأت سلسلة من المحاكمات الشعبية التي استهدفت كل من لم يذعن كليًا لفهم الدعوة كما رسمه أتباع الشيخ، لا الشيخ ذاته.

في بريدة، حُكم على أحد القُرّاء بالجلد لأنه قال إن زيارة قبر النبي ليست بدعة، بل سنة محببة.

وفي الزلفي، أُحرقت كتب للإمام الغزالي، بدعوى أنها تروّج للقبور والصوفية.

وفي حائل، طُرد أحد المعلمين لأنه كان يُدرّس في فصله أشعار الحلاج وابن الفارض.

إنها مفارقة حزينة: محمد بن عبدالوهاب الذي حفظ ديوان المتنبي في صغره، أصبحت مدرسته تحرق الدواوين.

أما عن عائلته، فقد كان لكل فرد منهم شأن. عبد الله بن محمد، وهو أكبر أبنائه، تولى مهمة نشر كتب والده، وكان أقلهم حدة، لكن لم يجرؤ على مخالفة السياق العام. أما حسين، فكان أكثرهم تشددًا، واعتبر نفسه الوريث الحقيقي للدعوة، وقاد حملات تكفير واسعة في منطقة نجد، حتى أُطلق عليه لقب "مبضع التوحيد".

أمّا بناته، فقد أُبعدن عن المشهد، إلا من روايات محدودة تُشير إلى أن إحداهن كتبت رسالة تنتقد فيها بعض أتباع والدها، لكن الرسالة ضاعت.

وأما زوجته، التي لازمته في أواخر عمره، فقد روت لإحدى جاراتها أنها كثيرًا ما سمعته يتحدث في الليل إلى نفسه، ويقول:

"هل كنتُ داعيةً لله؟ أم لنفسي؟"

الدرعية في تلك الفترة أصبحت قلعة وهابية كاملة. كان كل بيت يُراقب، وكل لفظ يُتابع. وانتشرت فتاوى تُبيح قتل من يُخالف تأويلهم للدين.

القصائد الدينية اختفت، وظهرت أشعار الحرب، مثل:

"جئنا بسيف الله في التوحيد نغضبُ

كل من قال يا ولي! دمه يُسكبُ"

وما إن سمعها أحد أبناء الشيخ، حتى بكى، وقال:

"ما هكذا أرادها أبي... كان ينهى عن الشعر، لكنه ما أراد أن يُقال باسم التوحيد ما يُشبه التتر."

أما العالم الإسلامي خارج نجد، فبدأ ينظر بقلق لهذه الظاهرة.

في دمشق، كتب الشيخ الدحلان ردًا قاسيًا على دعوة محمد بن عبدالوهاب، ووصفها بأنها "فتنة لا تقل عن فتن الخوارج".

وفي القاهرة، استُقبل بعض الفارين من بطش الوهابية، ورووا كيف أن الأتباع كانوا يُكفّرون العلماء، ويمنعون الموالد، ويجلدون من يُمسك سبحة.

وفي بغداد، كتب شاعر مجهول: "في نجد نارٌ باسم دينٍ موقدة

لكنها تُشعلُ قلوبًا موحّدة تكفّرنا، وتدّعي فتحًا مبينًا

أمّا المحبةُ، فهي منها مُبددة"

وفي الحجاز، كانت الأمور أكثر حرجًا. فقد بدأ نفوذ الدولة السعودية يمتد، وحين دخلوا مكة، مُنع الطواف حول القبر، وأُلغيت التقاليد التي استمرت قرونًا.

لكن المفارقة الأعظم، أن كثيرًا من الحجاج من المغرب والهند وأندونيسيا، بدأوا يعودون إلى بلادهم بقصص عن "دين جديد" اسمه الوهابية، دين لا يرحم، لا يتسامح، ولا يرى في المسلمين سوى مشركين محتملين.

هكذا، أصبحت صورة محمد بن عبدالوهاب بعد موته، لا صورة العالم الفقيه، بل صورة القائد الروحي لثورة فقهية بلا قلب.

ولم يكن ذلك مصادفة.

فكل ما فعله أتباعه، لم يكن محاولة لفهمه، بل لتكراره بصورة أشد وأصلب، دون اعتبار لتراجعه، أو ندمه، أو خشيته في آخر أيامه.

لقد صنعوا منه تمثالًا ذهنيًا جامدًا، لا يعترف بأنه بشر، ولا يخطئ.

ولم يكن في نجد من يجرؤ على أن يسأل السؤال البسيط الذي سألته ابنته الصغرى ذات مساء:

"أبي قال لي مرةً: الدين حب قبل أن يكون خوفًا. فلماذا صار كل ما بعده خوفًا فقط؟"

الباب السابع: الحِلف الملعون

الفصل الثاني: زمن التوحش

حين أُغلقت أبواب الدرعية بعد الاجتماع الأخير الذي ضم محمد بن عبدالوهاب ومحمد بن سعود وأتباعهما، لم يكن أحد يعلم أن الرياح التي هبّت في ذلك المساء ستحمل في طيّاتها بذور قرنٍ كامل من الحروب.

لم يكن الحلف مجرد التقاء فكري بين رجل دين ورجل سياسة، بل كان عهداً مكتوبًا على ظهور الخيل، ومدادًا على جلود الضحايا. وشيئًا فشيئًا، صار ما يُسمى بـ "الدعوة" حركة عسكرية، تحمل القرآن في يد، والسيف في الأخرى.

لم يكن محمد بن عبدالوهاب قد تجاوز الأربعين، لكن وجهه بدأ يُشبه وجوه القادة أكثر من وجوه الفقهاء. كان يتحدث بثقة آمر، لا معلم. يُصغي إليه رجاله كما يُصغي الجنود لأوامر الحرب، لا كما يُصغي التلاميذ لدروس التفسير.

في المجالس المغلقة، حين يُسأل عن التكفير، كان يرد باقتضاب: "من خالف التوحيد الحق، فلا شفاعة له."

ولكن ما هو هذا "التوحيد الحق"؟ ومن يحدده؟ ومن يقيس به إيمان الناس؟

تحت عباءته العريضة، بدأت تتكاثر قوائم الأسماء. أسماء الشيوخ والصوفية، وحتى علماء الحرمين الذين كانوا يرفضون تكفير الناس بالظن والتأويل، وبدأت بعض العبارات تظهر على لسانه وتُدوَّن على هوامش كتبه:

"من لم يُكفّر المشرك، فهو مشرك."

عبارة بسيطة، لكنها كانت المفتاح الذي فُتح به باب الدم.

لقد صار من الممكن ـ بل من الواجب ـ أن تُكفّر من لا يُكفّر، وأن تُقاتل من لا يُقاتل، وأن تُجبر الناس على أن يروا ما تراه، وإلا فإنهم من "المتأولين" أو "المرجئة" أو "الزنادقة المتستّرين بالإسلام".

في إحدى الليالي، حضر مجلسًا ضمَّ بعض كبار رجال محمد بن سعود، ودار الحديث عن "فتح" بلدة قريبة في منطقة نجد، رفضت مبايعة الدولة الجديدة، ورفضت دخول "الدعوة".

قال عبدالعزيز بن محمد بن سعود: "يا شيخ، القوم مسلمون، يصلّون ويصومون. ولكنهم لم يقبلوا بيعة الأمير."

رد ابن عبدالوهاب دون تردد: "ألم نقل إن الطاعة لا تتم إلا بالإيمان الصحيح؟ إنهم يعبدون الله على غير بصيرة، ويتبعون أهواء آبائهم."

قال أحد الحاضرين: "لكنهم يقولون: لا إله إلا الله."

فأجابه بنبرة حادة: "كلمة التوحيد ليست تعويذة تُنطق، بل عقيدة تُفهم وتُنفَّذ."

ثم ساد صمت طويل، قُطع بعبارته القاطعة:

"من لم يدخل في دعوتنا، فهو عدوها."

وهكذا، أُعلنت الحرب.

بدأت السرايا تخرج من الدرعية تباعًا، وتحمل معها فتاوى التكفير قبل أن تحمل السيوف. وصارت كل بلدة تُفتح تُخيَّر بين ثلاثة:

١- الدخول في الدعوة.
٢- الخروج منها.
٣- أو النار.

بلدة تلو أخرى، سقطت. وسُمّي السقوط "فتحًا". وبدأت الرسائل تتوارد على محمد بن عبدالوهاب من شتى المناطق، يسأله فيها أتباعه:

هل يجوز لنا أخذ الغنائم من المسلمين الذين قاتلونا؟ – هل يُقتل من يُظهر الإسلام ويرفض الدخول في الدعوة؟

وكانت أجوبته واضحة، وإن كُتبت بلغة ملغّمة:

"الموالاة لأهل الشرك شرك، ومن عادى أولياء الله فهو عدو الله."

وفي دفاتره الخاصة، بدأ يُدَوّن خرائط ذهنية للأماكن التي لم تصلها الدعوة، ويضع علامات بجوارها:

"يُستتابون أولًا... فإن أبوا... تُرفع الرّايات."

بدأ بعض أقربائه يشكون من صرامته، بل إن أخاه سليمان بن عبدالوهاب كتب ردًّا مشهورًا عليه بعنوان "الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية"، قال فيه:

"ما دعوتكم إلا فتنة، وما تبديعكم وتكفيركم إلا باب للشيطان إلى دماء المسلمين."

لكن محمد ردّ عليه بكلمات أقسى:

"أخي سليمان لم يعرف التوحيد، ولو عرفه ما عارضه."

وحين بلغه أن بعض أبنائه بدأوا يتململون من شدته، أرسل إليهم برسالة قال فيها:

"من وهن قلبه عن الحق، فليس منّي. ومن تراجع عن الطريق، فقد خان الله."

في عام ١٧٤٦، ارتكبت قوات الدولة الجديدة أولى المجازر الكبرى بحق سكان بلدة في نجد رفضت الدعوة، وأصرّ علماؤها أن لا يُكفَّر من يشهد الشهادتين.

دخل الجنود المدينة فجراً، وتقدمتهم رايات مكتوب عليها:

"لا إله إلا الله، محمد رسول الله، محمد بن سعود إمام المسلمين."

أُحرقت البيوت، وقُتل الرجال، وسُبيت النساء. ثم رُفعت التقارير إلى الشيخ محمد، فقيل له:

إن البلدة أُخضعت بالكامل.

فأجاب: "الطريق طويل، وما هذه إلا أول القلاع."

<u>منذ ذلك اليوم، بدأ الناس يتهامسون:</u>

هل هذه دعوة دينية، أم مشروع دولة باسم الدين؟

هل ما يحدث هو جهاد، أم غزو؟

من يجرؤ على الاعتراض، وفتوى القتل جاهزة؟

حتى بعض أتباع محمد بن سعود بدأوا يتململون. لكن التحالف كان قد ترسّخ.

وصار واضحًا أن الدعوة صارت تُساق برمح الأمير أكثر مما تُشرح بقلم الشيخ.

وفي مذكراته، كتب أحد الشهود من أهل الحجاز الذين عايشوا مرحلة الغزو:

"كانوا يدخلون القرى، فيأمرون الناس بالبيعة، فإن ترددوا، قُطعت أعناقهم. ثم يُقال: دخلوا في الإسلام. أي إسلام هذا؟ إسلام الدم أم إسلام القهر؟"

وفي أواخر العام، جلس محمد بن عبدالوهاب في مجلسٍ خاص، يتأمل في خريطة الجزيرة، واللون الذي بدأ يتمدد فيها.

قال في نفسه:

"ما أسرع ما يستجيب السيف حين يصمت القلب."

<u>ثم خطّ في دفتره:</u>

"ربّما كنتُ أُقيم الدين... لكني فتحت بابًا لا يُغلق. فهل كنت عبدك أم سيفك؟ أم أداة في يد سلطان يبحث عن مجد؟"

كان الزمن قد بدأ يدخل نفق التوحّش.

ولم يكن أحد، حتى محمد بن عبدالوهاب نفسه، قادرًا على إيقاف الموجة.

لقد صارت الدعوة... دولة. وصار الخلاف... دمًا. وصار الصمت... خيان

الباب السابع: الحلف الملعون

الفصل الثالث: البخور والمباخر

في صباح بدا ساكنًا في ظاهره، لكنه يخفي في جوفه بركانًا متحفزًا، دخل محمد بن عبدالوهاب إلى مجلس خاص في قصر الدرعية، حيث كان عبدالعزيز بن محمد بن سعود في انتظاره، وحوله بعض كبار رجال الدعوة والسلطة. كانت رائحة البخور تملأ المكان، وأصوات خافتة تتردد كأنها صدى لصلوات لم تُفصح عن هويتها.

جلس محمد بن عبدالوهاب دون أن يحيي الجميع، كعادته التي غدت مألوفة: جموده في المجالس، حدة نظرته، وثقته التي تشبه الصمت حين يتحوّل إلى سيف.

قال عبدالعزيز: "وصلتنا رسائل من بعض أعيان حائل، يعرضون فيها الطاعة بشرط..."

قاطعه محمد: "الطاعة لا تُشترط، إنما يُعرض عليهم الإسلام كما أتى به النبي، لا كما رآه آباؤهم."

صمتٌ لحظي.

تابع الأمير بصوت منخفض: "لكنهم يطلبون وقتًا، يريدون فهم دعوتنا."

قال محمد وهو يضغط على سبابته: "لا وقت للشرح بعد الآن. من علم فقد قامت عليه الحجة، ومن جهل، فسوف نقيمها عليه بالسيف أو الكتاب."

من خلف الستار، كان أحد أبناء الشيخ، حسين بن محمد، يراقب المجلس بصمت. كان يعرف والده جيدًا، ويعرف تلك النظرة التي لا تقبل

التراجع. لكنه كان أيضًا شاهدًا على مجلس خاص قبل أيام، حين قال والده لأحد خاصته:

"إذا تباطأ الأمير، ذكّره أن لا سلطة له إلا بهذه الدعوة، فلتكن الطاعة لله، لا للقبيلة."

كانت هذه الجملة وحدها كافية لتفجير المعبد القديم في نجد، حيث لا تزال القبائل ترى في المشيخة والعرف حكمًا فوق كل حكم.

في السنوات الماضية، تحولت علاقة محمد بن عبدالوهاب بآل سعود من دعوة واحتضان، إلى تحكم وتوجيه. لم يكن مجرد رجل دين يُستشار، بل أصبح رجل دولة يوجّه، يحسم، ويُقصي.

أصبحت رسائله تُحمل إلى القبائل كفرمانات لا تقبل التأويل. فإن لم يبايع القوم على التوحيد وفق تأويله، سُمّوا مشركين، وجاز فيهم السيف

<u>في مجالس الأنس، حين يغيب الشيخ، كان بعض رجالات الدرعية يتندّرون:</u>

"أصبح الأمير عبدالعزيز أميرًا على الأرض... والشيخ محمد أميرًا على السماء!"

وكانت هذه النكتة، رغم مرارتها، تعبّر عن واقع لا يجرؤ كثيرون على المجاهرة به.

في تلك الليلة، جلس محمد في خلوته بعد انتهاء المجلس، وفتح دفتره الأسود الذي لا يطلع عليه أحد.

<u>كتب:</u>

"إن الله اصطفى هذا التحالف بيننا وبين آل سعود ليرفع به راية الإسلام. لكن إن خالطته شهوة ملك، أو رغبة سلطان، فسيكون علينا فتنة. اللين في مواضع الحزم، شركٌ في الدعوة. ومساومة أهل الباطل على بقائهم في الحكم، خيانة للدين."

ثم تذكر ابنه عبدالله، الذي بدأ يكثر من السؤال.

"يا أبي، أما تخشى أن يخلط الناس بينك وبين السلطان؟" – "لا أخشى من الناس يا بني، بل أخشى أن يختلط الحق بالهوى."

"لكن ألا ترى أن بعض من تقاتلهم، يصلّون ويصومون؟" – "دعوتهم لا تقف على ظاهر العمل، بل على التوحيد الذي لا يتلبس بشيء من البدعة."

"وهل البدعة تُقاتل؟" – "إذا أصرّ صاحبها، نعم."

لم تكن هذه الأسئلة تعجب الشيخ. كانت تذكره بما عاناه مع أخيه سليمان بن عبدالوهاب، الذي ألف ضده كتابًا عنوانه: "الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية"، واتهمه فيه بالتسرع في التكفير، وادعاء تجديد الدين دون أهلية.

لقد كانت تلك المعركة الشخصية أكثر ألمًا له من معارك الدرعية.

<u>في دفتره كتب:</u>

"إن الدم إذا اختلط بالحبر، لا يعود ماءً يغسل الذنوب، بل حبرًا يكتبها."

وفي اليوم التالي، بينما كان يراجع أوراق مراسلات جديدة إلى جنوب نجد، جاءه مبعوث خاص من الأمير عبدالعزيز:

"الشيخ، إن أعيان نجران يطلبون مجلسًا، ويقولون إنهم مسلمون على مذهب آخر، لا على شرك."

قال الشيخ دون تردد:

"الإسلام ليس مذاهب، بل توحيد وسنة. ليرسلوا من يناظرنا، فإن غلبونا بالحق، تبعناهم، وإن غلبناهم، دخلوا في دين الله أفواجًا، أو في الحرب."

كان يكرر هذه العبارة دائمًا، لكنها لم تكن تقنع الجميع.

في الطريق إلى نجران، وبين الرمال التي تميد كلما مرّ عليها السيف، كانت تتشكّل خريطة جديدة للجزيرة العربية، خريطة تحفرها المباخر كما السيوف.

رجال القبائل الذين كانوا يبايعون عن خوف، يخفون داخل عباءاتهم صور الأولياء والأذكار الشعبية. وحين يذهب وفد الدعوة، يعودون للقول: "هذا الدين الجديد، ليس دين آبائنا."

وهكذا، كان البخور يعلو مع كل غروب، والمباخر تعود لتعبئة الفراغ بين الخوف والهوية.

في المساء، جلس محمد بن عبدالوهاب، وأمامه خريطة كبيرة للجزيرة، ومعه قادة الجهاد.

قال لهم:

"نحن على مشارف زمن عظيم، سيُبدل الله فيه هذه الأرض من أرض قبائل متناحرة إلى دولة توحده وحده. لكن هذا لن يتم إلا بتطهيرها من كل أثر للشرك."

قال أحدهم: "ومتى نتوقف؟"

فأجاب: "حين تعلو كلمة الله في كل بيت."

لكن في أعماقه، كان سؤالٌ ينهشه:

"وحين تعلو كلمتي أنا... من الذي سيراجعني؟"

هكذا كانت الدعوة، في نظر كثيرين، قد تحوّلت إلى مرآة يرى فيها الشيخ ذاته.

فهل كانت النار التي أضاءت الطريق، تحرقه أيضًا؟

الباب السابع: الحلف الملعون

الفصل الرابع: الميثاق فوق الرمال

كانت السماء تنذر بمطر، لكن الرمال ظلت جافة، وكأنها ترفض أن تُغسل من الدماء القديمة. في صحراء نجد، تحت شمسٍ لم تعرف الهدوء، اجتمع رجلان سيكتبان بأسمائهما فصلًا دامغًا في تاريخ الجزيرة. محمد بن سعود، أمير الدرعية، ومحمد بن عبدالوهاب، الداعية المثير للجدل، التقيا لا على عقيدة وحدها، بل على حلم سلطوي مشترك، بُنِي على رماد المدن وآهات المنفيين.

لم يكن هذا اللقاء الأول بين سلالة آل سعود والدعوة الوهابية، لكنه كان الأكثر حساسية. وصلت إلى محمد بن سعود أخبار محمد بن عبدالوهاب المتنقل بين العيينة، وحريملاء، والرياض، مُطارَدًا من فقهاء، ومطرودًا من أمراء، ومُتهَما من الناس بإثارة الفتنة. غير أن ما أثار فضول ابن سعود لم يكن الجانب العقدي فقط، بل ما تحمله دعوة ابن عبدالوهاب من إمكانية قلب المشهد السياسي في نجد.

في إحدى ليالي عام ١٧٤٤، جلس الرجلان داخل مجلس متواضع في قصر الطين. كان المجلس شبه معتم، إلا من وهج الفوانيس، وأحاديث الحرّاس خلف الجدران. محمد بن سعود، رجل الصحراء وصاحب الطموح، نظر طويلًا في عيني ضيفه وقال:

"يا شيخ، يقول الناس إنك تكفّرهم."

ابتسم ابن عبدالوهاب بتأنٍ، كمن تعوّد على هذا السؤال، وردّ بصوت خافت لكنه حاد:

"يا أبا مقرن، لا أكفّر من قال لا إله إلا الله مخلصًا، لكنّي لا أساوم على التوحيد، ولا على إزالة الشرك، ولو كلفني ذلك حياتي."

صمتٌ طويل تبعه ارتشاف القهوة، ثم قال ابن سعود:

"وإذا نُصِرت دعوتك، فهل تكفّ يدك عن مالي وسلطاني؟"

ردّ ابن عبدالوهاب دون تردد:

"الدم بالدم، والهدم بالهدم، لكن ما لنا من غنيمة فهو لنا، وما لك من سلطان فلك إن نصرت الدين."

كان هذا بداية الميثاق: أن تكون الدعوة سلطة شرعية، وأن تكون الدولة سيفها التنفيذي.

لم يكن الاتفاق محض صدفة، بل خطة أُعدّت بدقة. لقد أدار محمد بن عبدالوهاب ظهره لحريملاء والعيينة، بعد أن طرده أهلها خشية الفتنة، ووجد في محمد بن سعود رجلًا عطشًا للشرعية والاتساع. ومن جهته، رأى ابن سعود في هذه الدعوة فرصة لتوحيد القبائل تحت راية "الدين الصافي"، لا حبًا خالصًا في التوحيد، بل لإسباغ القداسة على طموحه السياسي.

انتشرت البنود غير المعلنة للاتفاق كالنار في الهشيم:

- أن يُسمح لابن عبدالوهاب بالدعوة والإفتاء وتكفير من يراه مستوجبًا لذلك.
- أن تكون الأراضي المفتوحة غنائم تُقسَم، منها ما يذهب للدعوة، ومنها ما يعود لبيت المال.
- أن يُهدم كل ضريح، ويُمنع التبرك، وتُغلق حلقات الذكر الصوفي.

- **وفي روايات أخرى، قيل إن ابن سعود لم يُوقّع على الميثاق حتى ضمنت له زوجته، وكانت أختًا لابن عبدالوهاب، أن الأخير لن ينازع الأمير في حكمه ولا في ماله.**

كانت هذه اللحظة بداية الحلف الوهابي-السعودي الذي سيغيّر تاريخ الجزيرة. حُرِقت القرى، وهُدِمت القباب، وهاجرت عائلات كاملة من نجد خوفًا من التكفير والقتل. وفي المقابل، توسعت دولة آل سعود بسرعة غير مسبوقة، ووصلت جيوشهم إلى أجزاء من الحجاز والأحساء، ترفع راية "لا إله إلا الله"، لكنها تقاتل أحيانًا مسلمين لا يختلفون إلا في فقه فرعي أو تقليدٍ متوارث.

لم يكن محمد بن عبدالوهاب غافلًا عن الثمن. كان يعلم أن سيف ابن سعود لن يفرّق دومًا بين ضريح بدعة ومسجد جماعة، لكنه آمن بأن النقاء لا يُصنَع إلا بالنار. وكان محمد بن سعود يعلم أن دعوة الشيخ ستحمّله أوزارًا سياسية ودينية أمام خصوم الداخل والخارج، لكنه رأى فيها فرصة لحكم لا يُنازع عليه.

جاءت الوفود إلى الدرعية من كل مكان: فقهاء ليدافعوا أو يُعارضوا، شعراء ليمدحوا أو يهجوا، تجار يتوسلون لعدم مصادرة أموالهم باسم "الردّة"، ونساء تبكين قبور أمهاتهن وقد صارت ترابًا.

<u>وفي إحدى الليالي، نظر ابن عبدالوهاب إلى السماء، وهمس لنفسه:</u>

"لقد صعدت دعوتي على أكتاف جيش، فهل تظلُّ دعوة، أم تتحول إلى دولة؟ وهل بقي لي شيء من حلم البداية، أم أن السيف قد كتب النهاية؟"

أما ابن سعود، فكان يحتفل في قصره باتساع رقعته، وهو يقول لأحد خلصائه:

"الدرعية باتت أمّ الممالك. ومن تكلّم في الدين، وجد له شيخًا. ومن تكلّم في المال، وجد له أميرًا."

ووسط هذه التبادلات، وُلد حلفٌ سيُلعن في كتب بعض المؤرخين، ويُمجَّد في كتب آخرين، لكنه ظل حلفًا لا يعرف رماديًا.

كان ميثاقًا كُتب فوق الرمال، لكنه نُقِش في التاريخ بالحديد والنار.

الباب السابع: الحلف الملعون

الفصل الخامس: آخر الظل، أول النار

حينما غابت شمس اليوم الذي بايع فيه محمد بن عبدالوهاب الأمير محمد بن سعود على إقامة دولة "التوحيد"، لم يكن أحدٌ في الدرعية يدرك تمامًا أن شيئًا أشبه بالجمر قد دُفن تحت التراب، وأن هذه البيعة ستنقش على جبين الجزيرة العربية بلون الدم والدخان.

كان محمد بن عبدالوهاب في تلك الليلة يسير وحده في بستان مهجور، قريب من أسوار الدرعية، يتأمل نخلاً صامتًا وصخورًا تعرف خطاه كما يعرف هو حروف كتبه. لم يكن الليل قد اشتد بعد، لكن سكونه كان كثيفًا. كان يشعر أن العالم من حوله يتنصت، وأن كل ورقة تسقط في الظلام تهمس له بأسئلة لن يجيبها.

في ذهنه، لم تكن البيعة مجرد اتفاق سياسي؛ كانت تتويجًا لنبوءة روحية كان يراها في نفسه منذ أن وطأت قدماه أرض نجد مجددًا بعد أسفاره. كان يوقن أن الله اختاره ليعيد الدين إلى "صفائه الأول"، لكنه لم يكن يجهل أن الطريق إلى ذلك سيعبر فوق أجساد كثيرة.

في ذلك الوقت، بدأ الحلف يثمر ماديًا. زحف مقاتلو آل سعود على العيينة ثم على الحريملاء، وأُجبر الناس على إعلان البيعة وفق شروط الشيخ، وليس وفق رغبة الجماعة. في كل بلدة دخلها جيش "الدعوة والدولة"، كانت تُحطم القباب ويُجرف التراب عن قبور الأولياء، وتُحرق كتب التصوف، ويُطلب من الناس أن يجددوا إسلامهم.

ولم يكن هذا يُنفّذ دائمًا بسلاسة. في إحدى رسائله إلى أحد قادة الجيش، كتب محمد بن عبدالوهاب:

"أمهِلوا أهل البلد ثلاثة أيام، فإن أبَوا التوحيد وجب الجهاد فيهم."

ولم يكن مصطلح "الجهاد" عنده مقصورًا على الكفار أو المشركين حسب المعهود، بل صار يطال من يُحبّ وليًا، أو يقيم مولدًا، أو يتوسل بقبر نبي.

كتب المؤرخ العثماني عبد الغني النابلسي في حاشيته عن أخبار نجد:

"جاءنا نبأ عن قوم من نجد، يرفعون السيف على من يُنشد شعرًا في مدح النبي، ويجلدون من يطيل الصلاة عليه، وسمعنا أنهم يقولون: لا حب في الدين، الدين أمر ونهي ووعيد."

كان هذا الحلف في عمقه أشبه بمزادٍ مفتوح على السلطة، يتقاسمه رجل دين ومقاتل قبلي. محمد بن عبدالوهاب وجد في محمد بن سعود سيفًا، ومحمد بن سعود وجد في محمد بن عبدالوهاب غطاءً شرعيًا لكل توسع.

وكتب أحد أحفاد آل مشرف (أقارب محمد بن عبدالوهاب) في رسالة سرية وصلت لاحقًا إلى إسطنبول:

"ما عُرف فينا من يطلب الإمارة، ولا من يُقسم الناس إلى مسلم وغير مسلم على لسانه، إلا هذا الرجل. حتى صار الولد يكفر أباه إن صلى على النبي جهرًا، ويضرب أخاه إن مدح وليًا صالحًا."

بدأت عائلة محمد بن عبدالوهاب نفسها تنقسم عليه. أخوه سليمان بن عبدالوهاب ألّف كتابًا بعنوان الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية، وفيه قال:

"يا قوم، إن أخي ليس نبيًا، وليس معه وحي، فلم يُجعل الناس بين كافر ومسلم بحسب فهمه!"

محمد بن عبدالوهاب ردّ على أخيه بلطف في الظاهر، فكتب في إحدى رسائله:

"أخي سليمان أخطأ، وعذره الجهل."

لكن في المجالس، كان يُتهم سليمان بالضلال، وتُحظر كتبه، وتُلاحق مجالسه.

في هذا الفصل من التاريخ، كان الحلف يزداد غِلظة، وكان الدم يزداد جريانًا.

هُدمت قباب في الأحساء، وجُلد رجال في مكة حين امتدت الدعوة خارج نجد بدعم من ابن سعود.

في ذات مرة، حين وصلت أنباء إلى الشيخ أن أهل إحدى القرى أعادوا بناء قبة فوق قبر ولي، قال في خطبة الجمعة:

"إن من عاد إلى الشرك بعد دعوة التوحيد فقد ارتد، ويُستتاب، فإن أبى فالسيف له دواء."

وبدأ الناس يتساءلون: هل هذه دعوة إصلاح، أم إعادة تشكيل الإسلام وفق تصور ضيق؟

في إحدى الجلسات الخاصة، قال أحد كبار آل سعود للشيخ:

"يا شيخ، الناس يخافونكم أكثر مما يحبون دعوتكم."

فرد محمد بن عبدالوهاب:

"الخوف من الله إن جاء عن طريقي فذلك فضل، لا عيب."

ثم كتب في دفتره:

"ليس لي مع الناس رِقة من دون حدود. إن أقاموا على البدعة فلا حق لهم في الرحمة، لأن الله لا يرحم من أشرك."

لكن بين دفتي قلبه، كان صوت قديم يهمس: "هل نسيت يوم كنت صبيًا تبكي في حضن أمك حين تُخطئ؟ هل تُخطئ الأمة كلها ولا تبكي؟"

في تلك المرحلة، كانت أخبار الدرعية تملأ الآفاق. الحجيج يأتون من الهند واليمن ومصر، ويرون التغيير الجذري، ويعودون إلى بلادهم وهم بين مَن يدعو للدعوة الجديدة ومَن يحذّر منها.

في الهند، كتب أحد علماء ديوبند رسالة جاء فيها:

"رأيت القوم، لا يرحمون ضعيفًا، ولا يسمعون شافِعًا، الدين عندهم حدٌّ وسيف، وأما الرحمة، فأمر لا يُذكَر."

وفي القاهرة، كتب أحد الأزهريين:

"ما رأينا قومًا يجعلون العقيدة بابًا للموت، إلا هؤلاء."

لكن محمد بن عبدالوهاب كان ماضٍ في طريقه.

كتب في آخر رسالة أرسلها قبل موته:

"الحمد لله الذي مكّنني من إقامة دينه، ولو بسيف، فإن القلوب لا تنقاد إلا به."

وحين مات، لم يُغسله إلا خاصته، ودُفن في الدرعية دون أن تُشيع جنازته علنًا، خوفًا من الغضب، لا من الحزن.

وحين وقف أحدهم على قبره، قال:

"يا محمد، أيّ دينٍ أقمته؟ إنك مزّقتنا نصفين: نصف يراك نبيًا، ونصف يراك فتنة."

وسكت الهواء...

كأن الأرض نفسها لم تحسم أمرها بعد: هل مات رجلٌ صالح، أم حاكمٌ باسم الدين؟

الباب الثامن: النهاية التي لا تموت

الفصل الأول: الطوفان بلا سفينة

كانت الساعات التي تلت هزيمة الحلف الغربي - الوهابي في الشمال أشبه بما يُشبه الطوفان الذي لا ينتظر سفينة. بدت الأرض وكأنها تنقلب على ظهرها، والسماء ترقب هذا المشهد بصمت كئيب، فيما كان محمد بن عبدالوهاب يشعر أن ما بناه، لبنة لبنة، بدأ يتفكك تحت قدميه.

لم تكن الخسائر عسكرية فقط، بل كانت أعمق: انكسار الهيبة، تراجع الحاضنة، وانكشاف التصدعات التي لطالما غطاها بالنصوص. بات واضحًا أن ثمة فجوة بين خطاب العقيدة وشروط السلطة، بين الحماسة الأولى والنهايات المترجرجة.

في أحد أزقة الدرعية، عاد محمد بن عبدالوهاب إلى بيته، وأغلق عليه باب الغرفة التي اعتاد أن يخلو فيها للقراءة والكتابة. لكن هذه المرة لم يكن في نيته لا قراءة ولا كتابة. جلس على حصيره المتآكل، وأخذ يتأمل جدران المكان. صور الشهداء، رسائل التهنئة من أمراء القبائل، صفحات الكتب التي كتبها في فورة الحماسة... كلّها كانت تلمع في عينيه بوميض خاطف، ثم تختفي.

تساءل بصوت خافت: "أكان هذا كله لأجل الله... أم لأجلي؟"

كان وحده في الغرفة، لكن صدى السؤال بدا وكأنه يتردد في كل زوايا البيت. لم يكن هذا هو أول سؤال يشكك في دوافعه، لكنه هذه المرة بدا كأنّه يملك من الجرأة ما يكفي ليطرحه بصوت عالٍ.

استعاد شريط السنين: من العيينة إلى الحجاز، من البصرة إلى الأحساء، ومن هناك إلى الدرعية... كل تلك المدن، وكل تلك الخطابات، وكل تلك المواجهات التي شنّها ضد من اعتبرهم أهل الشرك والبدعة، كانت تمر

أمامه كما تمرّ لقطات فيلم طويل. لكن الجديد في هذا العرض، هو أن بطل الرواية بدا مترددًا، غير واثق من نهايته.

تذكّر أخاه سليمان بن عبدالوهاب، الذي كان أوّل من جادله وحاجّه، والذي كتب فيه كتابه الشهير "الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية". لطالما اعتبره محمد خصمًا لدعوته، لكن الآن... بدا له صادقًا على نحو مروّع. كيف لرجل أن يعارض أخاه ويقول له: "إنك فتنت الناس وضيّعت الأمة"، إن لم يكن يرى الخطر بعيْنه؟

تذكّر زوجته التي كانت في بدايات دعوته تسأله ببراءة: – "لماذا تغضب حين لا يؤمن الناس بكلامك؟ أليس الأنبياء صبروا؟"

فكان يرد بغضب: – "أنا لا أغضب لأني أُكذّب، بل لأني أُخذّل عن الحق."

لكنّه الآن يدرك أن شيئًا من ذاته كان يصرخ حين لا يُتبع، وكان يغضب حين تُرفض سلطته، لا حين يُرفض قوله.

أبناؤه... تذكّرهم واحدًا واحدًا. عبد الله، حسين، علي، إبراهيم... كلهم تربّوا على نصوصه، على أحاديثه، على تأويلاته. وكان يرى فيهم الامتداد الحي لدعوته. لكنه اليوم، وبعد كل ما جرى، بدأ يتساءل: "هل أورثتهم فهمًا... أم مشروع هيمنة مغلفًا بالدين؟"

فيما كانت الدرعية تستعد لجولة جديدة من النزاعات، حيث يتهيأ آل سعود لإعادة التموضع وتحالفات جديدة، كان محمد بن عبدالوهاب يتأمل خريطة الجزيرة العربية التي رسمها على جلد قديم في إحدى كتبه.

دوّن عليها بخط دقيق:

"التوحيد لا يُفرض، بل يُعرض. وإذا صار التوحيد شرطًا للنجاة السياسية، فلا بد أنه حُمّل ما لا يحتمل."

ثم كتب تحتها:

"أخاف أن أُسأل: هل كانت دعوتي حقًّا لله، أم كانت لله... وللدولة؟"

دخل عليه أحد أبنائه وسأله: – "أبتاه، هل سنبقى في الدرعية؟"

رد بعد لحظة صمت: – "الدرعية في قلوبنا، أما على الأرض... فالأرض لله."

خرج الابن، وبقي محمد وحده. كان يعلم أن هذا السؤال لم يكن عن المدينة، بل عن المصير. عن البقاء.

تذكّر تحالفه مع محمد بن سعود. يوم قدّم له بيعته المشهورة، وأعطاه وعده: "الدم دون الدين، والدرعية حصن لك وملاذ لدعوتك."

لكنّه أيضًا تذكّر الشروط التي فرضها، والقبائل التي أُجبرت على دخول طاعته، والبيوت التي أحرقت، والكتب التي أُتلفت.

كم شيخًا أُهين؟ كم قرية نُكّلت؟ كم روحًا خافت أن تُكفَّر إن لم تقل: "أنا على مذهب محمد بن عبدالوهاب"؟

جلس يكتب، لكن هذه المرة، كتب لنفسه:

"ليس أخطر من رجل يظن أنه يحمي الله من عباده، فيتحوّل هو إلى الله على الأرض.

لا أدري إن كنت هذا الرجل، لكني لا أستبعد ذلك بعد اليوم."

ثم مزّق الورقة.

في صباح اليوم التالي، جلس مع بعض تلامذته، وأملى عليهم فصلًا جديدًا من كتابه:

"باب: من جادل عن بدعة فقد أحبها، ومن أحبها فهو على خطر عظيم."

سأله أحد التلاميذ: – "يا شيخ، وما حال من ارتكب البدعة ولم يجادل عنها؟"

فقال: – "نخشى عليه، وندعوه للحق، ولا نكفره حتى تقوم عليه الحجة."

ابتسم التلميذ وقال: – "هذا قولك، أم قول العلماء؟"

أجابه بهدوء: – "كان قول العلماء، فصار قولي."

ثم أضاف: – "لكن لعلي أرجع إليه قبل أن أُسأل."

الباب الثامن: النهاية التي لا تموت

الفصل الثاني: رحلــة لا تعــود

حين سقط محمد بن عبدالوهاب في فراشه الأخير، لم يكن صدى معاركه الفكرية قد خفت بعد. كان الشيخ العجوز قد تجاوز التسعين من عمره، جسدٌ أنهكته السنين، وعقلٌ لم تهدأ فيه رياح التبرير، ولا أسئلة التردد.

كانت حرارة الصيف تلفح البيوت الطينية في الدرعية، وكان صوته بالكاد يُسمع في المجالس، لكنه ظل حاضرًا، يشرف، يوجّه، ويؤنّب حتى وهو على سريره.

في تلك الأيام الأخيرة، كان محاطًا ببعض تلامذته، وأولاده الذين سار بعضهم على نهجه، فيما تنكّر له آخرون بصمت، لم يكونوا يجرؤون على إعلانه، فقد تجاوز نفوذه حدود الفقه... إلى السياسة، ومن السياسة إلى الحكم ذاته.

من حوله، بدأت الدولة التي قامت على تحالفه مع آل سعود تكبر وتتعاظم. وها هو عبدالعزيز بن محمد بن سعود، الذي صار إمامًا للدولة، لا يقطع أمرًا دون استشارته، ولا يُسيّر جيشًا دون فتاواه.

ومع ذلك، لم يكن أحد يعرف إن كان محمد بن عبدالوهاب، وهو يحدق في السقف المتهالك، يشعر بالفخر... أم بالقلق.

في الأيام الأخيرة، زاره حفيده عبدالله، شابٌ ذكي، لم يكن على انسجام كامل مع طريقة جده. جلس عند قدميه وقال:

«جدي، يقول الناس إنك كفّرت أهل الأرض، وإنك لم تُبقِ لأحدٍ شفاعة ولا توبة، ولا حتى ظنًا بالخير...»

تنهد الشيخ ببطء، وصوته بالكاد يُسمع:

«الناس يقولون كثيرًا... لو علموا ما أعلم، لسكتوا.»

«لكنهم يتحدثون يا جدي... عن دماء، عن غزوات، عن قُرى أُحرقت، ومساجد هُدمت، وشيوخٍ شُهِّر بهم، وأطفال يتامى... كل هذا باسمك.»

كان محمد بن عبدالوهاب يحدّق في وجه حفيده كمن يرى نفسه في مرآة أصغر.

«لم يكن ذلك باسمي يا بني... بل باسم الله.»

لكنّ عبد الله قال بتردد:

«أم باسم السلطة؟»

لم يجب. أغلق عينيه لحظة، كأنما يريد أن يعود إلى بداية الطريق، إلى ذلك الفتى الذي خرج من العيينة يطلب العلم، ويستنكر التبرك بالأشجار، وينكر على الطائفين حول القبور.

في الليالي الأخيرة، بدأ يهمس بكلمات غريبة:

«لم أطلب الدنيا... لكنها ركضت إليّ»

«ما أشد فتنة السلطة إذا اقترنت بالدين... تبرر كل شيء، تغفر كل شيء، وتسميه دعوة»

«كان عليّ أن أكتب بمدادٍ آخر... لا مداد الخوف، ولا مداد الغضب»

سمعه أحد أبنائه يبكي عند الباب، لم يجرؤ على الدخول. كان يدرك أن والده ليس مجرد رجل دين، بل مؤسس عقيدة، وصاحب إرث سيُقاتَل باسمه وتُسال دماء لأجيال قادمة.

وفي اليوم الأخير، حين ثقلت أنفاسه، قال بصوت مرتجف:

«يا رب... أنت تعلم أنني دعوتك، لا دعوت نفسي... لكن إن زاغت دعوتي عن طريقك، فامحُ اسمي من لوح الذاكرة، وابقِ دينك...»

ثم رفع سبابته، كما لو كان يودّع الأرض التي لم تغفر له، ولا هو غفر لها.

بعد وفاته، لم تُرفع له جنازةٌ كأحد العاديين، بل شيّعه أتباعه كما يُشيّع الأنبياء.

لكن في صمت الدرعية، في زوايا المساجد التي هُدمت على شبهة البدعة، في وجوه الشيوخ الذين كُفّروا، والأمهات اللواتي بكت أبناءهن ممن سقطوا في غزوات "التوحيد"... كان هناك سؤالٌ يتردّد دون صوت:

«هل مات محمد بن عبدالوهاب... أم بدأ لتوّه؟»

من مكة إلى نجد، ومن الدرعية إلى عُيينة، كانت الأحاديث لا تتوقف، كتبٌ تُنسخ، فتاوى تُعمم، مقابر تُنبش، قبور تُسوّى بالأرض، وكل ذلك يُقال إنه "بأمر الشيخ" حتى بعد موته.

لكن أكثر ما أرّق الذين عرفوه جيدًا، أنه لم يترك خلفه إجابة واضحة عن سؤالي البداية:

«أأنا الذي يقود الدعوة؟ أم الدعوة هي التي تقودني؟»

كان لبعض أبنائه رأيٌ مخالف. كتب أحدهم لاحقًا:

«رحم الله والدي، لقد كان قويًا في ظاهر أمره، لكنه كثير البكاء في خلواته... يردد دومًا: اللهم لا تجعلني فتنة... اللهم لا تجعلني فتنة.»

لكن الفتنة، كما بدا، لم تكن في شخصه فقط، بل في الفكرة التي أشعلت فتيلها، ثم خرجت من يده... وأصبحت مشروعًا سياسيًا باسم الدين.

<u>أما خصومه، فلم يتأخروا عن رسم صورة أخرى له. بعضهم كتب:</u>

«كان رجلًا يطلب الحكم من طريق العقيدة، أراد أن يحكم الناس بسلطة الله، لا ليعلي كلمته، بل ليُسكت كل معارض.»

<u>كتب آخر:</u>

«بنى مذهبه على تكفير المخالف، فلا عجب أن تسرّبت الدماء من كتبه قبل سيوف أتباعه.»

وفي كل ذلك، ضاع الرجل بين من جعله "مجدد الدين" ومن جعله "مبدد الأمان".

هكذا انتهت حياته... أو لعلها بدأت من جديد.

في كل قرية يهدم فيها مزار، في كل فتوى تُخرج المسلمين من الملّة، في كل طفلٍ يُلقن أن من يخالفه كافرٌ أو مبتدع، في كل جندي يسير باسم "الولاء والبراء"... كان هناك ظلٌ طويلٌ يُلقيه قبره.

ظلّ لا يموت.

في ختام الفصل، كتب أحد المؤرخين الذين شهدوا نهايته:

«كان يمشي وهو يعلم أن التاريخ ليس عدلًا، لكنه حاول أن يكتبه بقلمه لا بقلم خصومه... فهل نجح؟ أم أن القلم احترق قبل أن يُغلق الدفتر؟»

الباب الثامن: النهاية التي لا تموت

الفصل الثالث: ظلال لا تنطفئ

بعد أن انطفأ جسد محمد بن عبدالوهاب، لم ينطفئ أثره. بل بدا وكأن وفاته فتحت الباب أمام عهد جديد من صراعات التفسير، واحتكار الحقيقة، وارتجاف الهوية الدينية أمام سلطانٍ خفي يتسلل من الكتب إلى العروش، ومن الفتاوى إلى فوهات البنادق.

لم يُدفن محمد بن عبدالوهاب كشخصٍ فحسب، بل كرمزٍ محمّلٍ بوزن قرون. وكان قبره، رغم بساطته، يثير من الجدل ما لم تثره قبور الملوك.

لم يكن الناس يسيرون على تراب الدرعية كما كانوا من قبل. أصبحت الطرقات تُشبه الأزقة التي مرّ بها ذات يوم، فحوّلها إلى مسالك لـ "نهي عن المنكر"، وأسواق أُغلقت باسم "الشبهة"، وأضرحة اندثرت تحت معاول "البدعة".

في الأشهر الأولى بعد وفاته، بدأ عبدالعزيز بن محمد بن سعود، الرجل الذي أصبح إمام الدولة، بإعادة تشكيل المشهد بالكامل. لم يكن عبدالعزيز رجل دين، لكنه كان ابن اللحظة السياسية الذكية. كان يعرف أن الحفاظ على سلطة الدولة لا يتم عبر السيوف وحدها، بل عبر العمائم التي تعطي للدم شرعية، وللإقصاء اسمًا مقدسًا.

جمع فقهاء الدعوة، وأعاد ترتيب أوراق النفوذ. لكن شيئًا كان مقلقًا في الهواء... الإرث الثقيل الذي تركه محمد بن عبدالوهاب لم يكن إرثًا بسيطًا، بل كان تيارًا بأكمله، مكتوبًا وموثقًا، يُدرّس ويُحفّظ، ويُطبع في صدور الأطفال.

أما تلامذته، فقد انقسموا بصمتٍ إلى معسكرين:

الأول، أتباع مخلصون يرون أن الشيخ لم يمت، بل خلّد دعوته في الأرض، وأن على الدولة أن تمضي قدمًا في نشر "رسالة التوحيد" كما فهمها هو، بلا مهادنة ولا توقف.

والثاني، أكثر حذرًا، وأقل صخبًا، بدأوا يتهامسون:

«هل بالغ الشيخ؟ هل تحوّل الحزم إلى غلو؟ هل كانت جميع الغزوات حقًا ضد "الشرك"، أم أن بعضها كان ضد من قال: لا؟»

لكن تلك الأسئلة، في عهد عبدالعزيز، لم تكن مرحّبًا بها. فمن يخالف يُتهم بالريبة، ومن يتردد يُشمّ في نَفَسه "ضعفٌ في العقيدة".

ثم جاء عام ١٨٠٣، وحمل معه مشهدًا عنيفًا:

غزا عبدالعزيز مكة، ورافق الغزو أتباع الدعوة. دخلوا الحرم، وهدموا كل ما لا يوافق تفسيرهم "للتوحيد الخالص". سُلبت خزائن الحرم، وقطعت رؤوس من سمّوهم "مشركين"، وحُذفت طبقات من الذاكرة الشعبية في مكة باسم "تطهير الدين".

ولم يكن المشهد أقل رعبًا في الطائف، حين اجتاحها مقاتلو الدولة، ووقعت مجزرة في أهلها، سُمّيت لاحقًا في كتب الخصوم بـ"مجزرة الطائف الكبرى".

وفي كل ذلك، كان اسم محمد بن عبدالوهاب يُتلى، لا باعتباره الفقيه الميت، بل الملهم الحي. كانت كتبه تُحمل كوثائق حرب، وفتاواه تُقرأ على أبواب المدن قبل اقتحامها.

في المدينة المنورة، بدأ السكان يتوجسون. كانوا يخشون أن يحلّ عليهم ما حلّ بمكة. وبدأت رسائل علماء المدينة تصل إلى الدولة العثمانية، يستغيثون، ويطلبون التدخل لوقف "الزحف الوهابي".

في تلك الرسائل، يظهر توصيف جديد:

«فرقة خرجت من نجد، تكفر المسلمين، وتستحلّ دماءهم، وتنتسب إلى رجل يدعى محمد بن عبدالوهاب...»

هكذا بدأت الدعوة تُرى من خارجها: لا كإصلاح، بل كخطر، لا كصحوة، بل كمحرقة.

في هذا المناخ، نشأ جيلٌ جديد، لا يعرف محمد بن عبدالوهاب إلا في صورته النمطية: المجدد... أو المهدم، بحسب موقع القارئ.

لكن واحدًا من حفدته، شاب اسمه "حسين بن محمد"، كان أكثرهم اضطرابًا.

كان حسين قد قرأ كل ما كتبه جده، لكنه تساءل:

«هل يمكن لنصٍّ ديني أن يعيش بلا سياق؟ هل من العدل أن نقاتل الناس بتأويل شيخ، ونجعل من فهمه للآية قانونًا؟»

وحين سمع بجده يُمدح في المجالس، قال لأحد أصدقائه:

«قد يكون جدي مخلصًا في قصده، لكن ماذا عن نتائج أفعاله؟ هل سيسأل يوم القيامة عما كتب... أم عما فُعِل باسمه؟»

لكن لم يكن مسموحًا بمثل هذه الأسئلة.

في أحد المجالس، دار حوار بين عالم نجدي اسمه عبد الرحمن بن حسن – حفيد الشيخ – وبين زائر من مكة:

- «أتقولون إن الشيخ هو المجدد؟»
- «بل هو منقذ التوحيد من الشرك.»
- «لكن التوحيد لم يكن غائبًا في مكة، ولا في المدينة، ولا في الشام، ولا في مصر... فلماذا استبحتم الدم؟»
- «التوحيد عندنا ليس هو التوحيد عندهم.»
- «وهل لله أكثر من توحيد؟»

لم يجب عبد الرحمن، بل التفت وقال:

«أنت تسأل بلسان الخصم... لا بلسان المؤمن.»

وهكذا، ومع مرور الأعوام، ظل أثر محمد بن عبدالوهاب يتردد في كل مشهدٍ يُطلق فيه الحكم على الناس بناءً على ظاهر فعل، أو يُؤسس فيه منهج إقصائي يُقصي المخالف بفتوى، أو يُشرّع العنف الديني باسم "المناصحة".

وسواء رضي بذلك أو لم يرض، فقد تحوّلت دعوته إلى مشروعٍ مركّب، اختلط فيه الإيمان بالحكم، والسجادة بالكرسي، والآخرة بالسلطة.

وبينما ظنّ البعض أن نهاية محمد بن عبدالوهاب كانت وفاته، رأى كثيرون أن نهايته بدأت لحظة تحوّلت دعوته من اجتهاد إلى يقين مطلق، ومن فهمٍ بشري إلى وحيٍ غير منزل، ومن نصيحة إلى راية حرب.

في ختام الفصل، كتب أحد المؤرخين الحجازيين، في كُتيب صغير طُبع في الهند:

لم يمت محمد بن عبدالوهاب، بل أعيدت صياغته... قُدّس في موطنه، ورُجم في خصومه، لكن الحقيقة، كما نراها، أن الشيخ كان بشرًا، اجتهد،

وغلب عليه الهوى، ووقعت في عصره فتنٌ عظيمة، كان أولها: أن ظنّ أحدهم أنه وحده على حق.

الباب الثامن: النهاية التي لا تموت

الفصل الرابع: اللعنة المقدسة

كان وقع الكلمات الأخيرة في كتيب المؤرخ الحجازي كضربة ناقوس في فجر خامل. انتشرت نسخ الكتيب بين الحجاج والتجار، تسلل إلى حارات مكة، وتداولته الألسن في المدينة، حتى وصل إلى نجد خفيةً كما تصل الرسائل الممنوعة. لم يكن ما كُتب فيه جديدًا، لكنه كان جريئًا، صادمًا، وجاء في لحظة كان الناس يتوسدون فيها صورة الشيخ وكأنها مرآة لا تعكس سوى النقاء والطهارة.

لكن الحقيقة كانت قد بدأت بالتسرب، لا كثورة، بل كشكّ، كاهتزاز خفي في إيمانٍ بنيَ على يقين مطلق.

في الدرعية، كان عبد الله بن سعود قد ورث الإمامة بعد اغتيال والده عبد العزيز بن محمد على يد أحد الحجاج الشوام في مكة عام ١٨٠٣. كانت الطعنة التي أودت بحياة الإمام ليست مجرد ردّ فعل فردي على الغزو الوهابي لمكة والطائف، بل تعبيرًا عن احتقانٍ دام سنوات.

عبد الله لم يكن كوالده، لا دهاءً ولا قبضة، ومع أن مشايخ الدعوة التفّوا حوله، إلا أن السلطة صارت أثقل من أن يحملها دون تصدّعات.

في حلقات العلم، بدأ التلاميذ يسألون أسئلة لم تكن تُطرح من قبل:

– «هل يكفي أن نسمي الآخر مشركًا لنباح عليه السيوف؟»

– «أين تقع الرحمة في كتب جدنا الشيخ؟»

– «هل كل أهل الأرض ضلّوا ونحن وحدنا على الصواب؟»

في البداية، كانت هذه الأسئلة تُكبح بالصمت، ثم بالوعظ، ثم بالتخويف. لكن حين لم ينفع شيء، عاد خطاب التهديد والوعيد، هذه المرة باسم الدولة لا باسم الدين فقط.

في المقابل، كان السلطان العثماني محمود الثاني يتلقى تقارير دورية من الشام والحجاز، وكلها تتحدث عن التمدد الوهابي. فالدولة السعودية الأولى لم تعد مجرد كيان محلي، بل تهديد صريح للسيادة العثمانية في الحجاز.

حين سقطت كربلاء بيد الوهابيين عام ١٨٠٢، لم تكن الخسارة عسكرية فحسب، بل دينية ورمزية. جرى نهب المدينة، وقتل المئات، وهدم الأضرحة، بما فيها ضريح الإمام الحسين. انتشرت القصص بين المسلمين من الهند إلى المغرب، وتحوّل اسم محمد بن عبدالوهاب من رمز للتجديد إلى رمز للهدم والتكفير.

كان القرار قد نضج في إسطنبول. أمر محمود الثاني والي مصر، محمد علي باشا، أن يتحرك. لم يكن اختيار محمد علي عشوائيًا، فقد كان رجلًا ذا طموح، ذكيًا، حازمًا، ويبحث عن شرعية توسعية. فرأى في مواجهة الوهابيين فرصة لتوسيع نفوذه بإذن الدولة، وتحقيق مكسب سياسي يرفع اسمه في سجل التاريخ.

بدأ الزحف.

قاد حملةً أولى بقيادة ابنه طوسون باشا، فدخل الحجاز، واستعاد مكة والمدينة. ثم أُتبعت بحملة ثانية قادها ابنه الأكبر إبراهيم باشا، وهذه كانت الأعمق، والأقسى.

زحف الجيش المصري عبر صحراء نجد، مدعومًا بالعتاد الأوروبي والتكتيك الحديث، في مواجهة جيوش الوهابيين التي كانت تقاتل تحت رايات مكتوب عليها: "لا إله إلا الله".

الرايات كانت واحدة، لكن التأويل مختلف، والنية مختلفة، والدم واحد.

في كل قرية ومدينة يدخلها إبراهيم باشا، كان يجد آثار دعوة محمد بن عبدالوهاب محفورة في الناس: فتوى هنا، جدار كتب عليه حديث هناك، مؤذنون يلعنون المخالفين، وقصص عن قبور هُدمت ومقامات دُفنت.

كانت الدولة قد نجحت في تحويل دعوة دينية إلى بنية حياتية. لم يعد الناس يعرفون إسلامًا غيره. فحين دخل إبراهيم باشا بعض القرى، سأل شيخًا من أهلها:

«منذ متى تتبعون هذه الدعوة؟»

فأجابه الشيخ وقد انحنى ظهره:

«منذ أن صار الدعاء على النبي بدعة... والبكاء على الموتى شرك... والرحمة تُعطى بشروط الفقهاء.»

في عام ١٨١٨، وبعد معارك ضارية، حوصرت الدرعية.

صمدت شهورًا، لكن القصف، والقطيعة، والجوع، وفقدان الحلفاء جعلها تتهاوى شيئًا فشيئًا. في نهاية المطاف، دخلها إبراهيم باشا، ووقعت الدولة السعودية الأولى.

دُمّرت الدرعية عن بكرة أبيها. أُحرق القصر، وهُدمت البيوت، وأُعدم قادة الدولة. أما الإمام عبد الله بن سعود، فقد أُرسل إلى إسطنبول، وهناك، في مشهدٍ يحمل رمزية نهاية "الحلف الملعون"، أُعدم علنًا في ساحة آيا صوفيا.

لكن ما لم ينتهِ هو اسم محمد بن عبدالوهاب.

رغم انهيار الدولة، ظل اسمه حيًا في القلوب. صار البعض يراه شهيدًا، وآخرون يرونه كارثة. واختلفت التفاسير حتى بين أبنائه وأحفاده.

فالحفيد سليمان بن عبد الله كتب رسائل تؤكد على نقاء منهج جده، ودافع عنه بشراسة، حتى بعد سقوط الدولة. بينما حفيد آخر، لم يعلن التبرؤ، لكنه اتخذ موقفًا صامتًا، مكتفيًا بالعلم دون السيف.

في هذه المرحلة، بدأت أوروبا تراقب.

فقد أثارت الدعوة الوهابية انتباه المستشرقين. كتب عنها "رايتر" و"بوركهارت" و"بلجراف"، وبدأ يظهر في كتبهم وصفها بـ"الإصلاح الإسلامي المتشدد"، ثم بـ"السلفية المتزمتة". لكن بعضهم، ممن زاروا نجد، كتب بدهشة:

«إنهم أناس طيبون، لكن عيونهم لا تضحك، وكأنهم يرون في الضحك نقصًا في التوحيد.»

في المخيال الشعبي العربي، بدأت الحكايات تتشكل.

منها حكاية عن بدويٍ دخل على محمد بن عبدالوهاب يومًا فقال له:

«يا شيخ، يقولون إنك كفّرت الناس كلهم.»

فأجابه الشيخ:

«بل أرجو أن أكون هديتهم إلى الصواب.»

فقال البدوي وهو يغادر:

– «الصواب الذي يُراق بسببه الدم... أهو صواب أم قدر؟»

<u>وتبقى "اللعنة المقدسة"، كما أسماها أحد المؤرخين المصريين لاحقًا، تتردد:</u>

- **هل كان محمد بن عبدالوهاب مُجدّدًا سعى إلى نقاء الدين، أم رجلًا أراد أن يكون نبيًا في عصرٍ لا أنبياء فيه؟**
- **هل كان مخلصًا، أم مدفوعًا برغبةٍ جامحة للسلطة تحت قناع الإصلاح؟**
- **هل كانت دعوته ضرورة... أم خطأً لم تصحّح تبعاته حتى بعد قرنين؟**

في نهاية هذا الفصل، يُسجل مؤرخ من بلاد الشام، عاش لاحقًا في القرن العشرين، هذه الجملة:

«لم يكن محمد بن عبدالوهاب هو المشكلة... بل كانت المشكلة أن من بعده اعتبره آخر من سيفهم الدين.»

الباب الثامن: النهاية التي لا تموت

الفصل الخامس: القرن الذي تأخر عن موته

في أعقاب سقوط الدرعية، ساد ظنٌ واسع أن قصة محمد بن عبدالوهاب قد طُويت إلى الأبد، وأن سيف دعوته قد انكسر إلى غير رجعة. ولكنّ هذا الظن لم يدم طويلًا، فقد بدت الدعوة كأفعى قطعت رأسها، لكنها احتفظت بعضلاتها حيّة، تتحرك تحت الرمل، تنتظر من يبث فيها نفسًا جديدًا.

في الخفاء، كان بعض أتباع الدعوة – من طلاب العلم والمريدين وأحفاد الشيخ – يجتمعون ليلًا في شعاب الوشم وسدير، يتهامسون حول إعادة بناء ما سقط. كانت الخطب التي خُطبت أيام الدولة الأولى قد نُسخت ووزعت سرًا، وكتب التوحيد والشروط الستة ورسائل التكفير طُبعت بخط اليد في أوراق نخيل أو على جلد الماعز، تُخبّأ في جرار الطين وتُمرّر كما تُمرر الرسائل السرية.

سليمان بن عبد الله آل الشيخ، حفيد محمد بن عبد الوهاب، كان أبرز من تبقّى من بيت الدعوة بعد سقوط الدولة. عاش مرحلة المطاردة والسجن، لكنه لم يتراجع. كتب رسائل حارقة يؤكد فيها أن الدولة لم تسقط بل "ابتليت"، وأن أهل نجد ما زالوا "حملة النور في ظلمات الشرك"، وأن إبراهيم باشا، بجيشه وعتاده، "جاء كما جاء أبرهة، ليهدم البيت، لكن البيت باقٍ حتى وإن هُدّ جدارُه."

وكان المقصود بالبيت: دعوة الجد.

في تلك الأثناء، كانت الأنظمة المجاورة، من الحجاز إلى العراق، تراقب وتخشى. فحتى بعد الهزيمة، لم تختفِ آثار الفكر الوهابي: في التعليم، في المساجد، في العادات الاجتماعية التي تغيرت، وفي النظرة للآخر التي أصبحت أكثر حدّة.

رجلٌ من الشام، زار نجد بعد سقوط الدولة، كتب في مذكراته:

"لا ترى قبورًا عالية، ولا تسمع أذانًا فيه شدوٌ أو ترنيم، ولا يُحتفل بمولدٍ أو يُزار وليّ. لقد هُدّ ما كان يُبنى منذ قرون. وبدا الناس وكأنهم تخلّوا عن طقوس الرحمة واستبدلوها بطقوس التحذير."

لكن الغريب أن هذا الفكر الذي نشأ في قلب نجد، لم يلبث أن تمدّد من جديد مع صعود الدولة السعودية الثانية، ثم الثالثة لاحقًا. فحين استطاع عبد الرحمن بن فيصل، آخر حكام الدولة الثانية، أن يُبقي على شعلة الدعوة موقدة من خلال التنقل واللجوء، فإن ابنه عبد العزيز آل سعود – الذي سيعرفه العالم لاحقًا باسم الملك عبد العزيز – أعاد بناء الدولة على ذات الركيزة.

محمد بن عبد الوهاب لم يُذكر اسمه في الخطابات الأولى، لكنه كان حاضرًا في كل بيت، وكل معركة، وكل صفقة تحالف. كانت راية الدولة الجديدة مكتوب عليها الشهادتان، لكن خلف الراية، سارت كُتب الجد.

فُتح الباب أمام تجديد الحلف بين السيف والمنبر، بين الحُكم والفتوى.

وجاء علماء آل الشيخ، أحفاد محمد بن عبدالوهاب، ليكونوا القِبلة الفقهية للنظام الوليد. لم يكونوا مجرد فقهاء، بل شركاء في الحكم، حُراسًا لعقيدته، ومهندسي ولائه. واستعاد المنبر صوته القديم: التوحيد، البراء من الشرك، هدم القبور، منع البدع، مراقبة الإيمان حتى في خفايا القلوب.

قال أحد الإنجليز، وهو يكتب تقريرًا من الرياض في أوائل القرن العشرين:

"هؤلاء القوم لا يحكمهم ملك فقط، بل يحكمهم تفسير محدد للإسلام. لم أرَ مثل هذه السيطرة للفكرة الدينية على تفاصيل الحياة، منذ زمن الكنيسة في العصور الوسطى."

وكان يقصد بذلك: الوهابية.

ومع بزوغ القرن العشرين، كان الحلف بين آل سعود وآل الشيخ قد اكتمل من جديد، لكن هذه المرة بدعم خارجي غير مسبوق. البريطانيون، ثم لاحقًا الأميركيون، رأوا في الدولة الوليدة ركيزة استقرار في جزيرة العرب، فرعموها وأمدوها بالسلاح والاتفاقيات.

لكن هذا التمدد لم يكن بريئًا.

فالوهابية لم تعد فقط دعوة محدودة تنتقد البدع أو تصحح العقائد، بل صارت منهجًا حاكمًا، يسائل، ويكفّر، ويقصي. وبدلاً من أن تُطوى صفحة محمد بن عبدالوهاب كحلقة تاريخية، أعيد طبع كتبه، وتوسيع مدارسه، وتصدير فكره إلى أصقاع الأرض، مدعومًا بمال الدولة، وسلطتها، وذهبها الأسود.

<u>قال أحد المستشرقين في منتصف القرن العشرين:</u>

"لم أرَ رجلًا تمتد ظلاله أكثر من قرنين بعد وفاته، ويُستخدم فكره سلاحًا ناعمًا في كل بلد يدخله النفط السعودي، كما رأيت في الوهابية."

في الوقت ذاته، بدأ التململ من الداخل.

كتب محمد ناصر الدين الألباني، أحد كبار السلفيين لاحقًا، نقدًا غير مباشر لبعض تطبيقات الوهابية. قال إن التكفير سلاح خطير، وأن السنة لا تعني أن نعيش في كهف بلا اجتهاد. وبدأت أصواتٌ أخرى تظهر، تسائل لا أصل الدعوة فقط، بل نتائجها السياسية والاجتماعية.

لكن كانت الآلة قد اشتغلت.

المناهج التعليمية، الدعوة العالمية، المؤسسات الدينية، الخطب، التلفاز، حتى المساعدات الخارجية... كل ذلك كان يدار عبر عدسة وهابية واحدة.

وفي قلب هذا المشهد، ظل اسم محمد بن عبدالوهاب يتردد.

أحبه من رأى فيه مصلحًا، وكرهه من رأى فيه مدمرًا، وتوسط فيه من رآه مجرد ابن عصره. لكن لم يعد أحد قادرًا على إنكار أن هذا الرجل، الذي خرج من بلدة "العيينة"، استطاع أن يُعيد تشكيل الدين في منطقة بأكملها، لعقود – بل لقرون.

في نهايات القرن العشرين، بدأ الغرب نفسه يدفع ثمن تحالفه مع الفكر الذي رعاه يومًا.

حين ظهرت الجماعات المتطرفة التي غذّت نفسها بأفكار التكفير والهدم والنقاء العقدي، عادت الأصابع تشير إلى الجذر الأول: كتب محمد بن عبدالوهاب. حتى أن بعض قادة الاستخبارات الأميركية كتبوا تقارير مفصلة تحت عنوان: "الوهابية والدم"، تحدثت عن العلاقة بين النصوص القديمة والتفجيرات الحديثة.

<u>لكن في المقابل، وقف المدافعون عن الشيخ قائلين:</u>

- **"إنه لم يدعُ للعنف، بل للتوحيد!"**
- **"إن كتبه حُرّفت أو استُخدمت خارج سياقها!"**
- **"إنه لا يتحمل مسؤولية من تأوّل فكره خطأ!"**

وبقي الجدل مفتوحًا.

في النهاية، لم يمت محمد بن عبدالوهاب كما يموت الآخرون.

لم تُغلق قصته في قبره، ولم تُمحَ مع سقوط الدولة الأولى.

بل صار رجلًا يُستدعى كلما أرادت سلطةٌ تثبيت وجودها، أو جماعةٌ إعادة تأويل التوحيد، أو حركةٌ نفي الآخر.

هكذا، انتهى جسد الرجل...

لكن فكره بقي في صراعٍ طويل مع العالم، ومع نفسه أحيانًا.

«كل من يحكم باسم الله، لا يموت بسهولة. لأن الموت لا يزور الآلهة... إلا إذا أنكرها الناس.»

من مخطوط نادر لأحد أبناء الأحساء، وجد لاحقًا في خرائب الدرعية.

الباب التاسع: مرايا النار والظل

الفصل الأول: المرايا المكسورة

كان الظلام قد بدأ يتسلّل إلى أروقة الدرعية، مثل دخانٍ بلا نار، حين جلس عبدالعزيز بن محمد على حافة سجّادته، يرمق الغبار المتراكم فوق السيف المُعلّق في صدر مجلسه.

السيف كان هدية قديمة من أحد سلاطين نجد، يوم كانت الدولة تحبو، يوم كان محمد بن عبدالوهاب جالسًا على ذات السجادة، يشرح له الفرق بين الولاء لله والولاء للناس.

لكنّ عبدالعزيز لم يعد يرى في السيف رمزًا للعدل. بل صار يراه مرآة مكسورة، تعكس ما تبقّى من فتات التحالف.

فالعلاقة بين السيف والمحبرة بدأت تتصدّع. وصار الدم أسرع من الفتوى.

كان محمد بن عبدالوهاب قد بلغ من العمر عتيًّا. الشيب في لحيته لم يكن فقط أثر السنين، بل أثر القلق أيضًا، القلق الذي سكن قلبه مذ بدأ يرى أن ما كان دعوة صار دولة، وما كان إصلاحًا صار قهرًا.

في صيف تلك السنة، اجتمع حوله أبناؤه، وأصهاره، وبعض تلاميذه، بعدما تسلّل إليه مرضٌ غامض. الحمى تنهشه، والهلوسات تتراءى له في لياليه.

قال لابنه عبد الله بن محمد، بنبرة مُنهكة:

"كنا نكتب لله، يا عبد الله... ثم بدأنا نكتب لنحكم، ونُبعد، ونقمع."

لكن عبد الله، وقد صار مفتيًا معتبرًا، لم يجب. اكتفى بالنظر إلى الأرض.

كان يعلم أن والده لم يعد يحتمل.

في تلك الأيام، لم تعد الخطب كما كانت. صارت تكتب على مقاس السلطان لا على ميزان القرآن. والفتوى التي كانت تُنقّح بالسهر، صارت تُكتب على عجل، وترسل مع رسولٍ إلى الجبهة.

الجبهة؟ نعم، كانت هناك جبهات.

ففي الأحساء، كان القتال مشتعلاً ضد الشيعة، بحجّة "تطهير الأرض من مظاهر الشرك". وفي الحجاز، كانت دعوة محمد بن عبدالوهاب تُتلى في المساجد، ويُقتل على إثرها بعض العلماء الذين خالفوها.

وبينما المحبرة في صدر الشيخ تجفّ، كانت السيوف في صدر الدولة تتلمّع.

في أحد الأيام، دخل عبد العزيز عليه وهو ممدّد على فراشه. قال له بصوتٍ خفيض:

"يا شيخ، لقد توسّعنا. دخلنا الطائف ومكة..."

لكن محمد لم ينبس بكلمة. أغلق عينيه، ثم تمتم:

"أتوسّعنا في الأرض؟ أم في الخصومة مع الناس؟"

<u>ردّ عبد العزيز:</u>

"بل في التوحيد."

فقال محمد:

"التوحيد لا يدخل مع السيوف. بل يدخل مع الدعوة، والرفق، والحجة."

لم يجب الأمير، لكنه فهم. فهم أن الشيخ لم يعُد راضيًا عن الوجه الجديد للدعوة.

وبينما كان الشيخ يضعف، كانت نبرة الفتاوى تشتدّ. أُصدرت فتوى بتكفير قبائل بأكملها، فقط لأنها رفضت البيعة. نُهبت بيوت، وقطعت رؤوس.

كان عبد الله، ابن الشيخ، يُراجع بعض تلك الفتاوى، ويقول لأبيه:

"يا والدي، هذه الفتاوى تُنسب إليك، وأنت لم تكتبها."

فيرد الشيخ:

"بل كتبها من تشربوا لغتي، ولم يتذوقوا قلبي."

في آخر أيامه، أوصى الشيخ أن يُدفن بلا مظاهر. بلا خطبة. بلا موكب.

وقال:

"من عاش للدين لا يُشيّع كملك."

لكنهم لم يسمعوا وصيته كاملة. فقد شُيّع كرمز، لا كداعية. وبُني له مقام، وإن سُمّي قبرًا.

مرّت السنون، وازدادت المرايا المكسورة في دروب الدعوة.

صار اسم محمد بن عبد الوهاب يُستخدم في صكوك القتال، وفي مناهج التعليم، وفي فتاوى القتل.

لكن قليلين تذكّروا دموعه في أواخر عمره.

<u>وقليلين قرأوا دفاتره الشخصية التي كتب فيها:</u>

- **"اللهم لا تجعلني بابًا يُدخل منه السلطان إلى رقاب الناس."**
- **"ولا تجعلني سيفًا يضرب به الجاهل باسمك."**
- **"واجعل كلمتي شاهدة عليّ لا على غيري."**

وبينما تنقضي الليالي في صمتٍ ثقيل، ظل السيف مُعلّقًا في صدر المجلس، لا يصدأ.

لكن صوته صار أضعف من ورق المحبرة.

وهكذا، بدأت المرايا تتكسّر، واحدةً تلو الأخرى، في بيتٍ كانت أركانه تدعو إلى النور، حتى غطّاه ظلّ الدولة.

الباب التاسع: مرايا النار و الظل

الفصل الثاني: يوم أكلت النار ظلّها

كان محمد بن عبد الوهاب يحدّق في الأفق الملبّد بالغيوم من نافذة المجلس العتيق في الدرعية، كأنّه يبحث عن شيء ما فقده قبل سنوات، أو كأنّه ينتظر حريقًا جديدًا يأكله من الداخل.

مرت السنون، وأصبح الكيان الذي صنعه بشراك السيف والعقيدة أكثر توحشًا مما تخيل. كان الحلف مع محمد بن سعود قد بسط سطوته في نجد، وامتدّ لاحقًا إلى مدنٍ لم تكن تتخيّل يومًا أن تُقاد باسم "الإصلاح"، وما عادت الدعوة دعوة، بل صارت حكمًا ودمًا وحدودًا تُقطع باسم الله. وكان هو، وإن بدا شيخًا منزويًا، يمضي ليله في مراجعة كل شيء...

هل هذا هو ما أراده؟

أكان يريد حقًا أن تُبنى دعوته على جثث الفقهاء الذين خالفوه؟

كان صدى القبور المهدّمة يعود إلى ذاكرته في صورة صرخات مكتومة: قبر زيد بن الخطاب الذي نُبش، مقام حاتم الطائي الذي سُوّي بالأرض، أضرحة الأولياء التي جُرفت، ووراء كل ذلك أصوات النسوة والرجال الباكين في الهزيع الأخير من الليل.

كان ابنه عبد الله قد دخل عليه في الليلة الماضية وهو يحمل كتابًا كتبه خصومهم في المدينة، يصفونه فيه بأنه رأس الفتنة، وأنه جعل من نفسه ميزان العقيدة، وأنه "أحلّ دماء المسلمين بفتاوى حبرها من جهنم".

قرأ محمد بن عبد الوهاب المقطع، وهزّ رأسه، وقال:

– هم لا يعلمون.

– أم نحن لا نعلم؟ – ردّ عليه عبد الله.

– بني، الطريق طويل، ولا أحد يرى نهايته. نحن فقط نُحاول أن نقود السفينة بعيدًا عن الغرق.

– لكنك لم تضع لنا مرساة... ولا بوصلة.

كان في نظر عبد الله أن الدعوة خرجت عن طورها. وأن التحالف الذي بني على "نقاء التوحيد" قد أصبح حلفًا توسعيًا تبتلعه المصالح. وما عاد الناس يرون في أبيه إلا "مؤسس دولة" لا "مُصلحًا".

وكان محمد يعلم ذلك.

ويعلم أن أبناءه منقسمون عليه، كما كانت المدينة المنورة منقسمة حين زارها آخر مرة، وكما كانت العيينة تقذف في وجهه بالحجارة من قبل.

جلس على سجادته، وكتب في دفاتره:

"اللهم إن كنتُ قد وضعت يدي في يد سلطانٍ لم يُرد بك وجهًا، فاغفر لي. وإن كنتُ قد أردتُ نصرة دينك، فثبتني، وإن كنتَ تعلم أنني صرت أعبد هيبة الحاكم أكثر مما أرجوك، فخذني ولا تُبقِني بين الناس فتنة."

ثم أغلق دفتره.

في النهار التالي، زاره تلميذه حسين بن غنام، وكان قد قرأ آخر ما كتبه الشيخ في بعض رسائله الخاصة.

قال له:

– يا شيخ، لا تجعل القلق يأكلك. كل من حمل لواء التوحيد عودي، ولو كان بين ظهراني قومه.

– يا حسين، لم أعد أدري إن كان التوحيد هو الذي يُعادى، أم ما لبستهُ أنا من صرامةٍ وجزم لا يرحم.

– لكنك لم تكن تُجامل، ولم تساوم، ولم تبع دينك.

– وهل في زمن الدماء يُعتبر الغلو صمودًا؟ وهل يُقاس صدق الإيمان بعدد الرؤوس التي سقطت؟

كان كلام الشيخ كمن ينزع عباءته التي غلّفته بها الألقاب، فقد كانت دعوته قد أصبحت ثوبًا فضفاضًا يلبسه الآخرون كما يشاؤون. وما عاد الناس يعرفون محمد بن عبد الوهاب الإنسان، بل فقط اسمه في الحروب، وفتاويه في جلد ظهور الرجال، وسياط التكفير.

ثم دخل عليه ابنه الآخر، علي، وكان أكثرهم حماسةً له، وأقربهم إلى رجال الدولة.

قال:

أبي، لا تضعف الآن. دعوتك باتت دولة، وكلمتك صارت دستورًا.

يا بني، بل دعوتي باتت سيفًا، وكلمتي صارت سكينًا يلوّح بها كل غليظ القلب. من يحمل فكري اليوم يظنني إلهًا يُحلّ ويُحرّم، مع أنني بشر، أُصيب وأُخطئ.

كان يريد أن يصرخ: "أنا لست نبيًا! أنا فقط رجل ظنّ أن الله أولى بالطاعة من العادات والخرافات، لكني لم أكن يومًا صاحب فتنة!" إلا أن الحبر الذي سال باسمه، قد كتب أكثر مما أراد، وأشعل نارًا لم يستطع إطفاءها.

في اليوم التالي، جاءه أحد رجال الدرعية، ومعه خبر مفجع: قبيلة بني خالد قد بدأت تحشد لمحاربة الدولة الناشئة، والسبب: قتل علمائهم وسبي نسائهم.

<u>سكت الشيخ.</u>

تذكّر اللحظة التي جلس فيها قبل سنوات أمام الأمير محمد بن سعود، حين صافحه على الولاء، وقال له: "لك الإمارة، ولي الدعوة."

يومها حسب أنه يضع حجر الأساس لأمةٍ جديدة. واليوم، يرى أنه صنع مرآةً من نار، تحرق كل من يقترب منها.

<u>كتب في دفتره:</u>

"أيها الناس، إن كنتُ فتنتكم، فاقتلوني. وإن كنتُ صاحب هوى، فاتركوني. وإن كنتُ وحدي من يصرخ أن التوحيد ليس عباءةً للدم، فاستبدلوني بمن يشاء السلطان."

وبينما كان يكتب، سقط على الورق دمٌ من جرحٍ في يده.

<u>قال في نفسه:</u>

النار أكلت ظلّها.

ولم يكن يعلم، أن اسمه سيبقى منقوشًا في كل صراعٍ بعده، كما يُنقش السيف على الصخر.

ولا أحد سيسأل: ماذا كان قلبه يقول وهو يُشعلها؟

الباب التاسع: مرايا النار و الظل

الفصل الثالث: الطريق إلى العيينة

حين انقشعت سُحب الدم عن سماء الدرعية، وأُخمدت حرائق الجدران المنهارة في حاراتها، عاد اسم محمد بن عبدالوهاب يتردد على الألسنة لا كإمام لدعوة، بل كظلٍ ثقيل يمضي في أثره كثيرون ولا يرونه. ومع ذلك، لم تكن النار التي خَبَتْ نهاية لمسيره، بل كان ذلك إيذانًا بمرحلة جديدة من التيه الممزوج بالسلطة، حيث يتداخل فيها الدين بالتاريخ، واليقين بالدم.

في صباح باكر من ربيع عام ١٧٦٥، وقف محمد بن عبدالوهاب على تلّة مشرفة على أطلال قديمة للعيينة، تلك البلدة التي طُرد منها قبل عقود بأمر من الحاكم العثماني في الإحساء، بعد ضغوط من وجهاء المنطقة، وخشية من أن تنتقل ناره إلى نسيج المجتمع ذاته.

كان واقفًا بثوبه الأبيض المغبر، وبصره لا يزال معلقًا بأفق يلوح فيه الماضي كأنما يناديه. بجانبه وقف حفيده الصغير عبدالله، الذي كان يومًا ما يسترق النظر إلى جده وهو يكتب في محبرة سوداء على جلد غزال.

قال له الطفل: – جدي، أهذه هي العيينة التي طردوك منها؟

أجاب الشيخ وقد غاص صوته في صمتٍ ثقيل: – نعم، هذه هي الأرض التي حرمتني من المنبر، ولكنها لم تحرمني من الرسالة.

في الطريق إليها، كان قد عبر قُرى ومضارب عدة، يستمع للناس على استحياء، فيرى عيونًا تخشى صدام اسمه أكثر مما تخشى النار. كانت أخبار معارك الدرعية قد سبقت وصوله، وذاع بين الناس أن الشيخ لم يعد رجل الدعوة بل رجل الدولة، وأن سيف ابن سعود قد صار نصَّه، وسياسته قد صارت تأويلًا لعقيدته.

لم يكن محمد غافلًا عن هذا التحول، بل كان يراه كلما أمسك بالقلم. لقد تغيّر الحبر... لم يعد أداة توضيح، بل أداة تصنيف: هذا مبتدع، وهذا مشرك، وهذا تُقطع رأسه.

في العيينة، زار قبر زيد بن الخطاب، الذي كان قد أمر بهدم قُبته في شبابه، حين رأى فيه بوادر تعظيم لا تليق إلا بالله. لكنه الآن، لم يتقدّم شبراً نحو القبر. فقط ظل واقفًا على مسافة، كأنّ القبر يهمس له: "أيها الشيخ، أكلتَ من التاريخ أكثر مما أطعمته."

في مجلس الشيخ القديم، حيث كان يُدرّس الفقه والحديث في شبابه، وجد جدرانًا عارية، ومصاحف مُغبرة، وألواحًا لم تمسها يد منذ سنين. كان مجلسه السابق قد هُجر بعد رحيله، وأخذ الناس يتحاشون ذكره، لا خوفًا منه، بل خوفًا من عودة التمزّق.

أرسل إلى بعض تلاميذه الأوائل يدعوهم إلى لقائه. جاءه بعضهم مترددين. أحدهم، الشيخ صالح بن علي، قال له بصوت منخفض: – شيخنا، ما الذي جرى؟ كانت دعوتنا علمًا ونورًا، فكيف أصبحت نارًا وسيفًا؟

نظر إليه محمد نظرة طويلة وقال: – يا صالح، النار لا تأتي من تلقاء نفسها... يُشعلها من خالفوا التوحيد.

فردّ صالح: – بل يُشعلها من ظنّ أنه وحده يعرف الله.

لم تكن المواجهة حادة، لكنها كانت صادقة، ومُربكة. محمد، لأول مرة، شعر أن ذاكرته تتصارع مع تاريخه، وأن صوت ضميره القديم لم يعد يسكنه كما كان.

جلس مساءً يكتب في دفتره:

"قد علمتُ أن الناس لا يُصلحهم الفقه وحده، ولا يكفيهم تحطيم القباب إن بقيت قلوبهم مشدودة للسلطان. ولعلي كنتُ أخلطُ بين النية والوسيلة، فصرت أقتلُ الشرك في قلوبهم بسيفٍ لا يفرق بين غافل وجاحد. فهل أُذن لي أن أعود كما كنت؟ شيخًا في زاوية؟ أم أن الباب الذي عبرته لا يُفتح إلا على السُيُوف؟"

في اليوم التالي، أرسل له أمير جديد من آل معمر رسالة مقتضبة: "يا شيخ، العيينة لا تنسى لك الفتوى التي قُتل بها ابن حمدان. ولا تزال نارها تحت الرماد. فلا تُشعلها."

كانت الرسالة كافية ليفهم أن الأرض التي خرج منها أول مرة، لا تزال تراه طاردًا لا عائدًا.

فركب دابّته بصمت، وعاد أدراجه.

في الطريق، سأل حفيده: – جدي، هل نعود للدرعية؟

فأجابه دون أن يلتفت: – لا... نعود إلى الله، قبل أن نعود إلى قلاعٍ تنسينا ما بدأنا لأجله.

وفي قلبه، كان يشعر أن الطريق لا يؤول إلى مدينة... بل إلى حساب، لا ينفع فيه نسب ولا تحالف، ولا حتى علم، إن لم يكن مغموسًا بالعدل.

وهكذا ترك العيينة، لا كسابق عهده مجددًا، بل كأثرٍ يمشي على ترابٍ لم يعد يُنكر عليه.

كانت العودة هذه المرة أكثر وجعًا... لأنها عودة بلا رجاء.

الباب التاسع: مرايا النار والظل

الفصل الرابع: بلاغ إلى الغيب

لم يكن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب يومًا كأبيه، لا في الشراسة ولا في اليقين المطلق. كان أقرب إلى الظلال منه إلى النار. حمل اسمه، وورث من دعوته الصدى أكثر مما ورث اليقين. ولعلّه، وهو يحدّق في أوراق أبيه الصفراء، كان يشعر بأن العبء أكبر من عقله، وأن الحكاية التي بدأت قبل عقود، لم تكن له، ولا لأحد من إخوته، بل كانت لكاتبها وحده: محمد بن عبد الوهاب.

في الليالي الأخيرة من حصار الدرعية، حين ضاقت الأرض بمن فيها، وحاصر إبراهيم باشا المدينة كما تُحاصر القصائد الحزينة منافذ النسيان، كان عبد الله يقف في زاوية بيته، ينظر من نافذته الصغيرة نحو التلال السوداء التي تطوّق البلدة كألسنة لهب، ويقول في نفسه:

«هل هذا ما أراده أبي؟ أن نموت في حصار؟ أن نكون نيرانًا بلا رماد؟»

تكدّست الرسائل أمامه، يقرؤها تارة، ويغلقها تارة أخرى دون أن يرد. أكثرها من علماء نجد، وبعضها من خصوم أبيه في الحجاز، وفيها عبارات تتكرر:

«أتبقى متمسكًا بدعوة مزّقت الأمة؟» «أما آن للابن أن يصحح خطأ الأب؟»

لكنه لم يملك الشجاعة للرد لا بالإقرار ولا بالرفض. فهو لا يرى نفسه إمامًا كما كان أبوه، ولا فارسًا في ميدان القلم، بل ظلًا يعيش في حواف النار، يتدفأ دون أن يُحرق.

أمه، زينب، كانت قد قالت له ذات مساء:

– «كان أبوك رجلًا لا يُشبهه أحد، لا أنت ولا إخوتك. كان يكتب وكأن الوحي يُملى عليه، ويتكلم وكأن الله فوّضه بأمر هذه الأمة.»

سألها:

«وأنتِ؟ هل كنتِ تؤمنين به؟»

نظرت إلى السماء، ثم قالت:

«كنتُ أحبّه، لا أكثر.»

كان جوابها كصفعة، يُدرك معها عبد الله أن التاريخ لا يُبنى بالإيمان وحده، بل بالمحبة أحيانًا، وبالصمت غالبًا.

جلس تلك الليلة وفتح واحدًا من دفاتر والده، وبدأ يقرأ:

«من قال لا إله إلا الله ونقضها بعمله فقد كفر، ومن استغاث بغير الله فقد اتخذ ندًّا.»

أغلق الدفتر ببطء، وقال:

«لكنك لم ترَ القرى التي لا تعرف كيف تُفرّق بين الدعاء والعبادة، ولم تسمع حكايات النساء اللواتي لا يعرفن من الدين إلا ما علّمنه أولادهن من أدعية الموالد. هل كنّ مشركات؟»

ثم نهض إلى نافذته مجددًا، كانت النار تقترب من السور الشرقي للدرعية، وجنود إبراهيم باشا يُشعلون النخيل المحيط بالبلدة.

قال لنفسه:

«هذه النهاية لا تُشبه بداية أبي.»

ثم تذكّر حوارًا قديمًا جمعه بأخيه حسين، الذي كان أقربهم إلى النقد وأشدهم رفضًا للغلو.

قال له حسين ذات مرة:

«أبي لم يكن نبيًا، يا عبد الله. كان رجلًا يكتب كما يحارب، وكان أحيانًا يُخطئ. لكننا إذا جعلنا كل حرف كتبه عقيدةً، فلن نبني إلا جدرانًا من الحطب.»

لم يجب عبد الله وقتها، لكنه الآن يشعر أن حسين كان أقرب إلى الفهم.

في اليوم التالي، بينما يتقدّم جيش إبراهيم باشا أكثر، دعا عبد الله مجموعة من تلاميذ أبيه، وقال لهم:

«إذا سقطت الدرعية، فليكن لنا عهد جديد مع الناس. لا تكفير ولا قتال، بل دعوة بالحكمة، وصبر على الجهل.»

نظر إليه أحدهم وقال:

«أتتنكّر لدعوة والدك؟»

فأجابه عبد الله:

«بل أُحاول أن أُنقذها من نفسها.»

ثم أضاف:

– «كان أبي يُطلق النار، أما أنا فأُرسل بلاغًا إلى الغيب: إن كنا قد أضللنا، فاغفر لنا، وإن كنا على الحق، فاجعلنا دعاة لا قضاة.»

وبينما كانت جدران الدرعية تتهاوى تحت مدافع الأتراك، وتُطوى صفحة من صفحات الدولة السعودية الأولى، جلس عبد الله على حصير من سعف، يكتب وصيته:

«أنا عبد الله بن محمد، لا أدّعي النبوّة، ولا أملك الحقيقة، لكنني أطلب من الله أن يكون ديني سَترًا لا سوطًا، ونورًا لا نارًا، وأن يُخرجنا من فتنة الغلو كما يُخرج الحي من الميت.»

كانت وصيته تلك أول اعتراف داخلي من بيت آل الشيخ أن الدعوة، كما وُلدت، قد أحرقت أكثر مما أنارت.

ومع دخول إبراهيم باشا إلى قلب الدرعية، لم يهرب عبد الله، بل استقبله في المسجد المهجور، حافي القدمين، بثوبٍ مرقع، وقال له:

«قاتلتمونا بالنار، فقاتلناكم بالنار، فهل نُجرّب الآن الكلام؟»

نظر إليه إبراهيم باشا لحظة، ثم أمر جنوده بإبقائه في المسجد.

وفي مساء ذلك اليوم، كتب عبد الله آخر ما دُوّن بخطّه:

«إن كانت هذه نهايتنا، فلتكن آخر كلماتنا: لا يُقاتل على الله، ولا يُحتكر الله، ومن جعل من نفسه بابًا إليه، فقد أغلق الأبواب الأخرى.»

وهكذا انتهى بلاغه إلى الغيب. ولم يكن من بعده من يجرؤ أن يُشعل نارًا أخرى.

الباب التاسع: مرايا النار والظل

الفصل الخامس: إرث من دخان

كانت القصيم قد هدأت قليلاً بعد عاصفة السنين الماضية، لكن النار لم تخمد في الجوف. كانت متقدةً في العيون التي تراقب، وفي الألسن التي تتناقل أخبار الدعوة، وفي الصدور التي ما زالت تمور بتساؤلات قديمة، لم تجد لها جوابًا شافيًا منذ أيام محمد بن عبد الوهاب.

أما عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، فقد أصبح الآن الرجل الذي تنظر إليه الأنظار، لا لأنه فقط ابن الرجل الذي غيّر موازين المنطقة، بل لأنه بات رمزًا لمرحلة جديدة، حيث يختلط الدم بالشرع، والسياسة بالعقيدة، والوراثة بالتقليد.

لم يكن عبد الله مجرد ناقلٍ لميراث أبيه، بل كان مشيدًا لجدران جديدة في الحصن الذي بُني أول مرة في الدرعية. في خطبه، كان يُردد عبارات والده، لكنه يضيف عليها نبرةً أكثر حزمًا، وأقل تردّدًا. في الرسائل التي يكتبها إلى الأقاليم، كان أكثر وضوحًا في شروط الطاعة، وأقل ميلاً إلى التفسير.

كان الشبه بينه وبين والده في السمت واللحية والبياض الملفوف بالكوفية، لكنَّ في العين شيءٌ آخر، شيء لم يكن في عيني محمد بن عبد الوهاب: سلطةٌ مُبكرة. سلطة لم تنتظر الوعد ولا الحاجة، بل انبثقت من شعورٍ داخليّ أن الدعوة قد أصبحت دولة، وأن الدولة تحتاج إلى عقل يحرسها لا فقط قلب يُبشّر بها.

في مجلسه بالدرعية، جلس عبد الله إلى جانب عبد العزيز بن محمد آل سعود. كان الحديث عن قرى في جنوب نجد لا تزال تراوغ في مسألة البيعة. قال عبد الله بحزم:

– "إنّ التأخر في البيعة هو بابٌ للريبة، وإن الريبة تُفضي إلى النفاق، والنفاق إلى الفتنة."

ردّ عليه عبد العزيز:

"لكنّهم حديثو عهد بالدعوة، وقد لا يفهمونها كما نفهمها."

هزّ عبد الله رأسه:

"الدين لا يُفهم بالتقسيط، إمّا أن تقبل الشريعة كاملة، أو تبقى في دائرة الجاهلية."

هكذا كانت نبرته، أشد صلابة من نبرة والده، وأقل تسامحًا مع الأعذار. لم يكن في فقهه مكانٌ كبير للمترددين، ولا للمؤجلين، ولا حتى للمتعاطفين الذين لا يعلنون ولاءهم صريحًا.

وقد كتب في إحدى رسائله:

"من عرف التوحيد ثم تلكأ في إظهاره، فهو كمن عرف النور ثم أغلق عليه الباب. ولا يختلف في حكمه عن من عبد القبور، إن تساوت آثار فعلهما في هدم أصل الدين."

كان الخطاب يحمل أثرًا من نار الأب، لكنه الآن يشبه جمرةً نفخت فيها رياحُ الحكم والسياسة.

في بيتهم، كانت زوجته تُدير شؤون المنزل بصمت، وقد اعتادت حياة الظل. لم يكن عبد الله يشاركها همّ الأولاد إلا بوصايا مقتضبة عن حفظ القرآن وطاعة الأمير. أما أبناؤه، فقد نشأوا في بيئةٍ يغلب عليها الصمت والتكرار: نفس الخطب، نفس الأحكام، نفس الرهبة من السؤال.

وذات ليلة، سمع عبد الله ابنه الأكبر – محمد – يسأل أخاه الصغير:

"هل تعلم لماذا لا نزور قبر جدنا؟"

فأجابه الصغير:

"لأنه نهى الناس عن زيارة القبور."

فقال محمد:

"بل لأننا نخشى أن يُقال إننا نتبرّك به، ونحن لا نريد حتى الشبهة."

كان عبد الله خلف الباب، يسمع، ويصمت. لم يدخل ليُصحح أو يُقر. تركهم للحيرة.

وفي صباح اليوم التالي، كتب في دفتره الشخصي:

" أخشى أن يكون الخوف من الشبهة قد صار شبهةً أكبر..."

"وأننا ونحن نبني سور العقيدة، قد نسينا أن نترك بابًا للرحمة."

لكنه ما لبث أن طوى الدفتر، وأمر بإرساله إلى أحد طلابه ليطبع منه نسخًا تُوزع في مجالس التعليم.

وفي سنوات لاحقة، توسعت الدعوة. صارت لها مدارس، وكتب، وأتباع في أطراف الجزيرة. لكن شيئًا ما كان يختفي من بين الأصابع، كما الماء حين يُسكب من دون إناء.

سأل أحد تلامذته ذات يوم:

"يا شيخ، إنّ الناس يقرأون كتب الوالد، ويخشون كتبك. فلماذا؟"

قال عبد الله:

"لأنّ أبي كتبَها يدًا في يدٍ مع الله. أما أنا، فأكتبها ويدي في يد الدولة."

ضحك التلميذ على الجواب، لكنه لم ينسه أبدًا.

وفي سنواته الأخيرة، أصبح عبد الله أكثر انعزالًا، يقضي ساعات طويلة أمام المخطوطات، يراجع، يُهذّب، ويُعيد ترتيب الجمل. لكنه لم يكن يراجع فقط النصوص، بل مراجعة رجلٍ بدأ يشعر أن دعوةً بدأت بالروح، قد تُختتم بالإدارة.

وفي ليلةٍ من ليالي الشتاء، جلس أمام المدفأة، وحده، وكتب:

"كان والدي نارًا من نور، أما أنا، فقد كنت ظلالًا لها. والظلال لا تُنير، بل تتبع."

ثم طوى الصفحة، وأطفأ السراج، تاركًا إرثًا من الدخان... لا يزال الناس فيه إلى اليوم يتلمّسون موضع النور.

الباب العاشر: حواف العرش المتهاوي

الفصل الأول: الظلُّ الذي تَمدَّد

بدأت الأعمدة تهتزُّ تحت سطوة الريح، لا ريح الصحراء التي خبرها النجديون، بل ريح من جنس آخر، خفية، ناعمة، تندسُّ في جدران الولاء والطاعة، فتفتِّتها حجرًا حجرًا.

لم يكن محمد بن عبد الوهاب شيخًا شابًّا متحمسًا كما عرفه الناس في بدايات دعوته، ولا ذلك الفقيه الذي يحمل على ظهره كتب ابن تيمية ويسير من بلدة إلى بلدة يطلب المبايعة لنقاء العقيدة. صار كهلاً، جسده ينوء بثقل السلطة التي حملها، وسلطان الدماء التي سُفكت باسمه، ونار الشك التي استوطنت عينيه.

مرت ثلاث سنوات منذ آخر لقاء معلن بينه وبين محمد بن سعود. كان اللقاء بارداً، يفتقر إلى دفء البيعة الأولى، ولم تعد كلمات الشيخ تُقابل بالحماسة ذاتها. بنو سعود، وعلى رأسهم عبد العزيز، صاروا ينظرون إلى الرجل كرمز لا كمحرّك، كماضٍ ضروري لا حاضر نافذ.

في منزله القريب من المسجد الكبير، كان الشيخ يقضي معظم يومه جالسًا على حصير قديم، يستقبل بعض طلابه القدامى، أو يردّ على استفتاءات تأتيه من القرى النائية. لكن تلك اللحظات كانت تتقلص يومًا بعد يوم. حتى طلابه، لم يعودوا كالسابق. بعضهم صار يختار السكوت، وآخرون تحلقوا حول أبناء الشيخ، طامعين في جاهٍ أو سلطان.

أبرزهم ابنه عبد الله، الذي راح يتولى زمام الأمور الدينية رويدًا رويدًا، حتى في حياة أبيه. كانت رسائل عبد الله إلى الأمراء والتجار توقع باسمه وحده، ولم يذكر فيها والده إلا تلميحًا.

وذات يومٍ دخل عليه عبد الله، وبيده مرسوم ممهور من عبد العزيز بن محمد، ينص على "تنظيم الفتاوى" في نجد، بحيث لا تصدر إلا من هيئةٍ معينة، يرأسها عبد الله نفسه، وتُراجع بعدها من قبل القصر. قرأ الشيخ المرسوم ثم صمت طويلاً. قال بصوتٍ خافت:

"لقد أردنا إصلاح الدين، لا تسويره بقضبان السلطة."

لكنّ عبد الله لم يعلّق. قال فقط:

"هذا زمن جديد، يا والدي."

ثم خرج، وترك والده للذكريات.

كانت الذكريات كثيرة، وغزيرة. تذكر الشيخ بلدته العيينة، حين كان يحاجج فقهاءها ويصطدم بعقولهم الجامدة. تذكر حروبه مع أهل الرياض، وخطبه في الدرعية، وعزلته في البصرة، وحتى خذلان أعيان مكة له حين قدم إليهم برسالة التوحيد.

لكن أقسى الذكريات، كانت تلك المتعلقة بالدم. لم يستطع نسيان النساء اللواتي صرخن في وجهه، والأطفال الذين ماتوا رُعبًا من سيوف أتباعه، وكتب العلماء الذين حُرِّقت، والقبور التي جُرفت.

في الليل، كان يسمع همسًا يأتي من أقصى البيت، صوتًا لا يسمعه سواه. كان يقول له:

"أأحييت الدين أم قتلت الروح؟"

وكان يردُّ عليه بصمتٍ خانق، ثم ينهار نومه.

مع اشتداد التغيّرات، بدأت تصل أخبار من بعض المناطق النائية عن تمرّد الأهالي على أتباع الدعوة، ورفضهم لجباية الزكاة، وازدياد الفجوة بين دعاة السيف ودعاة القلم. وكان من اللافت أن بعض أولئك المتمردين كانوا طلابًا سابقين للشيخ.

أحدهم، يُدعى سعيد بن حمد، كتب رسالةً علنية قال فيها:

"لقد أصبحنا بين حاكمٍ يسفك، وشيخٍ يسكت. فويلٌ لمن سكت، وويلٌ لمن استخدم الدين درعًا لسلطةٍ لا تعرف رحمةً."

وصلت الرسالة للشيخ، فقرأها في مجلسه دون أن يعلّق. لكن حاجبيه انكمشا، وصدره علا وانهار أكثر من مرة. ثم قال لمن حوله:

"إذا أصبحت الدعوة عصًا تُرفع لا نورًا يُهدى به، فقد خرجت من مسارها، ولست أبرّئ نفسي."

في آخر مرة صعد فيها منبره، نظر طويلاً في وجوه الناس. لم يكن المسجد ممتلئًا كما اعتاد، بل الحضور قليل، وأعينهم متعبة. قال في خطبته كلمات مقتضبة:

"إنّ سلطان الله فوق كل سلطان، وإنّ الدين لا يُختصر في البيعة، ولا في الطاعة، بل في الإحسان، والتواضع، وفي عدل لا يظلم، ورحمة لا تفتر."

ثم نزل، ولم يَعُد بعدها إلى المنبر أبدًا.

كان محمد بن عبد الوهاب يعرف أنّ النهاية تقترب. ليس موت الجسد فحسب، بل نهاية فكرٍ بدأ نقيًّا، وانتهى مطيّةً للسيطرة. وكان يشعر أن ما سيبقى بعده، ليس ما أراده في قلبه، بل ما صاغه أبناؤه بألسنتهم، وما استغلّه الحُكّام بسيوفهم.

في ليلةٍ من ليالي الصيف، حين هدأ كل شيء، كتب على ورقة صغيرة بخطٍ مرتجف:

"إنّ من يملك السيف والدين معًا، لن يبقي للدين روحًا."

ثم طواها، ووضعها بين صفحات مصحفه. لم يعلم أحد بذلك، إلا خادمه الذي رآه يذرف دمعًا دون صوت.

وكان ذلك أول ظلٍّ صريح، من ظلال العرش الذي بدأ يتهاوى

الباب العاشر: حواف العرش المتهاوي

الفصل الثاني: انكســـار المرايـــا

كان الليل قد خفّف وطأته على الدرعية، لكنه لم يبدّد ظلال القلق التي كانت تتمدد في زوايا المجالس وقصور الطين المتشابكة. أما محمد بن عبد الوهاب، فكان في تلك المرحلة أشبه برجل يسير على جرف هارٍ، تلاحقه الشكوك من خلفه وتنتظره الانهيارات أمامه.

في خلوته داخل حجرته القاتمة، وبين جدران صامتة لا يثق بها، راح يتأمل صفحات ما كتبه في سنيّ دعوته الأولى. كانت كتبه ورسائله مرصوصة أمامه كأدوات الجراحة، لكنها لم تعد تثير فيه الزهو ذاته الذي كان يملأه في شبابه. تساءل في داخله: "هل كنت أكتب لله؟ أم كنت أكتب لنفسي؟ هل صنعت دينًا أم مشروعًا سلطويًا مغلّفًا بورق النصوص؟"

لم تكن هذه الأسئلة وليدة تأملات روحية نقية، بل نتيجة شعوره المتزايد بأن الأمور بدأت تخرج من قبضته، وأن الدولة التي قامت على أفكاره بدأت تتضخم كوحش لا يمكن ترويضه.

أخبار النزاعات في الأطراف كانت تصل متأخرة ولكنها ثقيلة. بعض القبائل، التي كانت قد بايعت الدعوة على الطاعة، بدأت تتمرد على السلطة المركزية، لا لشيء إلا لأن الضرائب ازدادت، والغزوات باسم "التوحيد" صارت مكرورة، حتى كأن الحرب أصبحت غاية، لا وسيلة.

وكانت المصيبة الأكبر أن بعض هؤلاء المتمردين قد صرّحوا صراحة بأنهم لم يعودوا مقتنعين بأن الشيخ محمد هو "المرجعية المطلقة في الدين"، بل اتهموه بأنه خرج عن الجماعة، وأغلق أبواب الفقه، واستباح دماء وأموال المسلمين تحت ذرائع لا تثبت أمام العلماء ولا العوام.

في هذا الفصل من حياته، بدأت المفارقة تظهر بجلاء:

الرجل الذي أسّس دعوة على التوحيد الخالص، كان قد أصبح مركز عبادة دنيوية لدى أتباعه.

الرجل الذي كفّر العلماء لتقربهم من السلاطين، صار هو نفسه يحكم من ظل الأمير، ويتدخل في السياسة أكثر من الفقه.

والأدهى، أن أبناءه وأقاربه بدأوا يتصرفون كأمراء، لا كطلاب علم.

أحد أولاده، عبد الله، كان قد تولى مهمة الإشراف على الأمور الدينية في الرياض وما جاورها، لكنه كان أكثر اهتمامًا بجمع البيعات والفتاوى المؤيدة، وكان حادّ الطباع، لا يتورع عن تخوين أو تكفير من لا يتفق معه.

أما حسين، ابنه الآخر، فقد دخل في صراع مع رجال الأمير سعود حول موارد الغنائم، وهو ما أحرج محمد بن عبد الوهاب نفسه أمام مجلس الشورى في الدرعية.

وقد بدأت عيون الناس تلتفت نحو هذه التناقضات، وبات صعبًا التوفيق بين صورة الشيخ الورع الزاهد، وبين نمط الحياة السياسية الذي تمأسس حوله وحول أسرته.

في يوم من أيام الصيف القائظ، دخل عليه أحد طلبته المقربين، الشاب سالم بن سعد، يحمل بيده مخطوطة من "درء الشبهات"، وقد بدت عليه ملامح التردد.

قال وهو يضع الورقة أمام الشيخ:

"يا شيخ، قرأت ما كتبتَه عن الاستغاثة بالأولياء، لكنني تساءلت: أليس في سير الصحابة والتابعين إشارات مختلفة؟ ألم يأت من العلماء من أجاز التوسل إذا لم يكن فيه شرك صريح؟"

حدّق فيه الشيخ طويلاً، ولم يجب مباشرة. ثم تمتم:

"يا سالم، لا تسأل هذه الأسئلة الآن... الناس بحاجة إلى حزم، لا إلى تأويل."

قال سالم، بتردد:

"لكن الحزم يا شيخ إن لم يكن مبنيًا على اجتهاد رحيم، قد يتحول إلى ظلم."

لم يغضب محمد، كما كان يفعل في شبابه، بل أطرق رأسه، وشعر لأول مرة أن الأرض تهتز تحته... لا من الخارج، بل من داخله.

في تلك الفترة، بدأت شائعات تنتشر عن تراجع الشيخ عن بعض مواقفه. قيل إنه لم يعد يؤيد استباحة أموال القبائل المخالفة، وإنه أبدى ترددًا في إصدار فتوى ضد أحد علماء الأحساء.

وهو ما أثار غضب الأمير سعود، الذي بدأ ينظر إلى الشيخ كمن أصبح عبئًا على التوسع العسكري، لا دافعًا له.

<u>هكذا بدا الشيخ محاصرًا بين قوتين:</u>

- قوة الدولة، التي نمت وتغذت من أفكاره لكنها الآن لم تعد تصغي له إلا من باب المجاملة.
- وقوة المجتمع، الذي بدأ يتذمر من القسوة، ومن عودة "الشرك" إلى الشوارع رغم السيف والعقاب.

<u>وفي أحد ليالي الشتاء، جلس وحيدًا، يكتب في دفتر قديم كان يخفيه عن الجميع. كتب فيه:</u>

"لقد بنيت صرحًا يحسبه الناس نورًا، لكنه أرهقني، وابتلعني. لم أعد أميز بين الدين وبين ذاتي. وها أنا اليوم أقف خائفًا من يومٍ، يسألني فيه الله: ماذا كنت تبغي؟ وجهه، أم وجهي؟"

هكذا انكسر صمت المرآة.

ولأول مرة، يرى محمد بن عبد الوهاب صورته دون قداسة:

رجل ظن أنه يُطهِّر الأرض لله، فإذا به يصنع نموذجًا يعيد إنتاج الاستبداد لكن بثوب مختلف.

ولم يكن يعلم أن الفصول التالية من حياته ستكشف له أكثر مما أراد أن يراه.

الباب العاشر: حواف العرش المتهاوي

الفصل الثالث: في حضرة الظـلّ الثقيـل

لم ينم محمد بن عبد الوهاب تلك الليلة. ظلّ مستيقظًا حتى انشقاق الفجر، يقلب بصره بين أوراق كتبه ودفاتر الفتاوى القديمة ورسائل المناظرات التي كانت تسير بها الركبان من الحجاز إلى البصرة والشام، وهو يحاول أن يعيد رسم ملامح رحلته التي ظنّها دينية خالصة، فإذا بها تتحول أمام عينيه إلى طريقٍ موحلٍ لم يعد يعرف أكان هو من شقَّه، أم شُق له.

كان صوت المؤذن ينساب من مسجد مجاور، هادئًا خافتًا، كأنه يأتي من بطن التاريخ. تلفت الشيخ حوله، أحس لأول مرة بالعجز. ليس عجز الجسد، وهو الشيخ الذي أرهقته السنون، بل عجز الفكرة، وتفكك البناء الذي شيده على مدى عقود، فها هو قد أصبح مأوى للتناقضات، ملاذًا لطامعين بالسلطة أكثر مما هو منارة للهداية.

في صباح اليوم التالي، دخل عليه ابنه عبد الله، وكان آنذاك في منتصف الثلاثين من عمره، يحمل في يده رسالة ممهورة بختم الأمير سعود. قال بنبرة توحي بالقلق:

"يا أبي، الأمير يطلب لقاءً عاجلًا، ويبدو أن الأمر يتعلق بأهل الرياض وتمرد بعض القبائل على فتاوانا الأخيرة."

رفع محمد رأسه ببطء، وقد غاص في تفكيره. لم يكن اللقاء بالأمير أمرًا جديدًا، لكنه بات يشوبه توتر دفين منذ أشهر، خاصة بعدما شعر بأن نفوذه المعنوي لم يعد له الوزن ذاته.

قال بهدوء:

"أخبره أني قادم بعد صلاة الظهر. لا أحب أن أستقبل الملوك وأنا مثقل بالتعب."

خرج عبد الله وقد ازدادت حيرته. كان يرى والده يتغير. لم يعد ذاك الرجل الصارم، الواثق من كلماته، الصادح بالحق – كما كان يراه في شبابه. بل بات مترددًا، متعبًا، متأملًا.

في مجلس الأمير، جلس محمد على فراش متواضع، وواجهه سعود بجملة لم تكن مباشرة لكنها كانت كافية:

"يا شيخ، ألسنا على حق؟ أليس عدونا من المشركين؟ فلماذا بدأت قلوب الناس تتردد؟ ولماذا انقلب بعضهم على الدولة والدعوة؟"

أجابه محمد بن عبد الوهاب، بعد صمت ثقيل:

"نحن على حق، إن كنا نعرف موضع أقدامنا. أما إذا كنا نحارب من أجل الملك، لا من أجل الله، فالحق عند الله وحده."

ظهرت علامات الضيق على وجه الأمير، لكنه كتم غضبه، وأردف:

"أحتاجك أن تكون واضحًا في الخطب القادمة. الناس بدأت تتكلم، ونحن لا نريد أن نُؤخذ من الخاصرة. إياك أن تشكك في ثبات دعوتك، فخصومنا كثيرون، وبعضهم في ثياب طلاب العلم."

ابتلع الشيخ صمته، وخرج دون أن يعد بشيء.

عند عودته إلى بيته، وجد جمعًا صغيرًا من طلبته القدامى، بينهم عبد العزيز بن حسين، أحد أنشط المتعلمين الذين رافقوه في بداياته. وقف هذا الأخير أمامه وقال:

"يا شيخ، نسمع همسًا بين الناس أنك بدأت تتراجع. هل صحيح أنك لم تعد تفتِ بما كنت تفتينا به؟"

رد الشيخ وقد بدا على وجهه شيء من الإرهاق والمرارة:

"يا عبد العزيز، المرء كلما كبر، اتسعت رؤيته. ما كنت أظنه يقينًا، صرت أرى فيه وجهًا آخر. لقد أُهلكت أمم بسبب تعصبها لرأي واحد، حتى لو بدا عليه مسحة الحق."

<u>قال أحدهم، شاب صغير لم يبلغ العشرين:</u>

"لكن كيف نفهم هذا يا شيخ؟ نحن نكفّر، ونقاتل، ونأخذ الغنائم، ثم تقول لنا إن في الأمر نظرًا؟"

<u>رد الشيخ بنبرة صريحة:</u>

"نعم، في الأمر نظر. من يظن أنه يملك الحقيقة الكاملة، فقد ضل. إن الله لم يفوّض أحدًا ليكون له ظلًا في الأرض."

كان في تلك الجلسة انقلابٌ على كل ما كان يُقال في دروس الحلقات. بدا الشيخ كأنه يعيد ترتيب أوراقه أمام تلاميذه، والذهول بادٍ على وجوههم.

وفي الليلة ذاتها، اجتمع أبناؤه حوله. عبد الله، وحسين، وعبد العزيز، وقد أثارهم ما بلَغهم من أحاديث الناس عن تراجع الشيخ، وطلبوا منه توضيحًا.

قال له عبد الله:

"يا أبتِ، أتريد أن تُضعف الدعوة الآن؟ وأنت الذي وضعت بنيانها حجرًا فوق حجر؟"

أجابه الشيخ بنبرة حاسمة:

"يا بني، لقد ظننت أنني أبني لله، فإذا بالبنيان يتحول إلى قيد. لقد أصبحتُ أخاف أن أُسأل يوم القيامة: أتَكلّمت باسمي أم باسم ربك؟"

قال حسين، وقد بدا أكثر عنادًا:

"لكننا اليوم دولة يا والدي، وإن تراجعتَ، سيأخذون هذا حجة علينا!"

فرد الشيخ بلهجة لم يُعرف بها من قبل:

"إن كانت الدولة لا تقوم إلا على تكفير المخالف، واستباحة الدماء، فلا بارك الله فيها. دعوتي كانت لله، لا للملك."

ساد الصمت، ولم يجد الأبناء ردًا.

تسارعت الأحداث بعد ذلك.

وصلت للشيخ تقارير من الأحساء، تفيد بأن بعض العلماء هناك بدأوا يكتبون علنًا ضد دعوته، لا سيما ما يتعلق بهدم القباب والأضرحة.

بل إن أحد كبار العلماء كتب رسالة مفتوحة قال فيها:

"إنّ ما تفعله الدولة النجديّة يشبه ما فعله الخوارج، إذ سلّطوا السيف على مخالفيهم، وجعلوا من تأويلاتهم مقياسًا للإيمان والكفر."

كانت هذه الرسالة كالصاعقة.

قرأها محمد، ثم وضعها جانبًا، وقال:

"لقد عدنا إلى البداية. حين كنا نفرّ من الاستبداد، فصنعنا استبدادًا جديدًا... لكن باسم الدين."

هكذا أُسدل الليل مرة أخرى على بيت محمد بن عبد الوهاب، لكن هذه المرة لم يكن الليل فقط في الخارج، بل في داخله أيضًا.

كان يعلم أن نهاية الرحلة باتت قريبة، لكن ما كان يؤلمه أكثر من الموت، هو أنه لا يعرف بعد:

هل سينظر إليه الناس كمصلح، أم كمؤسس لاستبداد جديد؟

وهل سيمحو التاريخ ما في قلبه من شكّ، أم يخلّده كما أراده الآخرون أن يكون؟

أسئلة كثيرة، لم تعد تحتاج إلى فتوى، بل إلى صدقٍ مع النفس.

وفي القلب، كان ظلّ العرش المتهاوي يتضخم، حتى كاد أن يبتلع كل شيء.

الباب العاشر: حواف العرش المتهاوي

الفصل الرابع: حين يصبح النور عبئًا

في تلك الليلة، لم يعد محمد بن عبد الوهاب إلى مضجعه كعادته، بل جلس طويلًا قرب نافذة تطل على الصحراء المتسعة، تلك التي طالما حلم أن تكون مهد النور الجديد. كانت الرمال ممتدة بلا نهاية، كأنها أرادت أن تذكّره بحجم فكرته أمام لانهائية الزمان.

لقد أمضى عمره يحفر في الصخر ليصنع طريقًا إلى الله، فإذا به يكتشف أنه ربما كان يصنع سجنًا من وهم.

جلس مطرقًا، تملأه الذكريات. كانت وجوه الموتى تمر أمامه: أبوه الذي حذّره من التسرع في التكفير، شيخه في المدينة الذي قال له يومًا "ليس كل ما يقال يُفعل"، رفاق الطريق الذين انسحبوا واحدًا تلو الآخر، لأنه لم يكن يسير، بل يندفع.

صباح اليوم التالي، زاره رجل غريب، ليس من حاشية الدولة ولا من خاصّة العلماء. كان شيخًا مسنًا من قبيلة خارج نجد، يدعى "عبد الرحيم النبهاني"، رجل ذو سمت وعلم، يتحدث بهدوء يشبه رنين الأجراس البعيدة.

قال له:

"يا شيخ محمد، جئتك من بعيد، لا طالبًا فتوى، ولا ناقلًا سلامًا، بل حاملًا قلبًا مثقلًا. لقد وصلنا صدى ما تفعلون، وسمعنا ما يُروى من فتاوى في تكفير وتفجير، وهدم وشنق. فهل هذا هو الإسلام الذي نزل على محمد بن عبد الله؟"

ارتبك الشيخ، لكنه ردّ بنبرة دفاعية:

"يا هذا، نحن لم نخترع شيئًا، بل عدنا إلى الأصل، إلى ما كان عليه السلف الصالح."

ابتسم الشيخ الزائر بهدوء، وقال:

"بل قل: إلى ما ظننتم أن السلف كانوا عليه. أفتى ابن تيمية في زمن فتنة، فعمّمتم فتاويه على الأزمنة كلّها. خشي السلف الشرك، فصنعتم من كل مخالفة شركًا. كانت دعوتكم كالسراج، لكن السراج صار يُحرِق بدل أن يُنير."

سكت محمد، ولم يرد. فقد أحسّ أن الرجل لم يأتِ ليجادل، بل ليحزن معه.

بعد أيام، وصلت أخبار من الأحساء والقطيف بأن جماعات من الشيعة والسنّة، معًا، بدأوا يتمردون على السلطة الدينية، لا السياسية فحسب. رفضوا فتاوى التكفير، ورفضوا الهجوم على أضرحتهم ومشايخهم. وفي القصيم، بدأت بوادر تمرّد صامت، حيث علّق أحد الفقهاء المحليين قوله:

"من أراد أن يُطهّر الأرض من الشرك، فليبدأ من قلبه."

وصل هذا القول إلى أذني الشيخ، فابتسم بمرارة، وقال:

"لو أني سمعته قبل أربعين عامًا، لقلت: هذا زنديق. أما الآن، فأظنني أفهم ما يعنيه."

في مساء ذلك اليوم، زاره ابنه عبد العزيز، وكان قد أصبح من أبرز من يمثّل الدعوة في زمنها الأخير. كان شابًا حاد المزاج، ذا طموح سلطوي واضح، يملك خطابًا ناريًا يناسب المرحلة التي تعيشها الدولة.

قال له:

"يا أبي، الناس بدأت تتخبط. لا بد أن تخرج على المنبر يوم الجمعة وتعيدهم إلى جادة الطاعة. لقد بدأ الضعف ينهش الدعوة والدولة معًا."

ردّ الشيخ، متعبًا:

"وأين كنتَ عندما بدأت أضعف؟ أين كنتَ عندما كنت أبحث عن فتوى تنقذ ماء وجهي أمام الله؟"

قال عبد العزيز بنبرة أكثر حدة:

"وهل تُعذّب نفسك بسؤال الله؟ لقد أقمتَ الدين، وشيدت الدولة، ومهّدت لقيام الإمامة! أيّ فتنة هذه التي تراودك الآن؟"

رد الشيخ بنبرة حادة لأول مرة منذ سنوات:

"فتنتي يا بني أني خفت أن أكون مثل الذين حملوا لواء الدين ثم جعلوه وسيلة للسيطرة. خفت أن أكون فرعونًا ظنّ نفسه موسى!"

وفي المسجد الكبير، خطب محمد بن عبد الوهاب يوم الجمعة، لكن خطبته هذه المرة كانت مختلفة. لم يصرخ، لم يتوعد، لم يكفّر، بل بدأها بآية:

"وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ..."

ثم تابع قائلًا:

"أيها الناس، لقد دعوتكم يومًا إلى التوحيد، ورجوته لله خالصًا. ثم رأيت الشوك في الطريق، فظننت أن السيف يزيله. لكن السيف لا يزيل الشوك، بل يزيد النزف. لا أقول لكم اليوم تراجعوا، لكن راجعوا أنفسكم. ليس كل من خالفكم مشركًا، وليس كل من بنى قبةً ضل، فرب قلوبٍ أخشع من حجارة تتكئون عليها."

ضجّ المسجد بصمت غريب. كانت تلك أول مرة يسمعون فيها الشيخ ينزع عن نفسه درع العصمة، ويكلمهم كإنسان، لا كـ"مجدّد قرن".

خرج من المسجد ببطء، والوجوه شاحبة، لا تدري أتبكي، أم تتوجس، أم تبدأ في التفكير لأول مرة؟

عند عودته إلى منزله، قال لزوجته الوحيدة التي بقيت معه:

"أماه، هل كنتُ قاسيًا عليكِ حين كنتِ تسأليننني: لم لا نزور قبر أمك؟"

فأجابت، والدمعة في عينها:

"كنتَ قاسيًا على نفسك أكثر."

في تلك الليلة، كتب الشيخ آخر سطر في دفتر كان يحتفظ به لنفسه، لم يره أحد من قبل. كتب:

"غدًا، إن متّ، فلينقلوني في صمت. لا خطب، لا بكاء. وادفنوني حيث لا يُعرف اسمي، فقد قضيت عمري أبنيه."

ثم أغلق الدفتر، وأسند رأسه على الوسادة.

كان يعلم أن النهاية تقترب،

لكن في قلبه سلام جديد...

سلام من عرف أنه كان يسير في العتمة،

ويكفيه أنه أخيرًا،

رأى بصيصًا من نور.

الباب العاشر: حوافُّ العرشِ المتهاوي

الفصل الخامس: انطفاء النواة

هدأت الفوضى في قلب الدرعية، لكن الصمت الذي أعقبها لم يكن سلامًا، بل كان أشبه برمادٍ يطفو فوق جمرٍ لا يزال حيًّا في الأعماق. في زوايا القصر، بين جدرانه العارية التي لامست ذات يوم صيحات السلطان والداعية، لم يبقَ من محمد بن عبد الوهاب سوى ظلٌّ باهت، وشبحٌ يتجول في أروقةٍ صارت تُنذر بأفول نجمٍ كان يظنه البعض أبدياً.

لم يكن جسده وحده هو الذي انحنى تحت وطأة السنين، بل حتى صوته الذي لطالما هزّ المنابر بالخطب والتكفير، صار اليوم أشبه بهمهمةٍ شبحيةٍ لا يصغي إليها أحد. أما أبناءه، فقد انشغلوا بما خلفه من ميراث السلطة، والخطاب، والتحالفات. لم يكن في عيونهم والدًا، بقدر ما كان رمزًا يتحرك على رقعة السلطة، ما أن تهالك حتى غُيّب.

مرت شهور من الوحدة، نُزعت فيها الهيبة عن ذلك الذي كان يخشاه الخصوم ويتسابق إليه الطامعون. وفي صباحٍ خريفيّ، حين كانت رياح نجد الجافة تعصف بأبواب المساجد الخشبية، كان محمد بن عبد الوهاب يتكئ على عكازه متوجهاً إلى حمّاماتٍ عامة مهجورة تقع عند أطراف الدرعية، متذرعًا بحاجة الجسد إلى تطهر، وبحثًا خافتًا عن شيءٍ من الدفء، في عزلةٍ ما عادت السياسة تسمح له بكسرها.

لم يرافقه أحد. لم يحمله أحد. لم يلتفت أحد حتى ليسأل أين هو.

دخل الحمام بثوبه الرث، لا أحد يعلم ما دار في خلده، لكن العيون التي رصدته من بعيد، قالوا إنه كان يحدث نفسه بكلماتٍ غير مفهومة، يذكر أسماء من رحلوا، ويتلو آيات مقطوعة، وربما يستعيد فصولًا من خطاباته القديمة، كأنه يراجع تاريخه في وجه المصير.

ساعاتٌ مرّت. ولم يخرج.

وحين اقترب أحدهم بعد غروب الشمس ليتفقده، وجده مسجّى على البلاط البارد، يداه منسدلتان، وعيناه جاحظتان كأنهما تتفرسان في السقف الطيني علّهما تريان ما لم يتحقق.

كان محمد بن عبد الوهاب ميتًا.

مات وحيدًا، بلا حراس، بلا أبناء، بلا وداع.

في المكان الذي اغتسل فيه آخرون من العار، كان هو يغتسل من تاريخه، في آخر محاولة فاشلة للتطهر من الدماء التي سقطت باسم "التوحيد".

لم تُقرع أجراس الحزن، لم يُنعَ كما يُنعى الملوك، بل دُفن سريعًا في موضع غير معلوم، كما يدفن أولئك الذين يخشى الناس من أن تتحول قبورهم إلى مزارات أو إلى رماد.

لكن الموت لم يكن نهاية دعوته.

ففي الزوايا الأخرى من العالم، كان هناك من ينسخ كتبه، من يروّج لأفكاره، من يحوّر خطبه، ومن يحوّله إلى نبيٍّ غير معلنٍ لعقيدةٍ تشتد تطرفًا كلما ابتعدت عن صاحبها.

لم تمت دعوته، بل تشظّت.

وهنا تبدأ الحكاية الجديدة...

التي لا بطلَ فيها بل كثير من الأبطال الزائفين.

والتي لا نهاية فيها بل فصول لا تزال تُكتب بدماء الأبرياء.

(يتبع في الباب الحادي عشر: "الدعوة التي أكلت مؤسسها")

الباب الحادي عشر: الدعوة التي أكلت مؤسسها

الفصل الأول: حين تنهش الذئاب صاحبها

بدا المشهد، منذ البداية، وكأنه تكرار مأساوي لما حدث مع عشرات من المصلحين أو الطامحين إلى قيادة ما، حين تنقلب الدعوة على صاحبها، أو حين تتغوّل الجماعة التي صنعها المؤسس فتجعل من جسده وذكراه مجرد معبر، لا أكثر، لعبور السلطويين الجدد إلى مواقع القوة. محمد بن عبد الوهاب، الذي قاد حملة فكرية وعسكرية لتغيير خارطة العقيدة والعلاقة بين الفرد والسلطة والدين، غدا الآن جثة هامدة، وغابت وصيته تحت أكوام الرمل المتناثر في الحمام القديم.

لم يكن الخبر بوفاته مفاجئًا تمامًا، فالشيخ قد تهالك جسديًا، وتراجع حضوره السياسي والديني في السنوات الأخيرة من عمره، وتحوّل من صاحب الكلمة العليا في التحالف مع آل سعود إلى مجرد "رمز حيّ"، لكنه بلا سلطان حقيقي. لقد أكمل أبناؤه، وتحديدًا عبد الله، ورجال الدعوة من بعده، ما بدأه، ولكن على هيئة مختلفة، هي أقرب للسلطة منها للدعوة، وللسيف منها للكلمة.

وبينما انشغلت المناشير والدروس في المساجد بنعيه بعبارات مقتضبة، لم تكن كافية لإحاطة إرث الرجل، بدأت كواليس الدرعية ترسم خطًا جديدًا لحركة التوسع الوهابي – السعودي، خطًا يستند على "المؤسسة" لا على "الشخص"، وعلى مصلحة الدولة الناشئة، لا على فكر الشيخ المجرد.

في بيت متواضع يجاور أطلال الحمام، جلست زوجته – إحدى نسائه – تبكيه بصمت. لم يكن بينها وبينه في أيامه الأخيرة سوى الذكريات المتفرقة، فقد انقطع عنها وعن أبنائه تقريبًا، وابتعد بنفسه في عزلته القسرية أو ربما المتعمدة. عبد الله بن محمد، الابن الذي ورث العباءة الفقهية لوالده، لم يكن يومًا كأبيه. كان أكثر براغماتية، أقرب إلى إدارة التنظيم لا إلى إحياء الفكر.

وقد بدأ منذ اللحظة الأولى يُبعد رجال أبيه القدماء، أولئك الذين عاشوا على حلم "نقاء التوحيد"، لصالح وجوه جديدة تعرف كيف توائم السياسة والفقه.

بل إن بعضهم – دون أن يعلنوا – لم يروا في وفاة الشيخ مصيبة تستحق البكاء، بقدر ما رأوا فيها "نهاية مناسبة" لرجل سبّب لهم الكثير من الإرباك في مواقفهم مع الأمير عبد العزيز بن محمد. فالشيخ كان يرفض التوسع الدموي أحيانًا، وكان يُصرّ على إعادة النظر في بعض أحكام "الردة" و"الشرك"، حين تصطدم بالواقع أو بالسياسة، بينما الأمراء والدعاة الجدد أرادوا الأمر واضحًا، قاطعًا، لا يحتمل تأويلاً.

في القصر الصغير، الذي أصبح لاحقًا مقرًّا لمجلس الشورى الوهابي، اجتمع بعض الفقهاء من خلفاء الشيخ، وكان بينهم من يُظهر الأسى لوفاته، ولكن يُخفي الارتياح الداخلي لغيابه عن المشهد. أحدهم قال بنبرة حاول أن يغلفها بالخشوع:

"لقد اجتهد الشيخ وأصاب كثيرًا، وأخطأ في بعض ما اجتهد فيه. وهو الآن بين يدي رب رحيم، لكن الواجب علينا اليوم أن نوسع دائرة الاجتهاد، فالدعوة أكبر من الرجل."

كانت هذه العبارة بداية التملص من الإرث الشخصي، وتهيئة الأرضية لبناء مرحلة جديدة عنوانها "الدعوة كسلطة"، لا كرسالة.

لم يعد أحد يراجع كتب الشيخ أو نصوصه الأصلية كما كانوا من قبل. بل بدأت بعض آرائه تُنسى عمداً، أو يُعاد تأويلها لتتلاءم مع تغيرات الدولة. لقد انتقل الوهابية من فكر متمرد على السلطة العثمانية، إلى أداة صلبة في بناء سلطنة محلية.

ولم تكن وفاة الشيخ لتمنع آل سعود من التمدد. كان عبد العزيز بن محمد بن سعود في ذروة صعوده، واستفاد من الغطاء الشرعي الذي تركه

الشيخ، لكنه لم يكن مستعدًا لأن يكون تابعًا لأي رجل دين آخر. لقد فهم منذ البداية أن سلطة الدعوة تنتهي حين تصطدم بمصالح الدولة، ولذلك دفع بالفقهاء ليكونوا موظفين، لا قادة.

بدأت الأحكام تُغلّف بلغة التكفير دون روية، وأصبحت الغزوات "رسالة توحيد" مهما كانت دوافعها سياسية أو اقتصادية. بل إن بعض خصوم آل سعود كانوا يقولون بمرارة:

"لقد رحل محمد بن عبد الوهاب، وبقيت سيوفه تأكلنا."

كانت العبارة تعبّر عن التحول العميق في جوهر المشروع. من دعوة تصحيحية إلى أداة قمعية.

في إحدى الليالي، وبينما كان عبد الله بن محمد يتأمل أوراق أبيه القديمة، توقف عند رسالة كتبها بخط يده، لم تُنشر، ولم يعرفها الناس:

"إني أخشى أن تكون دعوتي هذه بابًا للسلطان، لا طريقًا إلى الله. وإني لأرى من بين تلامذتي من يطلب الدنيا أكثر مما يطلب وجه الله."

أغمض عبد الله عينيه، ثم طوى الورقة دون أن يقرأ أكثر. لم يكن مستعدًا للتفكير في وصايا الراحل الآن. لقد بدأ الفصل الجديد، وبدأت الدعوة تبتلع صاحبها

الباب الحادي عشر: الدعوة التي أكلت مؤسسها

الفصل الثاني: إرث ثقيل، وأرواح تُجلد باسم التوحيد.

بمجرد أن ووري الشيخ محمد بن عبد الوهاب الثرى، بدأ فصل جديد من السردية، أكثر غموضًا، وأشد وقعًا على القلوب التي عرفت بدايات تلك الدعوة كحلم إصلاحي، ثم شهدت بأعينها كيف تحوّلت إلى أداة ترويع، تتحرك تحت اسم الدين، وتجلد المخالف باسم "التوحيد". لم يكن انتقال السلطة الروحية إلى ابنه عبد الله أمرًا تلقائيًا فحسب، بل كان بداية لانعطافة كبرى في مسار الحركة التي أسسها والده.

عبد الله، الابن الأبرز، كان شديد الحذر، كثير التحفظ، يعرف أن ما تركه أبوه هو إرث عظيم، ولكنه أيضًا عبء ثقيل. لم يكن الوريث روحانيًا بقدر ما كان إداريًا، يعرف قيمة الصمت في موضع الكلام، ويتقن استغلال الأثر الرمزي لاسم أبيه كي يُسكت الخصوم.

تحوّلت كتب الشيخ، التي لم تُطبع بعد طباعة منظمة، إلى نصوص محفوظة في صدور الدعاة، يُقتطع منها ما يوافق المرحلة، وتُهمش منها المقاطع التي تُثير الشك أو التردد. لم يعد أحد يذكر أن الشيخ ذاته كان في أيامه الأخيرة أكثر ميلًا للتسامح، ورافضًا لبعض فتاوى القتل التي صدرت باسمه.

الذين عاشوا مع الشيخ وسمعوا منه، عرفوا كم كان يمقت من يستخدم "التكفير" أداة سياسية. بل إنه رفض غير مرة تسليط السيف على خصومه العقائديين دون محاججة، وترك باب الاجتهاد مفتوحًا. لكن هذا كله، سرعان ما دفن مع جسده في الحمام المظلم.

وأصبحت عبارة "قال الشيخ" تكفي لشرعنة أي قرار يتخذه الأمير أو من يلتف حوله من رجال الدين الجدد.

لم يكن هذا كل شيء.

في القرى البعيدة التي دخلتها جيوش آل سعود مدججة بفتاوى "التوحيد"، بدأت القصص المروّعة تنتشر. كانت القبائل تُخير بين ثلاثة أمور: الدخول في الدعوة، أو دفع الجزية، أو السيف. بعضهم اختار الدخول حفاظًا على الدم، وبعضهم جادل، فذبح.

وفي إحدى القرى، حسب رواية شيخ نجدي مسن، وصل الخبر عن دعوة الشيخ من أحد طلابه الذين كانوا يجوبون القرى لإلقاء الخطب. وعندما رفض وجهاء القرية هدم قبر أحد الأولياء الصالحين، تم تصنيفهم فورًا "عبدة قبور". جاء الأمر سريعًا: اقتحموا عليهم الصلاة، وهدموا الضريح، وقتلوا أحد كبار السن الذي بكى على رفات أبيه.

ما كان ليحدث هذا في حياة الشيخ، أو هكذا قال البعض ممن عرفوه عن قرب. ولكن "الفتوى" كانت جاهزة، والتوحيد لا يحتمل عاطفة.

داخل دهاليز الحكم الناشئ، بدأت التمايزات تتعمق. هناك "الفقهاء الأصليون"، أولئك الذين رافقوا الشيخ محمد، وبدأوا يشعرون أن سير الدعوة قد خرج من أيديهم، وتحول إلى مشروع سلطوي. وهناك "الفقهاء الجدد"، رجال عبد الله وعبد العزيز بن محمد، الذين لا يرون في التوسع العسكري إلا امتدادًا طبيعيًا لحكم الله.

في إحدى الجلسات السرية، سأل أحد التابعين للشيخ القديم زميله، الذي انضم إلى منظومة الحكم الجديدة:

"أحقًا ترى أن هدم بيوت المخالفين هو مما أمر به الشيخ؟"

فأجابه بلهجة حاسمة: "إن الشيخ لم يأمر بذلك، ولكنه فتح الباب، ونحن نُكمل الطريق بما تقتضيه المصلحة."

هنا كان الفارق واضحًا: الشيخ فتح بابًا، والورثة وسّعوه حتى التهم البلد بأكملها.

وفي منزل قديم خلف مسجد الدرعية، كانت زوجة الشيخ – آخر من بقيت من نسائه – تجلس وحيدة، تمسح دموعها بكُمها، وتقرأ بصوت منخفض من أوراق احتفظت بها سرًا. كان فيها رسائل الشيخ إليها، يوم كان لا يزال يأمل في أن تكون دعوته سبيل هداية، لا منصة لحكم.

<u>في إحدى الرسائل، كتب لها:</u>

"إن الناس يهابون السيف، لكني أرجو أن يهابوا الله. فإن جاءني يومٌ أُسأل فيه عن دم بغير حق، فأشهدي يا أم عبد الله أني ما أردت بذلك إلا دفع الشرك لا قتل النفوس."

وبكت، كما لم تبكِ من قبل، لأنها كانت تعلم أن كثيرًا من النفوس قُتلت بعده، لا قبله.

ومع الوقت، بدأت أصوات خافتة تتساءل: هل هذه هي الدعوة التي أرادها محمد بن عبد الوهاب؟ هل كان يريد بالفعل أن يُسلخ الدين من رحمته؟ أن يُعزل المجتمع بين مؤمن ومشرك، بلا وسائط؟

لكن لا أحد كان يجرؤ على الجهر بالسؤال. فالحاكم الآن هو "التوحيد المسلّح"، وكل من يهمس غير مقتنع، يجد نفسه موضع شبهة.

كان رجلٌ من أبناء البادية قد قال لرفاقه في خيمة ذات مساء:

"لقد أصبحنا نخشى التوحيد أكثر مما كنا نخشى الجهل."

وإن قالها بصوت منخفض، فقد تردد صداها في قلوب كثيرين.

الباب الحادي عشر: الدعوة التي أكلت مؤسسها

الفصل الثالث: الدم على شريعة الكلمات

كان صباح الدرعية ثقيلاً. لم تشرق شمسه كما ينبغي، بل خفت ضوءها كأنما الأرض بدأت تشعر بعبء الكلمات التي أُلقيت فيها، والدماء التي سالت باسمها. لم يكن أحد في ذلك الصباح ينكر فضل الشيخ محمد بن عبدالوهاب في تغيير وجه الجزيرة، ولكن كثيرين – في دواخلهم – بدأوا يدركون أن الوجه الجديد قد بات أكثر قسوة من الوجه القديم.

في مجلس خاص داخل قصر الحكم، جلس عبد الله بن محمد بن عبدالوهاب، الابن الذي ورث عمامة أبيه وكتبه ومهابته، يتحدث بصوت منخفض مع مجموعة من كبار الدعاة الجدد. كان النقاش محتدمًا حول حادثة قرية "الرميلة" في الجنوب، حيث تم إعدام عشرة رجال لأنهم رفضوا هدم قبر جدهم الأكبر.

قال أحد الحاضرين:

"يا عبد الله، هل يرضى الله بذلك؟"

فأجابه عبد الله، بعينين لا تعرفان الدمع:

"الحق أثقل من الرحمة حين يتعلّق التوحيد بالشرك. نحن لا نقتل، بل نطهّر الأرض من الخرافة."

ضحك أحدهم في زاوية المجلس بسخرية خافتة، ثم قال:

"تطهّر؟ أم تحكم؟"

سكت المجلس، وكان في الصمت ألف تهمة وألف ارتباك.

في أماكن أخرى من نجد، كانت الدعوة تتوسع بسرعة لا تتيح التأمل. رايات العقيدة تسبق السيوف، لكن السيوف تتكلم بلغة أسرع. وفي كل مرة يُقتل فيها رجل، أو تُغلق فيها زاوية صوفية، أو يُجلد شيخ طاعن في السن، كانت الحجة حاضرة: "هذا ما أمر به الشيخ."

ولم يكن أحد يجرؤ أن يسأل: أي شيخ؟ هل هو محمد الذي كان يقول: "نقاتل على الكلمة، لا على الدم"؟ أم هو محمد الذي كان في أواخر أيامه يتبرم من الفتاوى التي تصدر باسمه دون علمه؟

في عام ١٢٢١ هـ، بدأت الأخبار تصل إلى أطراف نجد عن تمرّدات صامتة. لم يكن تمرّدًا بالمعنى العسكري، بل كان تمردًا على "سلطة الخطاب"، حيث رفض بعض القضاة في القرى العمل بالفتاوى القادمة من الدرعية، معتبرين أنها تستند إلى "اجتهاد ميت"، لا إلى روح النص.

<u>في أحد المساجد، وقف شاب اسمه "راشد بن ربيعة" وخطب خطبة طويلة قال فيها:</u>

"لا تقدّسوا الرجال فتقتلوا أنفسكم، ولا تخلطوا بين الله وبين عباده، فإن لله ديناً لا يحتاج سيفاً، ولا يحتاج إلى قطع الرؤوس كي يُقبل."

خرج راشد من المسجد، فلم يُرَ بعدها أبداً. قيل إنه فُقِد في الطريق. وقيل إن الفتوى صدرت بحقه، لأنه "يشكك في الثوابت"، وقيل إن الأمير لم يأمر بقتله، ولكن "رجال التوحيد" تصرفوا بما رأوه مناسبًا.

وفي الرواية الشفهية التي تناقلتها العجائز، أن والدته ماتت حسرة دون أن تعلم قبره أين.

وفي هذه المرحلة، تحوّلت الدعوة إلى آلة خطاب لا تقبل الوقوف، لا تعرف التوقف. كل من يحاول أن يعيد فتح أسئلة التأسيس يُعد عدوًا، وكل من يسأل عن نوايا الشيخ في بداية الطريق يُتهم بأنه "يُلبّس على العامة".

وحدث أن اجتمع ثلاثة من طلاب العلم الكبار في زوايا المدينة، وتناقشوا حول بعض الفتاوى المتضاربة المنسوبة للشيخ. كان أحدهم يحمل نسخة قديمة من كتاب "كشف الشبهات"، وقال:

"لقد قال الشيخ هنا أن أهل الشرك قد يكون فيهم من لا يُقاتل. فكيف نجمع هذا مع فتاوى قتلهم جميعًا؟"

فرد الثانى:

"لأنهم عصوا، فاستحقوا السيف."

أما الثالث، وهو الأكبر سنًا، فظل ساكتًا حتى قال:

"لقد تحول الشيخ من فقيه إلى سيف. ومن كلام إلى حكم. وأخشى أن تنتهي دعوته كما انتهى جسده، في ظلمة الحمامات."

وفي بيت صغير على طرف البلدة، كانت إحدى بنات الشيخ تقرأ في أوراق قديمة كتبها والدها بخطه، وقد رسم فيها ملامح دعوته الأولى، ونبه فيها أن "الدم لا يُراق إلا ببينة، والضرب لا يكون إلا بعد إتمام الحجة."

بكت بهدوء، وهي تهمس:

"يا أبتِ، لقد سرقوا الدعوة، وجعلوك مَطِيّة للبطش، بعد أن مُتّ في حمام مظلم وحيدًا، وأنت تظن أنك أسست لعصر نور."

ومع كل هذا، كانت الدولة في توسع. كانت الدعوة تفتح المدن كما تفتح الكتب، تُسقط الخصوم كما تُسقط الحجج، وتدك الحواضر كما تدك البدع. لكن

تحت هذا كله، كانت هناك طبقة أخرى من التاريخ تتشكل: طبقة من الدم والدموع، تسأل دون صوت: "هل هذا هو ما أراده الشيخ؟"

وسكتت الدعوة...

لكن الصدى بقي يجلجل.

الباب الحادي عشر: الدعوة التي أكلت مؤسسها

الفصل الرابع: الطريق إلى الطغيان.

في سنوات ما بعد موت الشيخ محمد بن عبدالوهاب، كان الظن السائد بين أهل الدرعية أن الأمر سيعود إلى التوازن، وأن الابن عبد الله سيعيد ترتيب الأوراق بروح أبيه، لا بصرامة سيوف الأمراء. لكن، كما في كثير من نهايات الحكايات، فإن الكلمات الطيبة لا تصمد طويلًا أمام شهية السلطة.

بدأ عبد الله بن محمد يفرض نفسه ليس فقط كعالم دين، بل كـ"وارث وحيد للحق"، وهنا بدأت الزوايا تتشقق. لم يعد الفقهاء الآخرون يُعاملون كأنداد، بل كمجرد شارحين لما قاله الأب، وكأن الوحي قد خُتم بعد الشيخ محمد. أصبحت مجالس العلم أشبه بمحاكم تفتيش سرية، يُسأل فيها الطالب عن رأيه، لا ليُفهم، بل ليُدان أو يُكافأ.

وفي تلك الأثناء، كانت رسائل عبد الله تنتشر في أنحاء نجد والحجاز، وفيها من الحدّة ما لم يعرفه خطاب أبيه. لم يكن يقتصر على تكفير العوام والمبتدعة، بل تعداه إلى تكفير خصومه من العلماء الذين لم ينضووا تحت "المنهج الصافي". بعض الرسائل وصلت إلى الطائف والمدينة، وفيها أوامر صريحة بهدم القباب ونسف القبور، "حتى يُطهَّر التوحيد".

وفي كل ذلك، كان صوت عبد الله يحمل نبرة غريبة: مزيجًا من اليقين والمرارة، كأنه يحاول إثبات أن موت أبيه لم ينقص من شرعية الفكرة شيئًا، بل زادها رسوخًا.

لكن، في الحقيقة، كان الابن يبني سلطة لا فكرة.

في إحدى الليالي، جلس عبد الله مع الأمير سعود بن عبد العزيز بن محمد، الحاكم الفعلي للدرعية، وكان الأخير قد بدأ يُضمر شيئًا من القلق من تصاعد لهجة عبد الله تجاه خصومه، حتى من داخل الدولة.

قال سعود:

"يا شيخ عبد الله، لقد كثرت الفتاوى التي تُخرج الناس من الملة، حتى صرنا لا نأمن على جُندنا أنفسهم!"

ابتسم عبد الله، وردّ بهدوء قاتل:

"من آمن بحقك في الحكم، ولم يؤمن بحقي في التفسير، فقد جمع بين نقيضين لا يجتمعان في قلب واحد."

ساد الصمت للحظة، ثم قال الأمير:

"ولكن الناس يتململون... وبعضهم بدأ يهمس أن هذه الدعوة أكلت أباها، فهل تأكلنا أيضًا؟"

نظر إليه عبد الله بعينين لا تعرفان الحذر:

"إذا كنت تخشى على نفسك من الحق، فقد بعت نفسك للباطل."

هنا فهم الأمير، كما فهم غيره، أن عبد الله لم يكن وارث الشيخ فقط، بل وريث فكرة احتكار الدين، وفوق ذلك، وارث الشعور الجارف بأن كل من ليس معه، فهو عليه.

ومع تصاعد هذا التصلب، خرجت من بطون القرى حركة سرية مضادة، قادها فقيه شاب يُدعى "علي بن هزاع"، كان من تلاميذ والد عبد الله نفسه، لكنه رأى أن الحفيد قد زاد عن الحد.

كتب في إحدى أوراقه التي كانت تُنسخ سرًا:

"ما بالكم جعلتم الدين سيفًا؟ ألم يكن رسول الله يفتح القلوب بالكلمة؟ أنسيتم أن ابن عبد الوهاب، في شيخوخته، كان يتمنى لو هدأ خطابه ولم يُسرف في السيف؟ لقد قلتم كفى الله المؤمنين القتال، فصنعتم منه قتالاً أبديًا."

سُجن علي بن هزاع، وقيل إنه أُعدم لاحقًا، وقيل إنه نُفي إلى قرية نائية حيث قضى بقية عمره يُصلح سقوف المساجد وقلوب الأطفال.

ومع مضي الأعوام، تحوّلت الدرعية إلى قلعة لا تُحاور، بل تُصدر. لا تستقبل، بل تُقصي. وبدأ العالم يضيق، شيئًا فشيئًا، حتى صار كل من يحمل تساؤلًا عدوًا، وكل من يشكّ في منهج الشيخ زنديقًا، وكل من يحاول شرح النصوص من غير المعتمدين مبتدعًا.

وكانت الكلمة، حين تنزل، لا تنزل على الورق، بل تنزل على الرقاب.

وفي أطراف المدينة، كانت أمٌ عجوز تُمسك بين يديها بكتاب من كتب الشيخ الراحل، وتقرأه بدموع صامتة، ثم تهمس:

"هذا ليس ما كنتُ أسمعه منه وهو يتكلم في المساجد... لقد خربوا كل شيء باسمه، حتى أصبحنا نخاف أن نذكر اسمه."

وفي ختام الفصل، كانت الدعوة قد بدأت فعلاً في أكل مؤسسها. أكلته حين صار مجرد صورة على جدار، لا يُسمح لأحد بتأملها. أكلته حين وُضعت كلماته على أفواه لا تشبهه. أكلته حين تحولت رسالته من إصلاح إلى انتقام، ومن وعظ إلى صراع وجود.

كان محمد بن عبد الوهاب قد مات

لكن الموتى لا ينامون حين تُسرق أحلامهم.

الباب الحادي عشر: الدعوة التي أكلت مؤسسها

الفصل الخامس: الوحش الذي لم يعد بحاجة لسيّده.

في تلك الليلة، كانت السماء تمطر على الدرعية، ولكن الناس لم ينظروا إلى السماء. كانوا مشغولين بما يجري على الأرض. شيء ما تغيّر، شيء لم يعد كما كان. لا أحد كان يستطيع تسميته تمامًا، لكن الجميع شعر به.

كان ذلك الوحش الذي رُبّي في صمت، وكُسرت له القيود باسم الإصلاح، بدأ يتحرك من تلقاء نفسه.

لقد مات الشيخ محمد، وورثه أبناؤه وأحفاده في الفتوى والسطوة، لكن من ورثهم هم من لم يروا في الفكرة دعوة، بل سلطة. وسرعان ما صارت الدعوة نفسها سيفًا مُسلطًا على رقاب الجميع، حتى على من رفعوه أول مرة. صارت "الوهابية" في أيدي القساة غولًا لا يسمع لمن يروي، ولا يحاور من يفسّر، ولا يصفح عمّن يُذكّر بتواضع البدايات.

عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، شيخ اليوم، لم يعد الشيخ الذي يتصدر دروس العلم بوقار، بل صار رمزًا للقوة العقائدية، و"حامي حمى النقاء الإيماني"، كما لقّبه الأمراء. لكن السؤال الذي ظل يتردد في المجالس: نقاء لمن؟ وبأي ثمن؟

<u>في أحد اجتماعات الأمراء، قال أحدهم:</u>

"لو عاد الشيخ محمد حيًّا اليوم، هل سيرضى بما نفعله باسمه؟"

<u>رد عليه آخر ضاحكًا:</u>

"لو عاد حيًّا، لكان أول من يُكفّر!"

ضحك الجميع، ثم ساد صمت ثقيل، كأنهم أدركوا عمق ما قاله الرجل على سبيل المزاح.

في حارات نجد، بدأ الناس يخافون الكلمة أكثر من السيف. لا أحد يجرؤ أن يسأل. لا أحد يفسر النص. لا أحد يعارض فتوى. لقد خُلق نظام فقهي جديد، لا يسمح بالظل، ولا يتسامح مع التدرّج، ولا يرحب بالشاهد الناقد. وكلّما علت أصوات الاعتراض، ردّ عليهم صوت السلطة باسم الشيخ الذي لم يكن يومًا ملكًا لهم، لكنه صار غطاءهم الأبدي.

في المساجد، كانت خطب الجمعة تُفتتح باسم "دعوة الشيخ المجدد"، وتنتهي بتهديد كل من يخالفها. لم يعد يُقرأ القرآن ليهدي القلوب، بل ليكون دليلًا على العقاب. وكانت كل صلاة جهرية، وكل درس علمي، وكل زيارة قبر، تُفحص وكأنها فعل في ميزان الولاء لا في ميزان الإيمان.

في أحد الحصون، على أطراف المدينة، كانت تُدار محاكم سرية، يحضر فيها الفقهاء ويُحضر فيها المتهمون. والتهمة الأكثر شيوعًا؟

"انحراف عن منهج الشيخ".

ما كان هذا المنهج؟ لا أحد يقدر أن يحدده. لقد صار كل شيء يُحشر فيه، حتى ما لم يقل به الشيخ نفسه، حتى ما كان قد حرمه أو رفضه!

<u>وفي إحدى الجلسات، وقف رجل طاعن في السن، من طلبة محمد بن عبد الوهاب الأوائل، وهو يرتجف:</u>

"أنا لم أكفر الناس يومًا... لا أذكر أن الشيخ أمرنا أن نحكم على الناس من لحاهم أو من عدد الركعات... من أنتم؟ ما هذا؟ من أنتم؟!"

لم يُجبه أحد، فقط أُسدل الستار، وخرج القضاة، وتركوه معلقًا بين جدران تُذكّره بأن هذا الوحش لم يعد بحاجة لسيّده.

في السنوات التالية، دخلت الدعوة في مرحلة التشظي. كل إمام في قرية بدأ يزعم أنه الأحق بتفسير كلام الشيخ. وكل أمير يرى أن تحالفه مع هذا الفقيه أو ذاك هو الضامن الشرعي لحكمه. بدأ الانقسام بين "الوهابيّة الساكنة" و"الوهابية الجهادية"، بين من يرونها وعظًا وبين من يرونها حربًا. ووسط هذا الضجيج، اختفى صوت الشيخ الحقيقي.

فأين محمد بن عبد الوهاب؟

لقد تلاشى خلف مئات الكتب التي كُتبت باسمه ولم يخطها، وخلف آلاف الفتاوى التي لم يقلها، وخلف جماجم كثيرين سُحقت تحت راية لا تشبهه.

وفي ختام هذا الفصل، كانت الدعوة قد أكملت دورانها على نفسها. فها هي الآن تُكفّر أبناءها كما كفّرت خصومها، وتقصي تلاميذها كما أقصت مخالفيها، وتلتهم تراثها كما التهمت خصومها.

لقد أكلت مؤسسها فعلاً... ولم تتوقف بعد.

الباب الثاني عشر: نشيد الرماد الأخير

الفصل الأول: أرض لا تعرف القبور

لم يكن في موت محمد بن عبد الوهاب شيء من الهيبة التي رافقت خطبه الأولى. لم يكن حوله فقهاء، ولا تلامذة، ولا حتى أبناء يحملون رأسه إذا مالت، أو يقرأون عليه شيئًا من كتاب الله كما تفعل العامة عند المحتضرين.

بل لم يكن هناك سوى خادمٍ عجوزٍ كان ينظف الحمام العمومي ذاك اليوم، حين سمع تهاوي جسد في الحجرة الضيقة، وخبطًا ثم سكونًا، ثم برودةً سرعان ما زحفت على البلاط.

سقط الرجل الذي ملأ الجزيرة جزعًا ورعبًا. مات حيث لم يتوقع أحد أن يموت: في الحمام، وحيدًا، عاريًا من كل سلطة، من كل رداء ديني، من كل عظمةٍ صنعها بنفسه.

وما إن شاع الخبر في الزلفي حتى تنفس خصومه الصعداء بصمت، أما محبوه، فقد حاولوا أن يصوغوا الحكاية بغير ذلك:

"لقد اختار الله له خاتمة تطهِّره من أدران الدنيا. مات كما يولد الإنسان، بلا شيء."

لكن من عاشوا معه عرفوا الحقيقة، وخافوا قولها.

في اليوم التالي، لم تقم عليه صلاة جامعة، ولا حُمل جثمانه على أكتاف الناس كما يُفعل بعظماء العلماء.

كان ابنُهُ عبد الله قد أرسل أربعة رجال لدفنه في مكانٍ غير معلوم، تنفيذًا لوصيته:

"لا تجعلوا على قبري شيئًا، لا شاهدة ولا قبة، ولا تخبروا أحدًا بمكانه، فالفتنة أعظم من أن تُعاد من التراب."

وقيل إنهم دفنوه في حديقة مهجورة خلف سوق التمور، بينما قال آخرون إنه دفن في أطراف مقبرة منسية، لا يعرفها إلا اثنان، وكلاهما ماتا لاحقًا في ظروف غامضة.

كان كأن الشيخ أراد أن يُمحى.

لكن من يُمحى إذا كانت دعوته قد تحوّلت إلى سلالة من لهب؟

في المجالس العلمية التي بقيت بعد موته، لم يكن الحزن على الرجل، بل على الصراعات التي تركها وراءه.

قال أحد طلابه:

"ما كنا نعلم أن الشيخ كان يقودنا إلى فوهة بركان. لم نكن نعلم أن كلماته ستمزق الناس أكثر مما توحدهم."

وفي مجلسٍ آخر قال أحد مشايخ المدينة:

"لقد كان الإمام ابن عبد الوهاب أذكى من أن يموت شهيدًا، وأعجز من أن يموت بطلًا. مات كما مات المتعبون، الذين عجزوا عن لجم الحريق الذي أشعلوه."

في الجزيرة، كانت الدولة السعودية الأولى قد أخذت ما أخذته من دعوته، ثم بدأت تتجاوز حتى مبادئه الأولى.

في ظل آل سعود، لم يعد "الشيخ" مرجعًا فحسب، بل صار مذهبًا يُستدعى لتبرير كل قتل، وكل إقصاء، وكل فتوى تحرّض على المختلف.

"الوهابية" تحوّلت من مشروع إصلاحي إلى دين سياسي مسلح.

كان الناس يقولون:

"لقد كانت دعوته تقول: لا طاعة لمشرك... ثم صارت تعني: لا بقاء لغيرنا."

وقيل إن ابنه عبد الله كان يُمسك بكتاب والده، ويضرب به المنبر قائلًا:

"هذا دين الله، ومن خالفه فهو مرتد!"

وحين اقتُحم أحد المساجد القديمة في المدينة لكونه على الطراز الحنفي، وكان فيه قبر مَرمري قديم لشخصية من القرن السابع الهجري، كُسر القبر، ونُبش، وسُحبت العظام على مرأى الناس.

قال أحد الشيوخ الجدد بصوت مرتعش:

"ما هكذا كان الشيخ... ما هكذا."

لكن الصوت غرق في التصفيق والهتاف:

"الله أكبر! التوحيد ينتصر!"

في أطراف البصرة، كان أحد التجار العائدين من الحج يبكي في السوق، قال له الناس:

"ما يبكيك يا حاج؟"

قال:

"رأيت هناك ناسًا لا يعرفون الرحمة. حجرتهم قاسية، وفتاواهم كالسكاكين. قتلوا رجلاً لأنه قال آمين بصوت، وضربوا امرأة لأنها زارت قبر أمها... وسألوني: ألستَ موحدًا؟ وكأن الله لا يعرف قلب عبدٍ إلا بعد أن يسأله تلميذ الشيخ..."

ومات محمد بن عبد الوهاب، فظن خصومه أن السردية انتهت

لكن القصة بدأت للتو.

بدأت بالأسطر التي كتبها بخط يده:

"إن التوحيد هو ما بعث الله به الأنبياء، وهو أول واجب على العبد، ولا يكون العبد مسلمًا حتى يعرفه ويعمل به ويترك الشرك..."

ومن هذه الكلمات، خرج السيف.

السيف الذي لم يَعرف حين يضرب، أهو يقطع حطب الجاهلية، أم أعناق المسلمين؟

كان عبد العزيز بن سعود حينها في أوج سلطته، وكان يعرف أن موت محمد بن عبد الوهاب لا يعني شيئًا سياسيًا.

قال لمقربيه:

"لقد كان رجلاً عظيمًا، لكنه لم يكن الدولة. الدولة نحن... والشيخ ما هو إلا عمود من أعمدتها."

ابتسم ثم أضاف:

"لكن عمود النار لا يُدفن، هو يحترق، ثم يُورّث."

في الخفاء، سُمعت كلمات تقول:

"إن الدعوة التي قتلته... هي التي ستحكم باسمه.

وإن الذين رفعوه حين كان محتاجًا... هم من أسقطوه حين صار عبئًا.

وإن التاريخ سيذكره كخيط طويل من النار... لا يعرف الناس أكان دفئًا أم حريقًا."

فأين تذهب الأفكار حين يموت أصحابها؟

هل تموت معهم؟

أم تتحول إلى أشباح تتلبس الزمن... وتعيد رسم الخرائط بدمٍ جديد؟

الباب الثاني عشر: نشيد الرماد الأخير

الفصل الثاني: الذين لم يموتوا

عندما مات محمد بن عبد الوهاب، لم تمت دعوته، بل كأن موته حررها من ظله. تحولت الفكرة إلى كائنٍ متوحش يمشي وحده، يختار شكله، ويُعيد كتابة وصاياه كيفما يشاء.

في السنوات الأولى بعد رحيله، كان أبناؤه وتلاميذه يختلفون في تفسير عباراته، لا كما يختلف الفقهاء، بل كما يختلف الجنود على غنائم ميتٍ لم يوصِ بشيء.

عبد الله بن محمد، أكبر أبنائه وأكثرهم تشددًا، أمسك براية أبيه وركض بها نحو السيف. قال في أول خطبة بعد وفاة والده:

"لقد مضى الشيخ إلى ربّه، ولكن دين الله باقٍ. ومن رأى في موته نهايةً، فقد ضل. إن هذا الدين لا يعرف التراجع، ولا يقبل التلوي، ومن تردد فيه، فقد ارتدّ."

وفي تلك الخطبة، ارتعد بعض الحضور، لا من قوة الخطاب، بل من القسوة التي بدأت تظهر فيه. لم تكن دعوة توحيد خالصة كما عهدوها في بداياتها، بل بدأت تتحول إلى دعوة إقصاء ديني مطلق.

في بلدة "العُيينة"، حيث كان الشيخ محمد قد بدأ دعوته، بدأت حكاية جديدة تُكتب.

جاء مبعوث من الدرعية يطالب بإزالة قبورٍ قديمة من المقبرة القديمة، بحجة أن الشيخ قال ذلك في إحدى رسائله.

وقف رجل طاعن في السن أمام العمال قائلاً:

"هنا دُفن أبي، وجدّي، وأبيك يا عبد الله. هل صار أبي شركيًا؟"

رد عليه القائد الشاب ببرود:

"ما نُحاسب به الأموات، نحاسب به الأحياء."

وفي ليلة واحدة، سُوّيت قبور القرية جميعها، وتحوّل المكان إلى أرضٍ عارية من الذكرى... لا شيء فيها يُذكّر بالموت، ولا بالحياة.

أما في الحجاز، فقد كان صدى موت الشيخ مختلفًا.

قال أحد علماء مكة:

"مات الرجل، ولم تمت فتنته. كان في حياته جدليًا، وأما بعد موته، فقد صار رمزًا، والرموز لا تُناقش، بل تُعبد."

هنا تخلّت الدعوة عن عباءتها الزاهدة، وصارت درعًا سياسية.

صار اسم "محمد بن عبد الوهاب" يُستعمل في الصفقات، في الخطابات، في عقود الولاء، في الرسائل التي تُرسل للعثمانيين والتي تُخفى عنهم.

صار الاسم سيفًا، لا فكرًا.

كان هناك رجل يُدعى "سليمان بن عبد الوهاب"، الأخ الأكبر للشيخ محمد، وقد عارضه طيلة حياته.

<u>بعد موت الشيخ، كتب في إحدى رسائله:</u>

"لقد مات أخي، ولكني أخاف على دين الله مما بقي من دعوته أكثر مما كنت أخافها في حياته. لقد تحول التوحيد إلى سيفٍ بلا مقبض، يحمله من يشاء ليضرب من يشاء."

لكنه طُرِد لاحقًا من داره، وصودرت كتبه، وقيل عنه إنه خرف في آخر أيامه.

في بغداد، في دمشق، في القاهرة، بدأ العلماء يردون على الوهابية بعد موت مؤسسها لا قبل ذلك.

ربما لأن هيبة الشيخ، وشخصيته النارية، كانت تمنعهم من الخوض في حرب فكرية مفتوحة.

أما الآن، فكلٌ استل قلمه.

<u>وظهرت كتب:</u>

- **"الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدعة المفترقة"**
- **"الرد القويم على الفرقة الوهابية اللئيم"**
- **"جمال الإسلام في التوسل بالأئمة الكرام"**

لم تكن ردودًا علمية فحسب، بل كانت معارك شرسة، لا ترحم، فيها الشتيمة، وفيها الاجتثاث، وفيها القلق من أن تكون هذه الدعوة قد فتحت بابًا لن يغلق.

وفي وسط الجزيرة، في الدرعية تحديدًا، كان "سعود بن عبد العزيز" قد بدأ يستثمر في كل رمزية خلفها محمد بن عبد الوهاب.

تحوّلت كتبه إلى مناهج تعليم، وخطبه إلى شعارات دولة، وأقواله إلى قرارات حكم.

وصار السؤال المطروح في المجالس:

"هل الدولة هي الدعوة، أم الدعوة هي الدولة؟"

فأجاب فقيه من تلامذة الشيخ:

"لقد خُلط الزيت بالنار، ومن يظن أنه قادر على فصلهما... يحترق."

مرت عشر سنوات بعد موته، ولم يضعف الاسم، بل ازداد لمعانًا.

لكن غريبًا أن كل من كان يعرف الشيخ عن قرب، كان يتهرّب من الحديث عنه.

كانوا يقولون:

"دعونا لا ننبش في الماضي. الدعوة الآن أكبر من المؤسس."

وهكذا، صار محمد بن عبد الوهاب مجرد صورة على جدار، وفتوى على كتاب، واسم يُذكر لتبرير كل شيء.

وفي بعض الليالي، كانت تُروى حكاية:

"أن رجلاً جاء في المنام إلى أحد الصالحين، وقال له: رأيت الشيخ في نومي، لا في قصرٍ ولا في نور، بل واقفًا عند بابٍ مظلم، يسأله حارس: لمن كانت هذه الفتن التي اشتعلت من كلماتك؟ فلم يُجب."

كان بعضهم يضحك، وبعضهم يبكي، وبعضهم يقول: "الرؤى ليست حجة."

<u>لكن الجميع كانوا يعرفون:</u>

أن الدعوة ما زالت حيّة

وأن المؤسس صار، رغمًا عنه

مجرد رماد... يحمل لهيبًا لم ينطفئ بعد

الباب الثاني عشر: نشيد الرماد الأخير

الفصل الثالث: وصايا في رماد البلاد

لم تكن الجزيرة قد لفظت أنفاسها بعد، لكنها كانت تتنفس رمادًا.

موت محمد بن عبدالوهاب لم يكن موتًا تقليديًا لرجل، بل كان حدثًا كونيًا صغيرًا تمخّض عن زلزال في الأرض والعقيدة والدماء. لقد توفي الرجل، لكن ظلاله كانت تمشي في الأسواق، وتتلوى في المساجد، وتُطل من شرفات القلاع، وتتحدث بلسان الحكّام.

في البداية، لم يكن هناك ما يُعرف بـ"الوصايا" التي تركها محمد بن عبدالوهاب، لكن مع مرور السنوات، بدأ أبناؤه وتلاميذه يدّعون أنهم ورثوا عنه "وصايا سرية"، بعضهم أخرجها على هيئة فتاوى، وبعضهم حوّلها إلى أحكام سياسية، والبعض جعلها عقيدة رسمية للدولة.

وكانت أولى تلك الوصايا التي ترددت في المجالس:

"الدعوة لا تستقيم إلا بالسيف، فإن تعذّر، فباللسان، فإن خُذِل، فبالهجر."

قالها عبد الله بن محمد – كما زعم – في مجلس حضره الأمراء، ثم أمر بكتابة هذه العبارة على واجهات المدارس والمساجد.

كانت العبارة مثل السيف المكسور: تُثير الخوف، لكنها لا تُثبت حقيقتها.

في أواخر القرن الثامن عشر، اشتدت قبضة الدعوة على الجزيرة، وصار اسم الشيخ الراحل أشبه بالمانيفستو الديني الذي يُقسِم عليه القادة قبل توليهم المناصب.

في كل جمعة، كان الخطباء يبدؤون خطبهم بعبارة:

"الحمد لله الذي أحيانا بدعوة التوحيد، وأخرجنا من ظلمات الشرك، على يد الشيخ المجدد، محمد بن عبدالوهاب، رضي الله عنه."

لكن خلف هذا التمجيد، كان صوتٌ آخر خافت، لا يُسمع إلا في أطراف القرى، وفي المجالس الخفية:

- **"أي توحيد هذا الذي يقتلنا؟"**
- **"أي تجديد هذا الذي يمنعنا من البكاء على آبائنا؟"**
- **"أي فكر هذا الذي يشتم التاريخ كله ثم يبني دولة على مقبرة؟"**

في المدينة المنورة، حيث قبور الصحابة والآل، دبّت الحيرة بين الناس، فقد بدأ أتباع الشيخ يُثيرون قضية "التوسل"، و"الزيارة"، و"التبرك"، وكانوا يرددون:

"ما قاله الشيخ عن المدينة أعظم مما قيل عن مكة، لأن الشرك فيها أقرب، والقبور أوضح، والناس أضعف."

كان ذلك حديثهم لا حديثه، ولكن أحدًا لم يكن يجرؤ على فصل القول عن القائل.

في الدرعية، كان "سعود الكبير" يُعدّ حملة باتجاه الحجاز، وكان يأمر الناس بالجهاد "في سبيل التوحيد"،

لكن أحد الشيوخ الكبار، وكان من تلاميذ الشيخ الراحل، وقف وقال له:

"أيها الأمير، إن أردت التوحيد، فابدأ بسوقك، حيث يُباع العبد والحرّة في آن. وإن أردت الدين، فابدأ بعلمائك الذين يتاجرون بالفُتيا كما تُتاجرون بالسلاح."

فقُطعت لسان الشيخ بعد أسبوع، وسُجل في السجلات أنه "مات بداء مفاجئ في اللسان".

ما كان يُراد من وصايا محمد بن عبدالوهاب، لم يكن النصوص، بل الصمت.

- **الصمت عن السؤال.**
- **الصمت عن التفسير.**
- **الصمت عن الأثر.**
- **لقد صنعوا من فكر الشيخ سورًا صامتًا، لا أحد يتجاوزه، حتى لو تكلم.**

لكن المدينة كانت تغلي.

والبصرة كانت تسخر.

والقاهرة بدأت تُعلّم في الأزهر رسالة سماها بعض الأساتذة:

"الرد على الدعوة التي شوّهت الأنبياء وقدّست المشايخ."

ومن أطرف ما رُوي عن تلك المرحلة، أن أحد طلاب العلم كتب رسالة يسأل فيها أحد كبار المشايخ في نجد:

"هل يجوز أن نُنكر شيئًا قاله الشيخ محمد بن عبدالوهاب، إن بدا لنا ضعفُه؟"

<u>فجاءه الجواب بعد شهر، مختومًا بخاتم الدولة:</u>

"إنكار الشيخ إنكار للحق، وإنكار الحق نفاق، والنفاق كفر، والكفر يُقاتل، والقتال عليه أجر عظيم."

فأُطلق على الطالب لقب "المنافق"، وسُجن سنة، ثم خرج، فهرب إلى العراق، وأصبح من أبرز خصوم الدعوة.

وفي عام ١٨١١، وصل خبر إلى المدينة أن محمد علي باشا في مصر بدأ يعدّ حملة باتجاه الجزيرة، لتدمير الدرعية.

اجتمع العلماء والأمراء والتجّار، وخاف الجميع من انطفاء الشعلة.

<u>قال أحدهم:</u>

"إن الشيخ لم يمت، ما دام التوحيد معنا."

<u>لكنّ آخر ردّ عليه:</u>

"بل التوحيد الحقيقي مات، وما بقي إلا توحيد البنادق."

في آخر ذلك العام، اجتمع تلاميذ الشيخ في أحد المساجد، وقال أحدهم:

"لقد تركنا الوصايا، وتركنا الأمانة. لقد أكلتنا الدعوة. إن فكر الشيخ محمد لم يكن يومًا كما نراه اليوم. لقد شوهناه، حتى صار يخجل منا لو عاد."

وساد صمتٌ رهيب.

ثم سأل شاب صغير:

"وهل سيعود؟"

فأجابه الشيخ العجوز:

"لا يعود من صار رمادًا."

وانتهى المجلس، وبقيت الدعوة تمشي، لا تنظر إلى الوراء، ولا تستأذن من أحد.

لكن من يعرف التاريخ، يعرف أن النار التي تبدأ بدعوة، لا تنتهي إلا على أطلال وطنٍ لم يعد يعرف اسمه.

الباب الثاني عشر: نشيد الرماد الأخير

الفصل الرابع: أطـلال من جمــر

لم تكن النار التي أضرمتها الدعوة لتأكل خصومها فحسب، بل كانت تلتفُّ على نفسها كأفعى هرمةٍ، تنهش ذيلها حين لا تجد طريدة.

مع مضي العقود، وتحوّل "التوحيد" من شعار ديني إلى لافتة سياسية، بدأت المسافات تتسع بين جوهر العقيدة وروح الإنسان.

أصبح الناس في نجد يُصنفون لا على أساس أعمالهم أو قلوبهم، بل بناء على عدد مرات إنكارهم "البدع"، وعدد خصومهم من العلماء "غير المرضيين".

صار الطفل منذ نعومة أظفاره يُلقّن لا أن يعرف الله، بل أن يُكفّر من لا يعرفه كما عرّفه الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

كان ابن عبدالوهاب قد مات، لكن أبناءه، وأبناء أبنائه، وتلامذته، كانوا يملؤون الأرض...

واحدٌ في القضاء، وآخر في الفتيا، وثالث في الجيش، ورابع في قصر الأمير.

كلهم يدّعون أنهم الورثة الشرعيون، لا لفكره فقط، بل "لروحه".

لكن "الروح" ذاتها لم تكن تعرفهم.

أحد أحفاده، وكان اسمه عبد اللطيف، جلس يومًا يروي لتلاميذه في المسجد:

"لقد أخبرنا جدّنا أنه لا يقاتل إلا المشرك، ولا يكره إلا المبتدع، ولا يبتغي إلا وجه الله."

فقال أحدهم بحماسة:

"وهل نكفّر اليوم من خالف دولتنا؟"

فأجابه:

"نكفّر من خالف الله، لا من خالف الأمير."

لكن صوته ضاع في ضجيج "المطاوعة" في الشوارع، الذين صاروا يجلدون الناس باسم الشيخ، ويفرضون الغرامات باسم "الفتاوى النجدية"، ويُحرّمون المصابيح في القبور، ويطاردون النساء في الأسواق، ويمنعون كتب التاريخ، ويقفلون مكتبات التصوف، ويغلقون نوافذ الأسئلة.

في إحدى ليالي الشتاء، روى أحد الرحالة الذين زاروا الدرعية حديثًا عجيبًا:

- **"جئت أبحث عن بلاد الدين، فوجدت بلاد الخوف.**
- **جئت أتعلم القرآن، فوجدت القتل يُشرّع به.**
- **جئت أرى ورثة شيخ، فوجدت عبيد ظلّه."**

ومع بداية القرن التاسع عشر، واشتداد حملات محمد علي باشا، انهار حلم الدولة الأولى.

سقطت الدرعية، وأُحرق بيت الشيخ، وتبعثرت كتبه، وسُبيت بعض أسر رجاله، وفرّ بعضهم إلى أطراف الصحراء.

عند هذا المنعطف، بدأت "الأسطورة" تأخذ شكلها المكتمل:

- **الشيخ لم يمت، بل هُرّب.**
- **الشيخ لم يفنَ، بل غاب ليعود.**
- **الشيخ لم يُحرَق بيته، بل تنقّلت بركته إلى صحراء أخرى.**

هكذا قيل، وهكذا اعتُقِد، رغم أن الحقائق كانت تقول: مات في الحمّامات، وحيدًا، حافيًا، يتقلب على طين ساخن، بلا سند ولا ماء، بعد أن فرّ منه أبناؤه لحظة احتدام المرض، خشية أن يُتهموا بخدمته.

وبينما كانت بنادق محمد علي تنهي آخر رمق في الحجاز، بدأ كثير من النجديين يستفيقون من سكر الخطاب، ويطرحون الأسئلة الممنوعة:

١) "هل دعوة الشيخ كانت دينًا خالصًا؟ أم كانت مشروعًا سياسيًا مغطى بآيات؟"
٢) "هل كان الشيخ نبيًا ليُتبع بلا مراجعة؟ أم مجرد فقيه أخطأ وأصاب؟"
٣) "هل نحن أمة محمد بن عبدالله؟ أم أمة محمد بن عبدالوهاب؟"

في أطراف الأحساء، كتب أحدهم رسالة ودفنها في قبر جده، بعد أن عجز عن إرسالها لأحد:

"يا جدي، لم نعد نعرف مَن نعبد.

صارت التلاوة مهنة، والقتل فتوى، والبراءة تهمة.

كل شيء صار باسم الدين، والدين لم يبقَ منه شيء.

الشيخ مات، نعم، لكنه لم يرحل...

بقي معنا، في كتب لا تُقرأ، وفوق منابر لا تُناقَش، وبين جدران لا يُسمح لها بالتنفس.

فمتى نموت نحن؟"

وتروي امرأة من بادية العارض أن جدتها أخبرتها ذات مساء، وهي تقلب بعض حبات الرمل:

"كان محمد بن عبدالوهاب رجلًا قويًا، لكنه لم يكن يُجيد البكاء.

ولهذا، صار أتباعه لا يعرفون كيف يرحمون.

وكان يُحب النخل، لكنهم أحبوا السيف.

وكان يُجادل، لكنهم أفتوا.

وكان يُحذّر، لكنهم صرخوا.

ولهذا خسرنا البلاد، وبقيت لنا النار."

نهاية هذا الفصل لم تكن في الكتب، بل في وجدان الناس الذين لم يعودوا يثقون في الفتاوى ولا في الألقاب.

عرفوا أن الدين لا يُختصر في رجل، ولا تُبنى العقيدة من مقصلة، ولا تُقام الدولة على جسد الميت.

عرفوا أن الشيخ... إن كان قد أحيا التوحيد، فقد أكله أبناؤه.

وإن كان قد مات على طهارة، فقد نُقضت تلك الطهارة بالدم.

عرفوا أن "النشيد الأخير"... لا يُغنّى إلا فوق الأطلال.

الباب الثاني عشر: نشيد الرماد الأخير

الفصل الخامس: نهاية رجلٍ لم تنتهِ

لم يكن محمد بن عبد الوهاب مجرد رجلٍ من نجد، بل كان انشطارًا في بنية التاريخ.

رجلاً كتب فكرًا، وترك بعده حرائق لا تعرف رمادًا.

حين لفظ أنفاسه في تلك الحمامات المهجورة، كان مخلوعًا من سلطته، منهكًا من دعوته، متورم القدمين، محطم القلب.

الذي بدأ رحلته طالب علمٍ يكتب الحاشية على المتون، مات دون أن يجد من يقرأ له الفاتحة من أبنائه، ولا حتى من يسقيه كوب ماء في احتضاره.

مات، كما تموت الأشجار في الصحراء: واقفة، يابسة، متفتتة تحت سماءٍ بلا غيم.

لم يكن موتًا عاديًا.

كان انسحابًا من التاريخ بصمتٍ متروك لعدسات الرواة ومقصات الساسة، انسحابًا كُتب عليه أن لا يُصدق، وأن لا يُنسى، وأن يُعاد كتابته كلما أرادت دولة أن تبني نفسها من رماد رجل، أو أن تبرر مذبحة باسم "العودة إلى التوحيد".

كان جسده ملفوفًا بخرقة من صوف قديم، يُقال إن أحد الخدم هو من وجده ميتًا بعد أن لاحظ أن الماء لم يتحرك في قِدر الحمام منذ ليلتين.

لا صلاة جنازة مهيبة، لا تابوت مذهّب، لا وداع على منبر، لا جماهير تبكي...

كل شيء تم على عجل. وكأنّ الرجل الذي شقّ نصف الجزيرة، لم يكن يومًا سوى ظلٍّ تلاشى.

ولم تمض أعوامٌ حتى تغيّرت الرواية:

- **"مات شهيدًا!"**
- **"قُتل غدرًا!"**
- **"رأى النبي في المنام وقال له: حان وقت الرحيل!"**

لكن الحقيقة كانت أبسط، وأقسى.

مات منبوذًا، لأنه صنع دعوةً أكبر من الحياة، وأصغر من الإنسان.

في أحد دفاتر النسب في الدرعية، وجدت عبارة بخطّ أحمر على اسم الشيخ:

"صاحب الفكرة التي أكلت صاحبها."

وقد علّق عليها أحد الكتبة في الهامش، بعد سبعين عامًا:

"كل نار تبدأ بسراج. والسراج لا يبقى."

سقطت الدولة، وقامت ثانية، وثالثة، ودائمًا كان اسمه يُبعث معها من بين القبور.

لكن السؤال الذي لم يجد له تلامذته جوابًا:

- **هل كان يعلم الشيخ إلى أين ستصل دعوته؟**
- **هل كان يتصور أن تُذبح العوائل لأن أحدهم زار قبر أمه؟**
- **أن تُجلد الفتيات لأن شعرهن انكشف لحظة ريح؟**
- **أن يُهدم تاريخ أمة، لأن "السنة" لم ترد بوضوح؟**

- **أن تُمحى مكتباتٌ كاملة، لأن فيها كتابًا عن التصوف؟**
- **أن يتحول التوحيد إلى "عقيدة الخوف"، وأن يصبح الدين "مدرعة" يقودها من يصرخ أكثر؟**

كان الرجل يريد إصلاحًا... لكن أدواته كانت قنابل.

وكان يطلب معرفة... لكن مفاتيحه كانت تكفيرًا.

وكان يبحث عن الله... لكن أتباعه وجدوا "عدو الله" أسهل في الوصول.

<u>وتروي امرأة عجوز من أهل عنيزة، أن جدّها كان يقول وهو يُشير إلى السماء:</u>

"يا بنتي، الشيخ أراد أن يردّ الناس إلى ربهم،

لكنّ قومه ردّوا الناس إلى القبر."

<u>وفي حفر الباطن، نقش أحد المعلمين بيتًا من الشعر على الحائط الخلفي للمدرسة:</u>

"علّمونا أن نكفر الناس كي نكون مخلصين،

ثم سألونا: أين ضاعت الرحمة؟!"

ورغم كل شيء، بقي محمد بن عبدالوهاب... سؤالًا.

- **هل كان مُصلحًا؟ أم مُحرّضًا؟**
- **هل كان مجددًا؟ أم مدمّرًا؟**
- **هل كان واعيًا بمصير دعوته؟ أم ضحية جهل أتباعه؟**
- **هل كتَب فكرًا حيًا؟ أم نصوصًا محنّطة؟**
- **وهل كان يعلم... أن النار إن اشتعلت لا تعود تسأل من أشعلها؟**

في عام ١٩٣٢، حين أعلن عبدالعزيز آل سعود قيام المملكة العربية السعودية، كانت أولى خطبه بعد إعلان التوحيد السياسي تقول:

"نبني على ما بناه الشيخ، ونحكم بما أنزل الله، ونقيم الدولة على العقيدة."

<u>لكن صوتًا من بعيد، لم يسمعه أحد، قال:</u>

"لكن هل سألتم أنفسكم ما بقي من الشيخ؟

وهل هو الشيخ... الذي مات في الحمام؟

أم الذي يحيى اليوم في بنادقكم؟"

مرّت القرون، وذهبت الدولة الأولى، والثانية، والثالثة...

لكن السردية لم تتغير.

محمد بن عبد الوهاب ظلّ طيفًا في كل خطبة جمعة، وورقة في كل كتاب مدرسي، واسمًا في كل فتوى.

ولم يُسمح أبدًا بأن يُقرأ كرجلٍ فقط.

بل ظل يُقرأ كـ"معجزة"، كـ"مُلهَم"، كـ"أسطورة".

بينما الحقيقة كانت تتكئ على عكازٍ صدئ في زاوية مهجورة من الحمام الذي مات فيه.

وها هو اليوم، القرن الواحد والعشرون، ولا يزال الجدل حيًا،

يقتتل الناس على قبره، ولا أحد يعرف موقعه بدقة.

تُقرأ كتبه، ولا أحد يجرؤ على نقدها.

يُلعن أعداؤه، دون أن يُسأل أحد: هل كان له خصوم أم أصحاب فكر مختلف؟

والشيخ... لا يُجِيب.

لا لأنه اختار الصمت، بل لأنه مات وهو يحاول أن يُفهم نفسه.

فيا محمد بن عبدالوهاب،

أيها الرجل الذي أحرق نفسه باسم الله،

أيها المُجدد الذي شُوهت صورته بين أنياب الفقهاء والساسة،

أيها البشري الذي حُمّل ما لا يُحتمل...

اعلم أنّ التاريخ لا يغفر، لكنه يتذكر.

وأنّ دعوتك، إن كانت قد ابتدأت من نور،

فقد احترقت في لهبٍ لا يُطفئه إلا ماء الصدق.

وأنّك إن كنت شهيد فكرة، فقد كنت أيضًا قتيلها.

وأنّك، يا شيخ الصحراء، لم تُهزم من عدوك، بل من ظلك.

فالسلام على من وعى...

والسلام على من بكى...

والسلام على من أدرك، في لحظة متأخرة،

أنّ أقسى الهزائم... هي التي تبدأ بالنصر.

نهايـــة الباب الثاني عشـــر

ونهايـــة الروايـــة

محمد نجيب نبهان

الخاتمة

بين ظلال الحقيقة ولهيب الخرافة

ليست هذه الرواية وثيقة، ولا بيانًا سياسيًا، ولا مرجعًا عقائديًا.

هي – ببساطة – محاولة للكتابة عن الإنسان حين يلبس عباءة الفكرة، فتأكله، ويمضي لا هو بقي، ولا هي بقيت كما كانت.

هي رواية عن السؤال حين يتحوّل إلى سيف، وعن الحلم حين يتضخم حتى يُفقِد الحالم ذاته.

حين بدأت هذه الرواية، لم أكن أبحث عن إدانة، ولا عن تبرئة.

كنت أبحث عن الإنسان.

عن محمد بن عبدالوهاب كما يمكن أن يكون، لا كما قُدّم إلينا.

عن الرجل الذي اجتهد فأخطأ، أو اجتهد فأصاب، أو اجتهد وترك النار تحرق من خلفه بلا مراجعة.

عن من قيل فيه ما لم يقله، وفُعِل باسمه ما لم يأذن به، ثم صمت، أو مات، أو طُمر اسمه تحت تراب السياسة.

ما كتبتُه هنا ليس دفاعًا عن أحد، ولا طعنًا في أحد.

بل محاولةٌ لأن نستعيد حقّنا في أن نسأل:

من هذا الذي نردده في مناهجنا وخطبنا وفتاوينا دون أن نقرأه حقًا؟

من هذا الذي سُمي "شيخ الإسلام"، ومُنع نقده، حتى غدا مقدّسًا أكثر من النبي عند بعضهم؟

من هذا الذي بدأ من بُرَيدة، ومات في الحمام، بعد أن صارت دعوته إمبراطورية عقائدية فوق خريطة الخليج، وحولها أنهار من الدماء؟

إن أخطر ما يمكن أن يحدث لأمة، أن تُقدّس رجلًا ثم تُشيطن الآخرين باسمه.

أن تكتب التاريخ برصاصة، وتكفّر الحاضر بحبر ماضٍ لا يُمحى.

وفي كل سطر من هذه الرواية، كنت أحاول أن أكتب لا عن "الوهابية" بوصفها مذهبًا فقط، بل كحالة ذهنية، ونفسية، وروحية.

عن فكرة أُطلقت من قمقم التوحيد لتعيد تشكيل العالم، ثم لم يسأل أحد: إلى أين نمضي؟

عن فتوى تهدم قبرًا اليوم، وتُبيد مدينة غدًا.

عن طهارة تذبح باسمها فتاة، ونقاء عقيدة يجزّ رقبة طفل لأنه تبسّم عند مزار.

وما أخطر الدعوة حين تفقد قلبها.

وما أقسى التوحيد حين يُنسى فيه الإنسان.

لقد أردتُ من هذه الرواية أن أضع القارئ لا في موقع الخصم أو المؤيد، بل في موقع الناظر إلى المأساة من أعلى، ليراها بوصفها تراكمًا من اختيارات البشر، لا وحيًا سماويًا نزل بقطعياته.

ليدرك أن لا أحد، مهما كان، فوق النقد، وأن أكثر المقولات فتكًا، هي التي تُزيَّن بثوب "السنة"، بينما لا أصل لها في جوهر الدين.

إن محمد بن عبدالوهاب، الذي مات في الحمامات، كما ورد عن أكثر من رواية، لم يكن نبيًا، ولا رسولًا، ولا قديسًا.

بل كان رجلًا من لحم ودم، له ما له، وعليه ما عليه.

ربما أراد الخير، لكنه لم يضبط خطواته.

وربما نوى الإصلاح، لكن سياطه سبقت نياته.

وربما آمن بالله، لكنه كفر بالبشر.

ولعله – لو عاد – لبكى على ما فعله من بعده ورثة الظن، الذين حوّلوه من مفكر إلى صنم، ومن مصلح إلى سيف، ومن داعية إلى نذير شؤم.

ولعلّه – لو رأى النار التي أُشعلت باسمه – لقال:

"اللهم إني بريءٌ من هؤلاء، كما كان المسيح بريئًا ممن قتلوا باسمه."

لا تموت الأفكار السيئة بموت أصحابها،

لكننا حين نُعيد قراءتها بشجاعة، نكسر دورتها.

ولا تتطهّر الدعوات بالصراخ،

بل بالمراجعة، بالاعتراف، بالندم، وبالإنصاف.

ولا ينهض مجتمعٌ خائفٌ من سؤال الحقيقة.

ولا تزدهر حضارة تخشى أن تقول: "أخطأنا."

لهذا كتبت.

ولذلك صمتُّ حين كان يجب أن أصرخ، وصرختُ حين كان الصمت عبودية.

لا لأجل محمد بن عبدالوهاب،

ولا لأجل خصومه،

بل لأجل الإنسان،

ذلك الكائن الذي يصنع الإلهة، ثم يُسحق باسمها.

فإذا كنتَ قد قرأت هذه الرواية حتى نهايتها،

فاعلم أن ما تراه فيها ليس سيرة شخص،

بل مرآة لأمةٍ،

تحتاج أن تنظر إلى نفسها في الضوء، لا في الظل.

محمد نجيب نبهان

اسطنبول ١٧ يونيو ٢٠٢٥

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر التاريخية الكلاسيكية

- ابن بشر، عثمان بن عبد الله. عنوان المجد في تاريخ نجد.

من أقدم المصادر النجدية التي توثق سيرة محمد بن عبدالوهاب وتاريخ الدولة السعودية الأولى.

- ابن غنام، حسين. روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام.

مرجع داخلي لدعوة الشيخ، كتبه أحد أبرز تلاميذه، ويعتبر من النصوص المؤسسة للرؤية الدعوية.

- الجبرتي، عبد الرحمن. عجائب الآثار في التراجم والأخبار.

نظرة خارجية مصرية على آثار الدعوة الوهابية في شبه الجزيرة، يسجل موقف الأزهر من الدعوة.

- الشدياق، أحمد فارس. الواسطة في معرفة أحوال مالطة.

تناول فيها الشدياق شيئًا من التحولات الفكرية والدينية التي مرّ بها العالم الإسلامي في تلك الحقبة.

ثانيًا: الكتب النقدية والفكرية الحديثة

- الدكتور علي الوردي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث.

تطرق فيها إلى أثر الفكر الوهابي على العراق والمجتمع النجدي بالمقارنة مع التحولات الفكرية الحديثة.

- **الدكتور حسين مؤنس. معالم تاريخ الإنسانية.**

يتناول فيه البيئة الدينية والاجتماعية التي نشأت فيها الدعوة وسبل انتشارها.

- **الدكتور عبد العزيز الخضر. السعوديون والحراك.**

يناقش التيار الديني الوهابي وتحولاته داخل المجتمع السعودي.

- **الدكتور عبدالله النفيسي. الحركات الإسلامية: رؤية مستقبلية.**

تحليل لدور الوهابية في تشكل الحركات السلفية المعاصرة.

- **الدكتور محمد شحرور. الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة.**

ليس مرجعًا مباشرًا للوهابية، لكنه مهم كإطار فكري لمراجعة الفهم الديني التقليدي، ومنها المدرسة السلفية.

- **صادق جلال العظم. نقد الفكر الديني.**

مرجع نقدي لفهم الأطر الإيديولوجية للدين، ومنه الوهابية، من منظور علماني عقلاني.

ثالثًا: دراسات غربية وحيادية

- **David Commins. The Wahhabi Mission and Saudi Arabia.**

دراسة أكاديمية رصينة تبحث في تطور الدعوة الوهابية وعلاقتها بالدولة السعودية.

- **Madawi Al-Rasheed. A History of Saudi Arabia.**

قراءة نقدية لتاريخ الدولة السعودية ودور محمد بن عبدالوهاب في تأسيس مشروعها الديني والسياسي.

- **Natana DeLong-Bas. Wahhabi Islam: From Revival and Reform to Global Jihad*.**

تقدم فهمًا أكثر اعتدالًا ونقدًا أكاديميًا موضوعيًا لمراحل تطور الفكرة الوهابية.

رابعاً: الوثائق والمصادر العربية الحديثة

- **الشيخ الدكتور أحمد الكاتب. تطور الفكر السياسي الشيعي.**

لفهم الموقف الشيعي من الوهابية وتحليلها عبر الأدبيات الطائفية والتحولات العقائدية.

- **مقالات وتقارير من مواقع ومجلات فكرية وبحثية، منها:**

مركز المسبار للدراسات والبحوث.

مجلة الكلمة.

مركز دراسات الوحدة العربية.

خامساً: الوثائق السردية والشفوية

- **روايات وحكايات تاريخية شفوية من شبه الجزيرة العربية.**

تم إدراجها في المتن السردي بأسلوب أدبي استنادًا إلى شهادات نقلها رحالة ومؤرخون وشهود عيان.

- **تقارير الرحالة الأوروبيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أبرزهم:**

Carsten Niebuhr وJohn Lewis Burckhardt.

سادسًا: المصادر الدينية

- القرآن الكريم

كمصدر أول للفهم الديني والسياق العقائدي، خاصة في الجدل حول التوحيد والشرك.

- كتب التفسير الكلاسيكية مثل تفسير الطبري، والزمخشري، والرازي.
- كتب الحديث: البخاري، مسلم، وأبو داوود.
- المواقف النقدية من علماء الأزهر، وفتاوى علماء مكة والمدينة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

تنويه ختامي:

اعتمدت هذه الرواية على المزج بين المادة التاريخية، والخيال الأدبي، والتحليل النفسي والشخصي.

فهي ليست كتابًا في التاريخ الأكاديمي، بل سردية أدبية تتوسل التاريخ لفهم الإنسان،

ولم تكن هذه المراجع أدوات توثيق فقط، بل جسورًا لفهم أعمق، ولنسج حكاية تتردد بين النور والظل.

محمد نجيب نبهان

كاتب وباحث وناقد فني وتاريخي

فهـرس الموضــوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمـة الروايــة: "قـرن الشيطــان"	٣
مقدمة نقدية لرواية "قرن الشيطان"	٥
الباب الأول: البذرة	
الفصـل الأول: الـولادة من رحـم القـرون	٧
الفصـل الثاني: بيـت آل عبد الوهـاب	١١
الفصل الثالث: طلب العلم ... على قارعة النـار	١٤
الفصل الرابع: العـودة الناقمــة حتى ضـاق صدر التلميـذ بالأساتــذة	١٨
الفصل الخامس: نبتـة الغلو في تربة القسـوة حين تجمّــع الغبار حــول الفكــرة	٢
الباب الثاني: نار في العروق	
الفصل الأول: صدى النار في العقل الصغير	٢٥
الفصل الثاني: ظلال الحيرة والتكوين الأول	٣٠
الفصل الثالث: على عتبة الرحيل	٣٤
الفصل الرابع: في مرآة المدينة المنورة	٣٨
الفصل الخامس: بوّابة الانفجار	٤١

الباب الثالث: الرحيل إلى النار	
الفصل الأول: نداء الطريق	٤٥
الفصل الثاني: شمس البصرة وأشباحها	٥٠
الفصل الثالث: المذهب في الميزان - جدل العقل والنص	٥٦
الفصل الرابع: غبار على قافلة الحجاز (موسع)	٦١
الفصل الخامس: الطريق إلى اللاعودة	٦٨
الباب الرابع: حصاد الأسئلة المحرّمة	
الفصل الأول: معارك الظن واليقين	٧٣
الفصل الثاني: محبرة فوق الجمر	٨٠
الفصل الثالث: الأشباح في الحلقات	٨٦
الفصل الرابع: شريعة على صهوة الخوف	٩٣
الفصل الخامس: ظلّ اللهب على الجدار	٩٩
الباب الخامس: في فم الثعبان	
الفصل الأول: نزاع بين الشريعة والروح	١٠٧
الفصل الثاني: الدم الذي يسيل من الكتب	١١٢
الفصل الثالث: وسوسات الفقهاء	١١٨
الفصل الرابع: الحجاز: الأرض التي تكره الازدواج	١٢٣

الفصل الخامس: السجال الأول مع المريدين	١٢٨
الباب السادس: شهوة التصحيح القاتل	
الفصل الأول: سكين العقيدة	١٣٢
الفصل الثاني: الدين أم أنا؟	١٣٨
الفصل الثالث: الطواف حول الذات	١٤١
الفصل الرابع: مرآة الكفر	١٤٦
الفصل الخامس: الشيخ والهاوية	١٥١
الباب السابع: الحلف الملعون	
الفصل الأول: بعد الرحيل.. قبس لا يخبو	١٥٩
الفصل الثاني: زمن التوحش	١٦٤
الفصل الثالث: البخور والمباخر	١٦٩
الفصل الرابع: الميثاق فوق الرمال	١٧٤
الفصل الخامس: آخر الظل، أول النار	١٧٨
الباب الثامن: النهاية التي لا تموت	
الفصل الأول: الطوفان بلا سفينة	١٨٤
الفصل الثاني: رحلة لا تعود	١٨٧
الفصل الثالث: ظلال لا تنطفئ	١٩٢

الفصل الرابع: اللعنة المقدسة	١٩٦
الفصل الخامس: القرن الذي تأخر عن موته	٢٠٢
الباب التاسع: مرايا النار و الظل	
الفصل الأول: المرايا المكسورة	٢٠٧
الفصل الثاني: يوم أكلت النار ظلّها	٢١١
الفصل الثالث: الطريق إلى العيينة	٢١٦
الفصل الرابع: بلاغ إلى الغيب	٢١٩
الفصل الخامس: إرث من دخان	٢٢٣
الباب العاشر: حواف العرش المتهاوي	
الفصل الأول: الظلُّ الذي تَمدَّد	٢٢٧
الفصل الثاني: انكسار المرايا	٢٣١
الفصل الثالث: في حضرة الظلّ الثقيل	٢٣٥
الفصل الرابع: حين يصبح النور عبئًا	٢٤٠
الفصل الخامس: انطفاء النواة	٢٤٤
الباب الحادي عشر: الدعوة التي أكلت مؤسسها	
الفصل الأول: حين تنهش الذئاب صاحبها	٢٤٦
الفصل الثاني: إرث ثقيل، وأرواح تُجلد باسم التوحيد.	٢٤٩

الفصل الثالث: الدم على شريعة الكلمات	٢٥٢
الفصل الرابع: الطريق إلى الطغيان.	٢٥٦
الفصل الخامس: الوحش الذي لم يعد بحاجة لسيّده.	٢٥٩
الباب الثاني عشر: نشيد الرماد الأخير	
الفصل الأول: أرض لا تعرف القبور	٢٦٢
الفصل الثاني: الذين لم يموتوا	٢٦٧
الفصل الثالث: وصايا في رماد البلاد	٢٧٢
الفصل الرابع: أطلال من جمـر	٢٧٧
الفصل الخامس: نهاية رجلٍ لم تنتهِ	٢٨١
الخاتمة : بين ظلال الحقيقة ولهيب الخرافة	٢٨٧
المصادر والمراجع	٢٩١
فهرس الموضـوعات	٢٩٥

قرن الشيطان

Satan's Horn

تاريخ الحركة الوهابية ، والسيرة الذاتية لمحمد بن عبد الوهاب النجدي

محمد نجيب نبهان

عن المؤلف :-

أديبٌ وشاعرٌ وكاتبٌ سوري، وناقدٌ فني وتاريخي، وُلد في مدينة حلب. حاصل على إجازة في اللغة العربية وآدابها من جامعة حلب(١٩٩٧)، وشهادة الماجستير في النقد الأدبي الحديث، إلى جانب دبلوم في الإرشاد النفسي والتربوي، وإجازة في الإعلام من إسطنبول (٢٠٢٤).

تميّزت أعماله بتمازج التأمل الفلسفي مع الحس الجمالي، وسبر أغوار النفس البشرية عبر مرافئ التاريخ والدين والسياسة. يُعرف نبهان بقدرته على تحويل السرد إلى مرآة كاشفة للوعي العربي المتصدّع، وتفكيك بنى التطرف والخرافة بصوتٍ أدبي عميق.

تُعدّ هذه الرواية مشروعه الأول و الأكبر، حيث اقتحم بها منطقة ملتهبة من الذاكرة الإسلامية، متتبعًا رحلة محمد بن عبدالوهاب لا بوصفه فقيهًا فحسب، بل كعلامة فارقة في لحظة الانعطاف بين الإصلاح والتغوّل، بين الإيمان والسلطة، بين العقل والنار.

عن الرواية :-

في روايته (قرن الشيطان)، لا يكتب محمد نجيب نبهان سيرة رجل، بل يحاكم فكرة. يمسك الريشة بيد، والمعول بالأخرى، ليهدم الأساطير التي نُصبت على رمال الوهم، ويكشف الوجه الآخر لدعوةٍ اتخذت من (التوحيد) ذريعةً، ومن الدم طريقًا. الرواية ليست مجرّد تأريخ أدبي لحياة محمد بن عبدالوهاب، بل رحلة فكرية جريئة، تغوص في عمق الشخصية الجدلية التي ساهمت في تغيير ملامح الجزيرة العربية، من منبر المسجد إلى ساحة القتال.

الكاتب، الذي جمع بين لغة الأدب ونَفَس المؤرخ ونقد المفكر، يُقدّم نصًا شديد التوتر، عميق التأمل، لا يهادن ولا يُجمّل محمد نجيب نبهان، الأديب والناقد الذي تمرّس في قراءة التاريخ بروح شعرية، وصياغة الفكرة بحدّ نصل، يثبت هنا أنه لا يكتب فقط للحاضر، بل ليهزّ ذاكرة المستقبل.

هذه الرواية، في لغتها وتكوينها، ليست دعوة ضد ماضٍ فحسب، بل سؤال مفتوح حول كل يقين لم يُختبر بعد.

الأستاذ / مصطفى خاطر